
إبراهيم معتز المرزوقي
Telegram:@mbooks90
أحراش دموية
صحوة مولوخ
تشكيل للنشر والتوزيع



Email publish@tashkeel- publishing.com

Website www.tashkeel-publishing.com

Mobile 201006250473 FB/Tashkeeel

I.S.B.N : 978-977-6963-80-1

رقــم الإيــــداع : 26503/ 2023

تصميم الغلاف : أحمد فرج

التدقيق اللغوي : نورهان سعيد

الإخراج الفنـــي : يوسف الفرماوي

المـديــــر العــام : سيد شعبان

سلامٌ على الذين إن خاننا التعبير لم يخنهم الفهم، وإذا أفسدنا مفرداتنا أصلحوا نواياهم، هناك أشخاص يأتون متأخرين إلى حياتك، رائعين جدًا لدرجة أنك تقول: أين كنتم من البداية؟!

نجيب محفوظ

إهداء

إلى أخي وبطلي وصديقي..

ابني معتز.

هذه القصة خيالية، مبنية على شخصيات خيالية وبعض الحقائق التاريخية التي تخدم الرواية، وليس المقصود بها سرد تاريخي أو تقديم حقائق، وأي تشابه بين الأحداث والواقع هو محض الصدفة.

المؤلف

وسط إفريقيا 2023

تفتح عينيها في بطء، لم تكن نائمة، بل متعبة وكل عظمة من عظامها تئِن، ولكنها لوهلة لم تشعر بالموجودات حولها، وغابت عن الوعي للحظات مرت كأنها سنوات طويلة، وعندما فتحت عينيها لم يتغير شيء، من ظلام إلى ظلام، ما تنبَّه حقيقة هو عقلها وبدأ في إدراك أبعاد المكان والمحفزات للحواس، مثل الرائحة الكريهة المثقلة على الصدر، رائحة العرق والقيء والبول وروائح كريهة أخرى لا تدري مصدرها كلها مختلطة برائحة الجازولين وعادم السيارة.

حاولت أن تتحرك، ورغم أن عقلها أعطى أوامره لقدميها وذراعيها أن تتمطى وتنفرد، ولكنها وجدت الحيز الضيق الذي يشغله جسدها لا يكفي لأي حركة حتى ولو صغيرة، فرفضت أطرافها أوامر عقلها الصارمة في احتجاج، وأبَت أن تتحرك، كل ما استطاعت أن تفعله هو أن تدعك عينيها في قوة، والظلام لا زال جاثمًا كضيف ثقيل لا يرغب في الرحيل.

بدأت أذنها تسمع فجأة، بدأت حاسة السمع تعمل مع صوت صفيرٍ عالٍ كاد يصيبها بالصمم، وربما هي صماء لا تستطيع السمع أصلًا! طنين مثل آلاف النحلات يخترق أذنها ويدك ثنايا رأسها، مع ارتفاع أصوات أنين خافتة تبدأ في الظهور على استحياء من جانبها، وأخرى عالية، وبكاء أطفال وصوت محرك سيارة صاخب يتعارك مع هذه الأصوات يحاول أن يخرسها فلا يستطيع.

تنتبه أن صوت الأنين أيضًا يخرج من بين شفتيها الجافتين الملتهبتين، ليعلن ليس فقط جفاف فمها، بل أيضًا التفاف أمعائها وتلوي معدتها من الألم، ألم الجوع ورغبة في طعام لم يدخلها لوقتٍ طويل عجزت عن تقديره، وشروخ في حنجرتها لا تدري من الصراخ أو البكاء أم من العطش ووطأته!

تصرخ في عقلها الغبي أن يتوقف عن الطلب منها أن تمد قدميها أو تتحرك قيد أنملة..

- لا أستطيع!

تصرخ في داخل رأسها:

- لا يوجد متسع، فالمكان بالكاد يكفي لأجلس القرفصاء وركبتاي تكادا تلامسا أنفي!

تبدأ عيناها في اعتياد الظلام شيئًا فشيئا، ترى نقاطًا بيضاء متفرقة هنا وهناك، تكبر وتصغر وتتحرك، إنها عيون تنظر أيضًا في الظلام نحوها أو ربما بجانبها، عيون يبدو فيها الرعب والذعر رغم الظلام الحالك.

تبدأ الدموع في التساقط من مقلتيها وتسأل نفسها: لماذا تبكي؟، فهي ليست حزينة، بل خائفة أو قلقة، والحرارة ترتفع داخل المربع الصغير الذي يهتز في استمرار والذي يبدو أنه مؤخرة سيارة، الروائح تثير الدمع فيهرب من بين جفونها ويتساقط على خدها وركبتيها المضمومتين إلى صدرها.

تحاول أن تتنفس في عمق لعلها تفتح قفصها الصدري وتدخل بعضًا من الأكسجين إلى رئتيها، ولكن كمية الهواء غير كافية، يرفض الهواء الدخول كزائرٍ خفيفٍ إلى صدرها، بل يندفع في بطء وعنف واقتحام بقوة الغزاة الفاتحين يقتلون كل ما يعترض طريقهم.

الهواء ثقيل ومشبع برائحة أنفاس الآخرين وكمية قليلة من الأكسيجين تكفي بالكاد لخلايا الدم التي تتحرك في عروقها، حتى الخلايا تعصي الأوامر وتسير ببطء تحمل القليل من عصير الحياة لباقي جسدها الذي بالكاد يتمسك بأهداب اليقظة حتى لا تسقط في ثُقب الغيبوبة الأسود التي تقترب لتبتلع وعيها.

ترتفع السيارة في الهواء وتهبط في قوة بسبب وعورة الطريق ويطلق السائق سبَّة تسمعها من بعيد بلغةٍ غريبة على أذنها، وهو يحاول أن يتفادى حفر الطريق التي لا تنتهي، ويهتز الصندوق الذي يحمل بداخله بشرًا أكل عليهم الدهر وشرب، أطفال ورجال ونساء من جنسية أفريقية، مع ارتجاج الصندوق الخلفي للسيارة

تعالت صيحات الألم من الأفواه وأحست هي بألمٍ شديد في ضلوعها.

- يبدو أن هناك ضلعًا أو ضلعين مكسورين والطعم المعدني الذي أشعر به في فمي يعني أن أحد هذه الأضلاع قد اقتحم النسيج الطري للرئتين وتسبب في نزيف. لحظة! يبدو أني أعرف هذه المعلومات وأستطيع تشخيص حالتي بدقة، هذا يعني أني طبيبة أو عندي خلفية طبية ما!

تقول لنفسها ويدها تضغط على موضع الألم:

- هذا يعني أني أحتاج إلى مستشفى سريعًا!

تربت يدٌ على كتفها في رقة، يبدو أنها ذراع تحيط بكتفها في رعاية وحنان وشعور قوي بالمسؤولية، تسأل نفسها:

- من هذا؟!

مع تسرب نور الدقائق الأولى من النهار وانسحاب الظلام وجنوده في بطء من ثقوب الصندوق الخلفي المعبأ بالبشر، تقرر أن تحاول تذكرُ ماذا يحدث لها وتجمع شتات عقلها المشوش وتتذكر بدلًا من أن تنشغل بهذه الذراع التي تحيط بها، رغم أنها أشعرتها بقليلٍ من الطُمأنينة في هذا المكان الموحش.

تبدأ عيناها العسليتان الواسعتان في النظر حولها، فترى وجوه بشرٍ يغلب على لون بشرتهم اللون الأسود بدرجاته، أسود أبنوسي وأسود ليلي وبني بلون الشوكولاتة الداكنة وبني فاتح بلون الحليب بالشوكولاتة الذي كانت تحبه. كم ترغب في كوبٍ كبير الآن لتروي عطشها وجوعها في الوقت نفسه!

هل هي أيضًا سوداء اللون؟ تنظر لجلدها في تركيز مع ضعف الإضاءة ورجرجة السيارة على الطريق الوعر، رغم أن جلدها مغطى بالأتربة والجروح القطعية المتعددة إلا أنه ليس أسود، بل بلون القمح الذي يميل إلى بياض.

كم ترغب في مرآةٍ الآن لتنظر إلى وجهها وتتساءل: يا ترى، هل ما زال يحتفظ

بنضارته أو لحق بجلد يدها فتقطّع وتغطى تحت التربة السوداء المتراكمة على جلدها والتي ربما تكفي لزراعة بعض النباتات، ماذا أفعل هنا إذن؟

تغلق عينيها وتحاول التذكر، فتأتيها الأفكار تباعًا، اسمها «بشرى»، لم تصم منذ فترة طويلة كالتي مرت عليها في هذا البلد الإفريقي، صيامًا قسريًا فرضته عليها الظروف التي مرت بها، لماذا تذكرت الصيام ورمضان الآن؟ ربما لأن الجوع ينهش جدار معدتها بحثًا عن الزاد، هل بداية رحلتها هنا كانت بهذه الصعوبة؟

لم تكن البداية سيئة، لا تدري كيف ساءت لهذه الدرجة التي تخاطر فيها بحياتها وسط هؤلاء البؤساء!

مع وضوح الرؤية، تدرك أن القدر وضعها وربط مصيرها مع هؤلاء الذين تبدو ملامح الشقاء والخوف والمرض على وجوههم.

***

تتوقف السيارة في عنفٍ وتئِن ضلوعها في ألمٍ مع التوقف المفاجئ، وتعلو الآهات المنكسرة هنا وهناك، فالجميع يعاني والجميع يشكو من مرض أو كسر، ولكن ذراع «فوستين» أمسكت كتفها في قوة ورفق وهو يحاول أن يحميها.

- العزيز «فوستين « ما زال يحاول حمايتي! أشعر بذراعه القوية تحيط بي وصوت أنفاسه القريب مني، اهتزاز عضلاته والحرارة المنتقلة من جسده المجاور تدل على أنه لا يزال يعاني من الحمى، وربما لم يُشفَ من الجرح في كتفه وهو يدافع عن « ترينو» النقية نقاء الرياح.

ترجل مَن في السيارة وانتظرت هي لتكون آخر المغادرين، تحاملت على ذراع «فوستين» القوية، ونزلت على الأرض الطينية الرطبة وتنفست هواء الصباح في قوة، فدخل يحمل آلاف الدبابيس الساخنة إلى رئتيها المتداعية، ورغم ذلك لم تعبأ بالألم، بل فضلت أن تتحمله وتنتهز هذه الفرصة النادرة لتعيد تجديد خلاياها وتعوض نقص الأكسجين وتطرد رائحة التراب والعرق والفضلات الإنسانية

العالقة بالهواء داخل المقبرة المتحركة التي تحملهم إلى المجهول.

تصاعد صوت حوار بالبامبارا، وهي من اللغات المحلية، بين «فوستين» والسائق، ولم تفهم منه سوى بعض الكلمات الغاضبة «لاكالين» «جي» «دوموني»، وكثير من التلويح في الهواء، ونظرات الأسى على وجوه الركاب زادتهم بؤسًا على بؤس.

عاد «فوستين» مطأطأ الرأس، ونظر لها نظرة اعتذار وبعينين جفت مقلتاها وبلغة إنجليزية ركيكة:

- آسف، لا بد أن نقضي الوقت هنا لأن الطريق غير آمن وسنعاود الحركة تحت جنح الظلام.

- هوّن عليك، وماذا عن الطعام والشراب؟ سمعتك تسأله عن ذلك، ألم يكن من المفروض أن يوفر الطعام لهؤلاء الناس؟ هذا كان الاتفاق!

- لا يستطيع إطعام كل هؤلاء، ولكنه اختار هذه البقعة لوجود جدول من الماء قريب وأشجار الموز والفواكه وبعض جذور الكاسافا.

- ولكنه أخذ من المال ما يكفي للطعام والشراب والتنقلات!

- في ظل هذه الظروف نشكر الرب أنه ما زال موافقًا على نقل كل هؤلاء عبر الحدود إلى بر الأمان.

قاطعهم صوت امرأة تنادي: «جي لا يان».

- هات يدك «باليماموسو»، لقد وجدت المرأة نبع ماء قريب.

أمسكت بيده وهي تبتسم، فكلمة «باليماموسو» بالبمبارا تعني «أختي» وهي أول ما تعلمته منذ وطئت قدمها هذا المكان الساحر الدموي.

قامت في ألم ومشت إلى نبع الماء وهي تتحامل على يده القوية، بين الأشجار

الباسقات والأوراق العريضة وأسراب البعوض، مشت تتساءل كيف يحمل هذا المكان الساحر في طياته كل هذا العنف والشر والألم؟ لم تكن تتخيل -وهي هذه القادمة من قرية صغيرة في دلتا النيل- أن تمر بكل ما مرت به في الشهور القليلة الماضية، وكيف ما تخيلته مغامرة شيقة تأخذها إلى عالم أفريقيا الساحر تنقلب كابوسًا لا تستطيع أن تستيقظ منه!

انفرجت أوراق الشجر عن جنة بكل ما تحمله الكلمة من قوة، ينساب من بين رحم الصخور شلالٌ صغير من المياه اللؤلؤية العذبة ويسقط فتتناثر ماؤه لتروي حديقة من أبدع ما خلق الله على الأرض. اللون الأخضر ليس ذاته الذي تراه في المزارع في مصر أو حتى في الصور التي طالعتها كثيرًا قبل أن تبدأ رحلتها من القاهرة، زهاء اللون ونضارته وكأنه خلق في التو، ألوان وأشكال من الزهور وآلاف الفراشات تطير في أريحية هنا وهناك تحتفي بوجوه متعبة ومتألمة وكأنها تخبرهم أن الخالق موجود في عظمة خلقه وإبداع ريشته الأزلية، وكيف من قلب الظلم والحرب والقتل ينبلج الجمال ممزقًا ستار القبح.

شهقت في انبهار وتناست ألمها مع ما تراه أمامها، وأحست بالضآلة والفخر في الوقت نفسه، ضآلة الإنسان أمام عظمة الخالق وفخر أن كل ذلك قد خُلق من أجل هذا البائس ابن آدم الذي يعيث في الأرض فيقضي على الأخضر واليابس بطمعه وجشعه ورغبته في فرض السيطرة بالقوة على من هو أضعف منه، ونسي أن الجبار موجود.

اقتربت من الماء ونبهها «فوستين» أن تتمهل ولا تعب الماء عبًا، فبلت شفتاها وغسلت وجهها وبدأت تشرب في بطء فانساب الماء يحمل الحياة إلى خلاياها المتلهفة، غمرت وجهها في الماء وتركته ينساب إلى جذور شعرها الأسود الفاحم، مد لها يده بثمرة مانجو فغرست أسنانها بقوة وانساب العصير من شفتيها إلى ذقنها فمسحته وهي تنظر إليه في خجل، واستشعرت بالحرج لأنه لم يشرب أو يأكل بعد، فسألته:

- لم تشرب شيئًا يا أخي!

- بعدكِ سوف أشرب، أريد أن أطمئن عليكِ أولًا.

ترقرقت عيناه بالدمع وأردف.

- آسف على كل ما مررتِ به، لم أستطع الدفاع عنكِ، بل أصبتُ وأنتِ مَن ساعدني وأخرج الرصاصة من كتفي، وفوق كل ذلك لا أدري ماذا حدث لحبيبتي «ترينو» والسيدة «مارجرت»، تركتهما وهربت مثل الجبان.

- توقف «فوستين». أولًا نحن لا نعرف ماذا حدث لهما، ربما كانا بخير وينتظران لقاءنا في «غينيا» أو «السنغال» كما اتفقنا أو في الشمال، ثانيًا أؤكد لك أن هذه المشاكل ليست بجديدة عليّ، فقد اعتدتها منذ صغري، وثالثًا لا تكن متشائمًا، هيا اشرب وكُل قليلًا، فأمامنا رحلة طويلة في صندوق نقل الموتى الذي يطلق عليه كذبًا «سيارة».

- لا زلت أسمع صوت «مارجريت» وهي تصرخ والرائحة لا أستطيع أن أخرجها من أنفي، تتمزق نفسي كل ثانية مع هذا الشعور بالعجز، أنا جبان.. جبان..

- لقد اختارت «مارجرت» أن تأتي لهذا المكان وتدافع عن المظلومين وتعرف جيدًا أن الثمن قد يكون حياتها و«ترينو» ليس الشقاء بغريبٍ عنها، فحياتها قصة كفاح طويلة وما مرت به كفيلٌ بأن يشد عودها ويجعلها شديدة البأس، وما حدث أو سوف يحدث ربما لحكمة ما لا ندريها، هون عليك، فمن رحم المعاناة يأتي الأمل، وعندما تعالج الجراح بالحب تخلف ندوبًا جميلة تعتز بذكراها.

سقط أرضًا ووضع كفيه على وجهه، ومن بين أصابعه انحدرت الدموع، حملت نفسها بصعوبة وزحفت إلى جواره وربتت على كتفه في حنان، شعرت بقلبها يتمزق من أجله، فما يمر به فتى في الثامنة عشر من عمره كفيل بهدم رجلٍ قوي، وخاصةً لوعة فقد الحبيب الأول، أو هكذا خيِّل له، فمَن بالقوة والصلابة أن يقهر هذه الظروف ويخرج منها منتصرًا!

أخذت الأفكار تتصارع في رأسها وهي تتذكر حياتها وما مر بها وكيف انتقلت إلى هذا البلد بسبب إعلانٍ رأته، أو ربما وضعه أحدهم في طريقها في الجريدة الرسمية يطلب متطوعين للعمل في مشروع في إفريقيا يتبع منظمة أطباء بلا حدود، جلست بجوار الفتى في وسط الأدغال تتساءل: ما هي البداية وما هي نهاية الطريق؟

كفر الحمام 1999

اسمي «بشرى صابر عبد السلام»، قصتي ليست مثل القصص التقليدية التي تمرون بها في حياتكم اليومية، فأنا وحيدة أبي الفلاح الأجير، نعم أبي فلاح بالأجرة، يحمل فأسه كل صباح وتراه واقفًا على الجسر الصغير الذي يربط بين قريتنا والقرى المجاورة ينتظر مَن يطلب منه أن يحفر قناة يمرر بها الماء من حوضٍ لحوض.

لو أنت خبير في الزراعة فهذه الطريقة يقال لها «ري الحياض»، وهي طريقة زراعية أو نظام ري يعتمد على تقسيم الأراضي إلى أحواض عن طريق إقامة الحواجز الطينية وينساب الماء بين الأحواض تباعًا، وهنا يأتي دور أبي، فيجب ملء الحوض من ماء النيل أو الترع، ثم غلقه بالطين الذي يحفره بفأسه ويبدأ في الحوض المجاور، وهكذا دواليك طوال اليوم. وفي انتظار ملء الحوض تلو الآخر يقوم بفأسه بتقليب التربة ونزع الحشائش الضارة، وعند نهاية اليوم يعطيه صاحب الأرض الأجرة ويزيد برغيفين من الخبز أو بعض القمح أو الرز أو قطعة من اللحم المطبوخ يحملها أبي للبيت في المساء، فيمر على جارنا المُسِن فيعطيه الطعام ويُبقي لنا القروش القليلة، كانت أمي تتعجب من تصرفه وتقول له:

- ما يحتاجه البيت يحرم على الجامع!

فيبتسم ويرد عليها:

- أولًا، هذا المثل مخادع، المقصود بالجامع هنا ليس المسجد الذي يصلي به الناس، بل المقصود هو جامع الضرائب، وكان المصريون يخفون المال لقناعتهم أن الأفضل صرفه على البيت بدلًا من الدولة.

- دائمًا تغلبني بهذا الكلام يا «صابر»، ولا أستطيع أن أرد، ولكن على الأقل نقسم الطعام نأكل بعضه ونتصدق بالبعض.

- لا أطعم بيتي من أموال الصدقة أبدًا، بذراعي وصحتي أستطيع أن أطعمهم ولو قليلًا! أين عزة النفس وكيف ترفع ابنتك عينها في عيون زميلاتها وهي تأكل من بقايا ما يطعمون؟! يجب أن تفتخر بأبيها رغم بساطة عمله ولا ينكسر بداخلها شعور العزة والفخر.

في مواسم الزراعة المختلفة، مثل القمح والموالح، يعمل أبي في جني القمح عندها يكون بيتنا عامرًا بالخير، لأن الوظيفة في هذه الحال تكون مستمرة لأسابيع وذات عائد ثابت ومردودها المادي يكفي لتجربة اللحوم أو الدواجن أو الأسماك.

***

أبي شخص استثنائي. تقولون إن رأيي في أبي كرأي أي بنت في أبيها، هذا صحيح إلى حدٍ ما، ولكن هذا الرجل كان يقرأ لي كل مساء قبل النوم، يعود من عمله الشاق ويتحمم ويلبس جلبابًا نظيفًا، وبعد العشاء يحضر كتابًا من مكتبة صغيرة صنع أرففها بيده من بقايا الأخشاب، وقام بملئها بكتب عديدة يشتريها بقروش زهيدة من بائع الصحف أو من بيوت أعيان القرية لمن عندهم أطفال في مثل عمري.

كان يقرأ لي ويقول إن التعليم والثقافة هي طريق الإنسان ليرتقي ويتقدم وأن سلاح الفرد في علمه وأخلاقه، كانت قراءته كمن يعيش كل حرف ويرسم بصوته الرخيم لوحة من الكلمات تنقلني لعالمٍ جديد أظل في جنباته أيامًا أستكشفه، عشت في أزقة القاهرة القديمة مع نجيب محفوظ وسافرت حول العالم مع أنيس منصور، وعرفت الحب مع يوسف السباعي وإحسان عبد القدوس، ربما يبدو كلامًا مرسلًا وقد يسمعه المرء عن والديه دائمًا أو تراه على ظهر كتاب أو سطور في رواية، ولكن الكتاب مع أبي كان له طعم آخر وهو يرنو إليّ بعينٍ تفيض حنانًا وصوتًا عذبًا شديد الرقة والحنان، ويحكي

لي عن عباءة خيري شلبي التي ماتت وروايات الهلال القديمة لجورجي زيدان والمنفلوطي. أتذكر عندما نجحت في الابتدائية، ذهب فأحضر الشهادة وغاب يومًا كاملًا عرفت بعدها أنه ذهب إلى القاهرة فقدم شهادتي للمؤسسة العربية الحديثة وحصل في المقابل على عشر روايات من كل سلسلة هدية للمتفوقين في الابتدائية، حمل هذه الروايات الصغيرة في حجم الجيب ودخل عليّ بها دخول الفاتحين وعيناه تبرقان في سعادة وجلسنا نقرأ طوال الليل ويحكي لي عن المخابرات المصرية والأدوار التي لعبها البطل الوسيم، الذي تتحرك أطرافه الأربعة في آنٍ واحد، في الدفاع عن أمن مصر وسلامتها.

***

أبي طويل القامة، شعره قصير يميل إلى البني وعيناه خضراوان في لون الفيروز الذي ينعكس عليه ضوء القمر فيقبله في شغف، طفولي الوجه برجولة وطابع الحسن مختوم به ذقنه وله حلاوة في طلته. عندما يبتسم أو يضحك يهتز معه الشجر وتتفتح الأزهار وتشرق الشمس بعد يومٍ ممطر، أبي حبي الأول وصديقي وأخي والبطل في كفاحه في صمت ضد أعباء الحياة، يعود إلى البيت فأجري نحوه وأرتمي في حضنه الدافئ ويظل ساكتًا يهدهدني ويربت على ظهري حتى أخرج من بين ذراعيه القويتين، ولو قدر لي لبنيت بيتًا وسكنت بين أحضانه، طالما تنمرت جدتي «تغاني» عليّ وقالت:

- لست أدري لماذا لم ترِث البنت منك البياض والحلاوة واكتفت بلون أمها القمحي وعيونها العسلية وقوامها القصير؟

يرد أبي ضاحكًا:

- يا أمي، لقد احتالت «بشرى» وهزمت قوانين الجمال ودكت حصون الفتنة بشعرها الأسود وبشرتها القمحية لون الخير وعينيها العسليتين بلون الكهرمان، هي أجمل بنت في التاريخ منذ خلق الله أمنا حواء إلى يومنا هذا.

يحملني بين ذراعيه، يرفعني ويلف بي ويقول وهو يرنو إليّ متيمًا:

- انظري إليها، فيومًا ما ستصرع الرجال بحسنها والأهم بعقلها وحكمتها الذي هو أفضل ما ورثت مني.

تمط جدتي شفتيها وتقول:

- البنت جميلة فعلًا ولكن أمها لا تعاشر، كان الله في عونك يا بني.

يرد أبي:

- وأمها سيدة النساء بعدكِ يا أمي.

نظر نحوي وسألني:

- هل قالت لكِ أمي ماذا يعني اسمها «تغاني» بحرف الغين وليس «تهاني» بالهاء؟

أهز رأسي يمينًا ويسارًا في عدم معرفة وأنا أنظر إلى وجه جدتي الذي يشرق بابتسامة فيكمل وهو يوجه جسده نحوي ويبدأ بالحكي:

- جدي لأمي كان تاجرًا كبيرًا من الصعيد وكان متيمًا بأم كلثوم، يأتي حفلها فيلبس أفخم ملبسه من جلباب مخيط من قماش صوف إنجليزي والوشاح الحريري الذي اشتراه من المركز ويقال أنه دفع فيه جنيهًا كاملًا والحذاء الذي يلمع لدرجة أنك تستطيع أن ترى وجهك فيه والطربوش هو أهم ما يكمل لجدكِ بهاءه وأناقته، طربوش أحمر بلون دم الغزال وله «زر» من الساتان الأسود.

تقول جدتي في شغف:

- كان رجلًا ملء ملابسه، وأبوك أخذ منه الحلاوة والطول الفارع.

يكمل أبي:

- يحمل جدكِ الحذاء والطربوش في حقيبة حتى لا تتسخ ويستأجر سيارة

خاصة من أطراف البلدة تحمله إلى محطة القطار ويركب من هناك للقاء معشوقته كوكب الشرق، يكون أول الواصلين لدار سينما قصر النيل أو حديقة الأزبكية أو دار سينما ريفولي أو مسرح طلعت حرب.

قاطعته جدتي:

- هل تذكر يا بني عندما بدأت الإذاعة المصرية، لست أذكر أي سنة، السنة التي أنجبت فيها أكبر أخواتك «علي» رحمة الله عليه.

- سنة 1934 يا أمي.

- نعم، وكان من المفترض أن نحتفل بميلاد أخيكِ وندعو الناس في بيت جدكِ لمباركة المولود، أخذ جدكِ النقود لشراء لوازم السبوع، فقد جرت العادة أن نحتفل بالسبوع في بيت كبير العائلة، واشترى بدلًا منه راديو شارب الياباني والذي كان ثمنه يقارب ثمن قيراط أرض زراعية، ويوم تعثُّر وسقوط أم كلثوم في باريس شعر وكأنه فقد أحد أحبابه، ظلَّ يبكي سقوطها يومين كاملين، عندما تقدم به السن ولم يستطع الذهاب إلى حفلاتها كان موعد حفلاتها في الإذاعة مقدسًا لسكان الدار، يجلس في صحن البيت وبجواره الراديو بعد أن يزيح عنه الغطاء الأبيض الذي يحميه من التراب ويأتي أصدقاؤه ممن لا يملكون راديو في البلدة ويجلسون حوله ويبدأ الكلام واسترجاع الذكريات وتدور صحون الشاي والقهوة والمكسرات وعندما يبدأ الحفل يسود الصمت التام وكأن على رؤوسهم الطير يستمعون ويبحرون في صوتها القوي وألحان السنباطي وبليغ حمدي وغيرها مما أطربت به أم كلثوم الملايين، وقد حزن جدي لعدم قدرته على السفر لحضور حفلاتها رغم ما تعرض له من مواقف، فمرة سرقت حافظة نقوده ومره ضاعت منه فردة حذائه في تزاحم المعجبين انتظارًا لعبورها بينهم في سيارتها الكاديلاك السوداء.

أردفت جدتي:

- يوم ولادتي، صمم أن يسميني أم كلثوم، وقفت له أمي بالمرصاد ورفضت وحملتني وجريت لبيت أبيها تحتمي به، وظللت أسابيع بغير اسم وهم يتجادلون ويجتمعون مع أبي لعله يلين ويرضي، وفي النهاية وافق على اقتراح عمي أن يسميني اسمًا يحمل معنى الطرب ويجمع أبي بشغفه فسميت «تغاني».

ابتسمت جدتي وقالت:

- أمي كانت تحبه حبًا شديدًا غلب حب ليلى لقيس، وكانت تتهافت عليه تهافت الفراشة على جذوة النار لأنه كان وسيمًا ومطمعًا لكل بنات القرية بشاربه الرفيع وشعره المدهون وجسده الممشوق.

***

رغم بساطة عمل أبي لكن لسانه العذب وثقافته الواسعة جعلته مقصدًا لرجال القرية البسطاء يسألونه رأيه في مشاكلهم ويعرضون عليه خلافاتهم أملًا في أن يجد حلًا يرضي جميع الأطراف ويضمن لصاحب الحق منهم أن يسترد ما له، وكانوا يرضون حكمه.

مجلسه كان عند بيت الشيخ «أحمد الرفاعي» إمام المسجد وخطيبه وصديق والدي لأن بيتنا الصغير لا يسمح باستضافة عدد كبير من الناس على عكس بيت الشيخ الذي استغل الأرض خلف بيته فمد بها الأبسطة لقضاء حوائج الناس والاجتماع بهم عقب صلاة الجمعة من كل أسبوع، وقد يسأل البعض عن دور كبار القرية مثل العمدة أو نائب البرلمان المفترض بالوساطة أو النصح، ولكن بعد وفاة العمدة الكبير وتولي ابنه الخلافة بالتزكية لمجرد أنه -على عادة الريف- يحمل نفس اسم العائلة التي تتوارث لقب العمدة لأجيال، ولأنه متخرج من الجامعة ويعيش بعيدًا عن القرية ولا يأتي إلا في المناسبات، فاختار أن يهتم بعمله ومشاكله الخاصة ويترك مشاكل القرية لأبنائها يحلونها فيما بينهم كيفما يتراءى لهم.

كانت مشاكل القرية متنوعة وقد تظهر للبعيد أنها مشاكل تافهة ولا تستحق، ولكن في الواقع نجاح أبي بالتعاون مع صديقه الشيخ يعود إلى معرفته لتاريخ كل عائلة من العائلات التي تتعايش ظاهريًا، ولكن بعد نار الخلاف وتحت الرماد يبقى أثر خلاف قديم من قضايا ميراث أو زواج أو إيجار أرض أو حتى موت حيوان بالخطأ، وإن لم تكن ملمًا بهذا التاريخ فربما تكون غير منصف، ولكن نجاح أبي بالإضافة إلى ثقة الناس في حكمه هي إلمامه بالماضي ويعاونه في ذلك طريقته في الكلام وفصاحة لسانه وطيب حديثه بما يجري عليه العرف ويحكم به الشرع.

أفريقيا الوسطى 2019

(ترينو)

تلهث وهي تجري بسرعة نزولًا على الصخور الصغيرة التي تقطع جروحًا في قدميها الصغيرتين، لا تحس بألم ولا تريد أن تتوقف، تجري وتتمزق رئتيها من الجهد الذي لم تعتده بجسدها الضئيل المنتهك سيئ التغذية.

يتصاعد ألمٌ حاد في جانبها من الركض، وتشعر بجفاف في حلقها وبرودة شديدة في أطرافها في هذا الوقت من الصباح، تحاول أن تلملم أطراف فستانها الملون الممزق المليء بالبقع الحمراء والبنية الداكنة، ومع تصاعد صوت لهاثها تتعثر وتقع، تحاول أن تحمي وجهها بيديها الصغيرتين الناحلتين فتصطدم ضلوعها المكشوفة بصخرة وتسمع صوت شيء يتكسر، تتحامل على نفسها فيجب أن تنزل من هذا التل الذي يرتفع ثلاثون مترًا في السماء وما زالت تحتاج أن تركض مسافةً طويلة أسفله لتصل إلى مبتغاها، تضع يدها على جانبها، تلمس ضلعها المهشم وتصرخ متألمة، تنهال دموعها من عينيها المذعورتين الواسعة وترسم الدموع خطوط كوديان وأنهار على بشرتها الأبنوسية اللامعة، تختلط دموعها بالدم الذي يسيل من جانب فمها والمخاط من أنفها، تنظر حولها وخلفها ورغم عدم وجود من يتبعها إلا أنها تشعر بأنفاسه الكريهة خلفها ويده الغليظة تكاد تطبق على رقبتها الرفيعة وصوته المخيف ينادي عليها «ترينو».

كرهت اسمها لما نطق به، كرهت كل حرف من حروفه وكرهت معناه وكرهت اليوم الذي ولدت فيه، كيف تحملت كل هذه السنوات! يقولون إن الأطفال ضعفاء ولكنها كانت قوية وتحملت في الخمس سنوات التي مرت كأنها قرون ورأت ما لم يره بشر من قبل.

الأطفال في قبيلة «الدوجون» في وسط أفريقيا ليست لهم أهمية كبيرة، لكل عائلة ما لا يقل عن أحد عشر طفلًا، ولا يتم الاهتمام بهم أبدًا حتى في الإطعام،

بعد أن يأكل الرجل وباقي الأسرة من الكبار، فيلتقط الصغار ما تبقى من الطعام، في هذا المجتمع الذكوري من الدرجة الأولى تكون المكانة والتبجيل والأمر والنهي للرجل، والمرأة تأتي في المرتبة الدنيا، حتى إنهم يجمعون البنات عند البلوغ في كوخ حتى تنتهي الدورة الشهرية فلا يختلطون بأفراد القبيلة ولا يتكلمون معهم أو يلمسون طعامهم، بل لا يستطيعون لمس الرجال حتى يبرأن مما أصابهن، وكأن ما يحدث لهن كل شهر إنما هو شيء غير مقبول أو نجس، ولا يدرك هؤلاء البدائيون كيف أن ما يرفضونه إنما هو شيء رائع وبديع من صنع الخالق عز وجل والذي يؤهل ويرتب رحم المرأة لاستقبال الأطفال فترعاهم تسعة أشهر، فيخرجون إلى الدنيا من بيت خلقه الله فأحسن خلقه إلى بيت أوسع من صنيعة الرب الرحيم.

ولدت «ترينو» في هذا المجتمع الرافض لأي مظاهر للتقدم، مجتمع مرتحل دائمًا خلف الماء وحشائش السافانا والنباتات التي تشكل مرعى لماشيتهم، ولدت هي و«برهانش» في يوم واحد يفصل بينهما دقائق، ولادة متعسرة في كوخٍ قذر من الطين والروث أودت بحياة الأم بعد ولادتهما بسبعة أيام، تسنى لها أن تحمل بناتها التوأم بين ذراعيها للمرة الأخيرة، مسحت على وجه الأولى وسمتها «ترينو» النقية نقاء الرياح، وسمت الثانية «برهانش» التي تنشر السلام أينما حلت، سعدت بهما وأرضعتهما قبل أن تسلم روحها لبارئها وتتولى واحدة من الزوجات العديدات رعاية الطفلتين، فالرجل في القبيلة كان من حقه أن يتزوج عددًا من النساء، ورغم ذلك تنتشر حوادث التحرش والاغتصاب في القبيلة بدون رادع أو عقاب.

عاشت الطفلتان، أو الوصف الأدق، نجحت الطفلتان في العيش في ظل هذه الظروف، إلى أن اشتد عودهما وأتمتا السنة الثامنة وهما تتشاركان في الأعمال، من زرع وحصاد وسقيا وتنظيف وإعداد الطعام، ورغم بساطة العيش إلا أنهما كانتا سعداء لا تحملان همًا ولا تعلمان ما تخبئ لهما الأيام.

«برهانش» الرقيقة، يا ترى ماذا حل بها، أين ذهبت؟ يوم باعها أبوها كان أسوأ يوم في حياة «ترينو»، باعها لتاجر من قبيلة أخذوها وارتحلوا شمالًا، تمزق الرابط بينها وبين توأمها في قوة، وأحسست أن نصف قلبها انتزع في قسوة وروحها انقسمت وتمزقت، فقدت الرغبة في الحياة وشعرت بحزن عصف بدواخلها واستقر في خلاياها، يثور في غضب ظل ساكنًا حتى انفجر، وبيعت هي نفسها لهذا «الهوجن»، وهو اسم ساحر القبيلة المقيم في الكوخ القذر على قمة التل الملعون، وكلمة بيعت هنا توحي بمكسب مادي ما، ولكن مقابلها كان مالًا قليلًا وقطعة من لحم الماشية أو الغنم، هذا سعرها إذن، قطعة من اللحم!

تذكرت «ترينو» كل ذلك وهي تركض، تحمل بين ضلوعها خوفًا مريعًا يمزق قلبها الصغير وهلعًا من مصيرٍ ينتظرها أسفل هذا التل، ورعب يترصدها من فوقه، ركضت كما لم تركض من قبل، لملمة شتات نفسها وقررت الهرب أخيرًا من أسر هذا العجوز حافي القدمين الذي يرتدي قناعًا من الخيش يغطي وجهه الدميم ويزين القناع قطعًا بيضاء متراصة ظنتها في الوهلة الأولى صخورًا، ولم تكن تعلم أنها عظام تم اختيارها بعناية من جسد ضحاياه وقام بكسرها وطحنها وصقلها لتزين قناع الموت القبيح الذي يضعه عندما يأتي أهل القبيلة لزيارته، عظام أطفال ورجال ونساء من ضحاياه الكثر.

كفر الحمام1999

غرفة جدتي في الطابق الأول من البيت، الحقيقة لا يمكن وصفه أنه الطابق الأول فالبيت في الحقيقة من طابقٍ واحد، ولكن هذا الطابق يرتفع عن الطابق الأرضي الذي يضم في جنباته مكانًا تعيش فيه بقرة وحيدة وحمار و«عشة» بها خليط من الطيور، وفرن بدائي حيث تخبز أمي الخبز وتطبخ الطعام مستخدمة نوعًا من أنواع الطاقة المستدامة، وهي أقراص روث الحيوانات التي تضمن احتراقًا سريعًا، هذا بالإضافة لمجلسٍ صغيرٍ نستقبل فيه الزوار، له باب منفصل يفتح نحو الطريق.

في الطابق الأعلى، غرفة جدتي كما ذكرت سابقًا، وتقع بين غرفة أبي وأمي وغرفة أخرى مغلقة بداخلها أغراض قديمة، وطبعًا مكتبه أبي الصغيرة، وأمام الغرف مساحة فارغة إلا من «أريكة» عريضة نجلس عليها لنتسامر في المساء عند عودة أبي.

لماذا غرفة جدتي «تغاني» هامة أن أتكلم عنها؟ حسنًا، هي غامضة جدًا، جدتي وليس الغرفة، ورغم كبر سنها إلا أنها لا تسمح لأحد بدخول غرفتها بغير إذن، وتنظفها بنفسها، ومنذ صغري تأسرني رائحة البخور الزكية التي تخرج من غرفتها والصوت الرتيب الذي يبدو مخيفًا لبعض الناس، ولكني تعودت على هذا الصوت، صوت غناء أو إنشاد رتيب مصحوب بدق خفيف على الدف، ذكرني بحلقات الإنشاد التي رأيتها مرات عديدة في موالد أولياء الله الصالحين في مختلف أماكن مصر.

يتوقف الصوت مع خروج جدتي من غرفتها، ويرتفع عندما تجلس بداخلها لفترة طويلة، أسأل أبي في حيرة:

- ماذا تفعل جدتي في الغرفة وحدها؟ وما هذه الرائحة يا أبي؟

- هذا سر من أسرار جدتكِ لا تفصح عنه لأحد، ولكنه حكر على نساء العائلة. أنا

لا أدري ما تفعله أمي في الغرفة، فهذا شيء خاص بها وسألتها مرة وقالت لي لا تسأل، واحترمت رغبتها، أما الرائحة فهي رائحة بخور يحملها عم «سلامة» معه عندما يأتي لزيارتها من النوبة كل عام، تعرفين عم «سلامة»؟

- نعم، أحبه جدًا فهو يحمل لي السوداني و«سكر النبات» في جيبه ولا ينسى أبدًا، وهو الوحيد الذي يدخل الغرفة معها ويمضي معظم الوقت هناك، ولكن لا أظن أنه من أقرباء جدتي!

طأطأت رأسي في حرج فابتسم أبي في هدوء وقال:

- هوني عليكِ يا صغيرتي، أتعنين لأنه أسود اللون وجدتكِ بيضاء؟

- نعم يا أبي ولكن خشيت أن أقول ذلك.

- لون البشر ليس عيبًا إذا وصفناهم أو سألنا عنهم، فسيدنا «آدم» أبو البشر كان أسود اللون، ألم يخلقه الله من صلصال من حمأ مسنون؟ يعني أسود اللون، وسيدنا «موسى» كان آدم كما وصفه النبي، و«آدم» في اللغة العربية تعني أسود، وسيدنا عيسى أيضًا، ولا تنسي مؤذن الرسول «بلال» رضي الله عنه كان أسود، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يسمع صوت قدمه في الجنة وأخبره بذلك.

- كيف يسمع خطواته في الجنة يا أبي وهو ما زال على قيد الحياة؟

- مجازًا يا ابنتي، فالرسول لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يُوحى، وبهذا يبشره بالجنة بعد موته، «بلال» رضي الله عنه كان من المبشرين بالجنة.

- كيف إذن يدخل رجل لا تربطه بجدتي صلة قرابة غرفتها ويقضيا معًا وقتًا هناك وقد أغلق عليهما الباب؟

- عم «سلامة» هو أخو جدتكِ في الرضاعة، عندما ولدت جدتكِ كان هو في السنة الأولى، وأمه كانت غزيرة اللبن، وأرضعت أمي مع ابنها فأصبح أخاها في الرضاع.

- وهل الناس كلهم في جنوب مصر يحملون بشرة سوداء؟

- معظم القادمين من النوبة أصلهم من أفريقيا، قبائل تتبع النهر وتسعى للاستقرار حول ضفافه بحثًا عن المرعى، وفي أفريقيا الغالبية العظمى من سكانها بشرتهم سوداء، ولكن موقع مصر الجغرافي ووقوعها في براثن الاحتلال من أمم أخرى غيرت طبيعة الشعب المصري. أنا أتصور لو كانت مصر لم تُحتل من أمم أخرى لكان سكانها أغلبهم ذوي بشرة سوداء، يقول بعض باحثي الآثار أن ملوك مصر القدماء كانوا من ذوي البشرة السوداء.

- إذن عم «سلامة» من النوبة؟

- لا أظن، ما أعرفه أنه من وسط أفريقيا، عندما فتح العرب أفريقيا ونشروا الإسلام هناك قامت عداوات مع القبائل الرافضة للإسلام والمسيحية وفضلوا الاحتفاظ بعاداتهم وتقاليدهم القديمة، فاضطهدوا المسلمين والمسيحيين الأوائل ودفعوهم إلى الارتحال إلى بلاد مثل مصر وعمان والجزيرة العربية عامة، وعائلة عمك «سلامة» من هؤلاء.

- ولماذا مصر وعمان تحديدًا؟

- لأن للأسف معظم تجار الرقيق كانوا من مصر وعمان التي احتلت بعض بلاد أفريقيا لبعض الوقت، وازدهرت تجارة العبيد حتى تم تجريمها مؤخرًا.

- وماذا عن الأصوات التي نسمعها من غرفة جدتي والتي تعلو عندما يأتي لزيارتها؟

- أي أصوات؟ أنا لا أسمع أي أصوات!

سكت قليلًا في تعجب، وسرحت قليلًا، فأنا أسمع الأصوات دائمًا وحتى الآن أسمع الأصوات تأتي خافتة من الغرفة المغلقة تحملها أجنحة من رائحة البخور القوية. فكرت قليلًا ثم قررت أن أتكلم في شيء آخر وأسأل جدتي عن هذا

لاحقًا، فربما كان له مغزى وحكمة في أني الوحيدة التي تسمع هذه الأصوات.

أفريقيا الوسطى 2023

(بشرى)

مع امتلاء معدتي من الفاكهة والماء، اندفع الدم في عروقي يروي خلاياها ويعيد الحياة إلى أعضائي المختلفة، أحسست بالانتعاش وبدأت الشمس تتسلل من بين أوراق الأشجار، تحمل الدفء وتتحسس بأشعتها الوجوه والأرواح المتعبة، خفتت الأصوات حولي إلا من صوت الطيور والقرود في الأشجار المجاورة، فقد أطعمت النساء صغارها فتوقفوا عن البكاء وبدأت ضحكات متعبة تتصاعد هنا وهناك. كم هو غريب هذا الشعور! رغم المصاعب كلها التي مروا بها إلا أن قليل من الماء والطعام حوّل البؤس إلى لحظات من السعادة!

نظرت إلى السماء وتعجبت كم هي زرقاء وصافية، تختلف عن السماء التي أراها دوما في القاهرة، تذكرني بسماء الريف الذي جئت منه وعشت طفولتي بين جنباته. صفاء عجيب لم أرَ مثله من قبل، خالٍ من التلوث وعوائق التقنية التي تحجب كل هذا الجمال، تعجبت من إهمال البشر لهذا الجمال وتدميره بالتلوث من المصانع وقطع الأشجار والكيماويات، بالإضافة للحروب والصراعات التي تهدد جيران هذا المخلوق الضعيف من الشجر والحيوانات، يدمر بصنيعته الحياة نفسها ويهدد معها وجوده.

أغلقت عيني عندما مسها ضوء الشمس وسكنت أجفانها في تراخٍ واستسلمت لغفوة صغيرة، وعندما انتظمت أنفاسي وأنا بين الكرى والإغفاء سمعت صوتًا يقول:

- استيقظي الآن!

صوت جدتي «تغاني» يرن في أذني، ما زال عقلي مستسلما للنوم.

- يجب أن تتحركي الآن، استيقظي!

أفتح عيني في فزعٍ وأنتفض، أبحث في سرعة عن « فوستين».. أين هو؟

أقف في سرعة وأبدأ في البحث عنه، تتلاقى نظراتي بنظرات من حولي فيبادلونني النظرات في دهشة، أتجه حيث تقف السيارة فأجده واقفًا يتحدث مع السائق وقد أمسك بكتفه المجروحة، فأهتف به قائلة:

- «فوستين» يجب أن نرحل فورًا..

- ماذا حدث؟

- لا وقت للشرح، يجب أن يتحرك الجميع، وجودنا هنا خطر.

- ولكن التحرك الآن فيه خطورة أكبر، يجب أن نتخفى في الظلام!

- أرجوك، لا وقت للشرح..

يلتفت للسائق ويقول:

- تقول يجب أن نرحل فورًا.

ينظر إليّ السائق وكأني من كوكب آخر ويقول شيئًا، فيرد عليه «فوستين» ويشير إليّ، ينظر إليّ السائق ويحرك يده حركة دائرية بجوار رأسه، ينظر إليّ فوستين في حرج فأقول:

- يقول عني أني مجنونة أو مخرفة، لا عليك ولكن يجب أن نتحرك على الأقل أنا وأنت، أخبره أنه يجب أن يتحرك أيضًا، فهؤلاء الناس مسؤولية كبيرة في رقبته.

- في أي اتجاه سنتحرك؟

- لا أدري حتى الآن، ربما في اتجاه السنغال، فهي أقرب حدود، أليس كذلك؟

- يجب أن أسأله عن الاتجاه، فمن وقت خروجنا من القرية ونحن نتجه جنوبًا أو جنوب شرق أظن.

- أحضر خريطة لو أمكن وأحضر أيضًا شيئًا نحمل فيه بعض الماء والطعام، وتأكد أن تملأ الماء من منطقة هبوطه من الشلال حتى تعمل الصخور على تنقية الماء من الشوائب، لا نريد أن نمرض في نصف الطريق.

- هل أنتِ متأكدة؟

- لا يوجد وقت لنضيعه، صدقني لم يخطئ حدسي من قبل.

ذهب «فوستين» للسيارة فأحضر وعاءً له غطاء لحمل الماء، وحقيبة كبيرة من التي تحمل على الظهر، واتجه إلى بركة الماء فملأ الوعاء وملأ الحقيبة ببعض الفاكهة، واستأذن بعض السيدات في أخذ بعض خبز الكاسافا، وحملت أنا حقيبتي الصفراء وبها بعض الإسعافات الأولية التي جمعتها على عجل وحملتها معي من «باماكو»، وحاولت قدر المستطاع أن أحافظ عليها طوال الرحلة.

فوجئت بمن ينقر على كتفي، التفت فوجدت رجلًا في العقد الرابع من العمر يبتسم ويتكلم بسرعة ويشير إلى طفل في العاشرة يقف بجواره يمسك بيده، حاولت أن أفهم ما يقول ولو حتى بلغة الإيماءات والإشارات فلم أستطع، سألته:

- هل تتحدث الإنجليزية؟ أنا لا أفهم..

أكمل الرجل كلامه وكأنه لم يسمعني وارتفع صوته وظهرت على وجهه علامات الرجاء، وأخذ يحرك يده أمام وجهه في وضع الدعاء.

- لا أفهمك حقيقةً، ماذا تريد؟

بدأ الطفل يتحدث بصوت رقيق إنجليزية ثقيلة:

- معكم نذهب نحن؟

رددت بسرعة:

- تريدون أن تأتوا معنا؟

هز الطفل رأسه وأضاءت ابتسامة في وجه أبيه فقلت في تعجب:

- لماذا تريدون الذهاب معنا؟ نحن أنفسنا لا ندري أين نذهب وهل الموضوع أمان لكما أم لا..

رد الولد:

- علاج أنتِ أختي، أنتِ جيد، معكم نذهب..

جاء «فوستين» بعد أن أحضر الماء والطعام وبدأ يتكلم مع الرجل ثم التفت إليّ قائلًا:

- لقد عالجتِ أخته من الحمى عندما جئتِ إلى القرية، ولأنهم يثقون بكِ فيريدون الذهاب معنا.

- أخته! لا أتذكر فقد عالجت الكثيرين منذ وصولي.

- تتذكرين التي كان يعالجها ساحر القرية ويقول أنها مصابة بالمس ويجب طرد الأرواح منها وتصديتِ أنتِ له واتهمتِه بالجهل وبقيتِ بجوارها تضعين لها الكمادات والدواء حتى طابت؟

- آه تذكرت، أين هي البنت؟

نظر «فوستين» إلى الرجل وسأله، فأجاب بكلمات سريعة فهز فوستين رأسه والتفت إليّ قائلًا:

- لقد هربت مع أول من غادروا القرية واتفقوا على اللقاء في «مادين».

- «مادين»؟

- نعم، هي مدينة صغيرة على الحدود مع السنغال وقريب منها القرية التي تقيم فيها عائلة زوجته.

- وهل هذه المدينة آمنة؟

- لا نعرف حقيقةً إذا كانت آمنة أم لا، نفوذ المليشيات قد يصل إلى هذه المدن أو القرى الصغيرة.

- إذن لنتحرك ونأمل ألا نقابل عراقيل في طريقنا أو صعوبات.

حملت حقيبتي وتحركت القافلة الصغيرة المكونة مني و«فوستين» والرجل وابنه، وما إن بدأنا التحرك التفت الطفل إليّ وقال:

- ممكن أن أحمل حقيبتكِ؟ فهي تبدو ثقيلة، أنا «مالك».

نطقها بعربية فصحى أوحشتني عذوبتها، منذ زمن طويل لم أسمع أحدًا يتحدث بالعربية، وقد أثقلت أذني اللغات المحلية وبعضها يحتوي على أصوات طقطقة وصفير. ابتسمت وقلت:

- أهلًا «مالك».. أنا «بشرى»، أنتم مسلمون إذن؟

- نعم مسلمون.. وأنتِ؟

- نعم، هل يتحدث أبوك العربية أيضًا؟

- لا، لقد تعلمت العربية في مسجد القرية الصغير عندما كنت أحفظ القرآن هناك.

- أنت حافظ للقرآن؟

- نعم، أحفظ سورًا صغيرة، كان هناك شيخًا يأتي مرتين في الأسبوع من المدينة المجاورة فيعلم الأطفال وبعض النساء القرآن وكيفية الصلاة، أمي أيضًا تتحدث العربية، ولكن أبي مسيحيّ من قبيلة «الفولاني» ويعرف القليل فقط من العربية.

التفت إلى «فوستين» الذي كان مشغولًا خلفنا في حديثٍ مطولٍ مع الرجل وسألته:

- هل كنت تعرف أن الولد مسلم ويتحدث العربية بطلاقة؟

- لقد كنت أتحدث مع الرجل في هذا الآن، وتعجبت أن ابنه يتحدث معكِ بالعربية.

- كيف عرفت أنها العربية إذن؟

ابتسم قائلًا:

- رأيتكِ تردين عليه وتتحدثان، فتصورت أنها العربية. ولا تنسي أن الديانات السائدة في «مالي» هي المسيحية والإسلام وقليل من القبائل لا يزالون يدينون بديانات إفريقية قديمة، ويوجد عادة في كل مدينة كبيرة في مالي مسجد وكنيسة جنبًا إلى جنب، وقد سمعت اللغة كثيرًا من أصدقائي، وعندما ينادي المنادي للصلاة، ولا يوجد عادة عداء بين أصحاب الديانات المختلفة في المجتمع إنما الخلافات سياسية أو قبلية.

- لماذا إذن هربوا من القرية معنا؟

- الهجوم الذي تم على القرية لم يكن عقائدي كما أخبرتكِ، بل أن المليشيات المسلمة أو المسيحية أو التي تدين بديانة قديمة تهاجم القرى لعداوات قديمة أو بغرض النهب والسرقة، أو في هذه الحال للبحث عن «ترينو» وعنكِ، ولا يفرقون بين مسلم ومسيحي وأنيمست.

نظرت نحوه بدهشة وقلت:

- أنيمست؟

رد قائلًا في رصانة:

- نعم، هي ديانة قديمة يؤمن بها شعب «الدوجون»، ديانة لها أسرارها وأتباعها ومنها «هوجن»، «هوجن» معناها ساحر أو قائد روحي وليس اسمه الفعلي، لا أحد يعرف اسمه، يدين له زعيم المليشيا التي تطاردنا بالولاء والطاعة، وعادةً

ثعبد آلهة مرتبطة بالجدود والقدماء ممن عاشوا في البلاد الأولى أو ارتحلوا إليها خلف المراعي الخصبة من البلاد المحيطة، ولكن هذه الديانة أيضًا مسالمة جدًا فلا أدري من أين جاء هذا الساحر وأتباعه بكل هذا العنف!

سألت باهتمام:

- ماذا عن «الفولاني»؟

- «الفولاني» وجدوا تشابهًا كبيرًا بين الإسلام ودينهم القديم الذي يدعو لعبادة إله واحد، فاتبعوا الإسلام بسهولة ليميزهم عن غيرهم من القبائل، ولكن أظن معظمهم لا يمارسون العادات الدينية اليومية كالصلاة والصوم، ولكن يحتفلون بالمناسبات في قراهم، وعادةً يوجد مسجد كبير يقيمون فيه هذه الشعائر.

نظرت إليه بإعجاب لغزارة معلوماته وقلت:

- تبهرني دائمًا يا «فوستين» بهذه المعلومات الغزيرة، كيف؟ كيف مع صغر سنك أعطيتني الإيحاء أنك موسوعة تتنقل على قدمين!

ابتسم في هدوء وقال:

- حياتي مع «مارجريت» علمتني الكثير، فقد دخلت الدار وأنا لا زلت في الرابعة عشرة، وترعرعت هناك كما تعلمين، كانت تقرأ لي دومًا، وعندما أظهرت حبًا للقراءة أصبحت تمنحني كتبًا أقرأها وأناقشها معها، وتطلب مني أن أكتب ملخصات أو أفكار حول الكتاب وتناقشه معي، خاصةً كتب التاريخ، وهي التي عرفت منها هذه المعلومات.

ترقرقت عيناه بالدموع وأكمل:

- تكلمنا في السياسة والاقتصاد والدين، وكانت قد وعدتني أن أذهب معها إلى لندن عندما أكمل عامي الثامن عشر، كنت أحلم بهذه الرحلة، قصر باكنجهام وبرج الساعة وجسر المليونية، وغيرها من الأشياء التي طالما تحدثنا عنها، يا

ترى أين هي الآن؟ ماذا تفعل؟ هل أمسكوا بها؟ هل آذوها؟ والمسيح سوف أنتقم لها ولكني عاجز لا أستطيع حتى حمل سلاح، لماذا توقفت عن حمل السلاح واستبداله بالكتاب، ماذا فعل الكتاب الآن!

رددت عليه مشفقة:

- هون عليك يا أخي، فالمعلومات الغزيرة التي تملكها أوصلتنا إلى هنا، بدون معرفتك بالطرق الخلفية وكيفية الوصول من مكانٍ لمكان في الخفاء لما استطعنا النجاة كل هذه المدة، بالإضافة نحن لا نعرف ما حدث حقيقةً، ربما يكونون بخير ونجتمع بهم قريبًا!

ربتُّ على ظهره وقلت:

- تجلّد يا صديقي الصغير.. فما هو آتٍ صعب، وأحتاجك أن تحمينا وتنقلنا إلى بر الأمان.

صرخ «مالك»:

- أنصتوا.. ما هذا الصوت؟

من بعيد حيث تركنا القافلة، سمعنا طلقات رصاص وأصوات انفجارات وصراخ يأتي من بعيد، والطيور تهجر فروع الشجر مفزوعة، والقردة تصيح مستنكرة، ودخانٌ أسود يتصاعد من بعيد، ثم صمت تام...

إنجلترا 2009

ترجلت من الحافلة أحمل معي حقيبة جلدية ليست قديمة أو جديدة ولكني أحبها، كانت ملك أبي الحبيب وورثتها منه بعد وفاته منذ بضع سنوات، ترك لي بعض الأملاك التي تكفل لي حياة كريمة بعد مماته، كأنه يعلم أني لن أقوى على العمل مرة ثانية، مشيت ببطء في اتجاه منزلي الخالي على طريق من الحصى الأبيض، على جانبي الطريق نباتات خضراء وورود ذات رائحة جميلة، وتحف الطريق أشجار مورقة خضراء بها أزهار بيضاء ووردية، لوحة جميلة تجعل المشي في هذا الطريق ممتعًا، ولكني لم أنتبه لكل ذلك، فمنزلي في آخر الطريق خاوٍ على عروشه، المنزل الذي كان في الوقت نفسه من ثمان سنوات مليء بالضحكات والآمال.

في هذا الوقت من كل يوم، أعود من مركز الشرطة بعد أن أسألهم السؤال الذي لم أمل من سؤاله دائمًا وأحاول أن أتغلب على نظرات الشفقة والحزن التي أراها في عيونهم، ثمان سنوات ولا زلت أسأل نفس السؤال وأحصل في المقابل على جوابٍ لا يشفي عِلة قلبي ولا يريح نفسي المكلومة.

- عذرًا سيدتي، لا توجد أخبار.

- لماذا لا ترتاحين من عناء هذه الرحلة وسوف نخبركِ إذا جد جديد؟

- يبدو أن الوضع لم يتغير من آخر مرة.

- هل أنتِ بخير؟ أتريدين بعض الشاي؟

لا أرغب في شاي أو شفقة، لا أريد أن تغمرني نظراتكم ولا تحتضنني ابتسامات المجاملة على وجوهكم، ولن أفقد الأمل وسأظل أقطع الرحلة يوميًا، فلم يعد لدي ما أخسره.

ولن أيأس أبدًا.. حتى عندما يئس زوجي وتركني في قهري ورحل، هكذا يوم

حمل حقيبته ونظر لي نظرةً تحمل ألف معنى، نظرة الفاقد للأمل، رحل بعيدًا وبدأ حياته مرة ثانية مع امرأة جديدة وليست بقايا أنثى مثلي، وبقيت أنا، بقيت بجوار ابنتي، بقيت بجوار عينيها الخضراوين وشعرها الأحمر القصير ووجهها الحبيب وأنفها الصغير وضحكتها المنعشة التي تفيض سعادة وترن في البيت فتزينه، لم أترك غرفتها وسريرها الذي أنام فيه يوميًا لأشم رائحتها التي ضاعت أو كادت تضيع، لكن بقايا رائحتها تكفيني، رحيق جسدها الجميل الذي تركته على ملابسها وعلى وسادتها وبين ذرات غطائها، بصمات يدها على كل شيء في غرفتها الصغيرة، عندما ألمس أغراضها أحس بها وألتمس أناملها، أريد أن احتضنها وأقبلها وأغلق عليها ضلوعي فلا ترحل أبدًا، عندما بدأ جسدها يتشكل ويرتدي رداء المراهقة ويخطو أولى خطواتها نحو النضوج، ظل قلبها قلب طفلة صغيرة تحبو نحوي وتنام على ذراعي فأنسى الدنيا وما فيها.

غرفتها المطلية باللون الوردي الذي طالما اعترضت عليه وأبدًا لم تغيره، على جدران غرفتها رسومات صغيرة لطيور وزهور رسمتها بيدها الصغيرة، فنانتي المتألقة، هكذا كنت أناديها، سريرها الصغير بجواره مصباح للقراءة وعلى الحائط بجوارها صورة كبيرة لفريق غنائي كان مشهورًا يومًا يغنون نوعًا من الموسيقى يطلق عليه الموسيقى الرائجة أو البوب، حقيبة ظهرها تحمل صورة للفريق نفسه ما زالت في دولابها تحمل بداخلها دفترًا مزينًا بقلوب ونجوم لامعة ووجوه ضاحكة ومضحكة، لا أدري ماذا في أوراقه من كلمات، فلم أجرؤ يومًا على فتحه وقراءة ما فيه، لا أستطيع أن أفعل ذلك دون إذنها، ربما تخاصمني وأنا لا أتحمل لحظة خصام معها، ظل الدفتر مستقرًا داخل الحقيبة ومثقلًا على صدري، فأنا أعلم أن الشرطة فتحته وقرأت ما فيه أملًا في أي معلومة تقودهم إلى «ماري»، حتى حذائها الوردي الذي يحمل نجمة زرقاء على جانبيه لم يسلم منهم، حملوه وقلبوا فيه وشمته أنوفهم هباءً.

فرشاة شعرها التي تحمل بقايا شعيرات حمراء تناثرت على أسنان الفرشاة كما

تتناثر أشعة الشمس على ستائر غرفتها البيضاء المزينة بفراشة متعددة الألوان في وسطها وفراشات صغيرة على أطرافها.

كل ذلك يذكرني بطفلتي الصغيرة ويعتصر قلبي ألمًا، ذكرى هذا اليوم الذي خرجت فيه من مدرستها يوم الحفل الراقص واختفت بين الأشجار وتاهت في الطرقات، وتركت في قلبي فجوة عميقة لا تُملأ أبدًا، يومها أعددت لها طعام الغداء، تفاحة وشطيرة زبدة الفول السوداني والمربى، وضعته في كيس ورقي بني اللون ووضعت لها رسالة على ورقة لاصقة: أحبكِ يا صغيرتي.

كانت آخر كلمة قلتها لها قبل أن تذهب بلا رجعة، عندما خرجت «ماري» من الباب ركضت خلفها حاملة الفستان الجديد الذي اشتريته لها أمس لترتديه في الحفل الراقص، فستان أبيض بأطراف مزركشة لامعة وحزام من الستان الأزرق في وسطه، مربوط من الخلف «بفيونكة»، أرادت أن تشتري تاجًا ماسيًا تلبسه علي شعرها ولكني رفضت، ليتني لم أرفض وسمحت لها أن تكون أميرة لليلة واحدة، فقد كانت أميرة بيتي وملكة على عرش قلبي لثلاثة عشر عامًا.

- مساء الخير سيدة «مارجريت»..

التفتُّ أبحث بعيني الثكلى عن مصدر الصوت، إنه الأب «مايكل» راعي الكنيسة التي أتطوع بها أحيانًا كيفما تقتضي الظروف.

- أهلًا أب «مايكل».

- كيف حالكِ يا ابنتي؟

- أشكر الرب.

- هل هناك جديد؟ أعلم أن هذا موعد عودتكِ من قسم الشرطة..

- لا جديد، رحلة أقطعها يوميًا دون جدوى، أشعر أن «ماري» لا زالت حية ترزق، لا أستطيع أن أتخيل أنها وحيدة ملقاة في مكانٍ بارد بدون من يحتضنها

ويحنو عليها.

انهالت دموعي واندفعت تخرج من مقلتيها التي لم أتخيل أنها ما زالت تحمل بقايا دموع، تصورت أنها ذرفت كل ما في جسدي الضامر، ولكن يبدو أن الدمع لن يجف أبدًا. اقترب مني الأب «مايكل» وربت على كتفي قائلًا:

- لا تفكري هكذا يا «مارجريت»، الرب رحيم وسيُظهر الحق عندما يريد في الوقت الذي يريد، تعرفين كلام المسيح «فرحين في الرجاء، صابرين في الضيق، مواظبين على الصلاة»، انتظري الرب ليشتد ويتشجع قلبك.

- إلى متى سوف أنتظر، لقد كنت دائمًا مسيحية مخلصة ومؤمنة، واظبت على الذهاب للكنيسة وصليت للرب ودعوته، صلاة الآحاد والجمعة، تبرعت وشجعت الناس على التبرع للفقراء، وبيتي مفتوح لدراسات الكتاب المقدس أسبوعيًا، ورغم ذلك أخذ مني أغلى ما عندي، فرحة قلبي، لماذا أعطاني إياها ليأخذها مرة ثانية بهذه القسوة؟

- لا تقولي هذا يا «مارجريت»، فأنتِ مسيحية مؤمنة وتعرفين أن الرب قد ضحى بابنه من أجل خلاص البشرية جمعاء، فمن المؤكد أن كل هذا له حكمة لا يعلمها إلا هو، اصبري على الاختبار يا ابنتي.

- لا أريد هذا الاختبار، ولا أقوى عليه، لقد استنفد كل ما بداخلي من قدرة على المقاومة، حتى الصلاة أصبحت ثقيلة على قلبي، صلِّ من أجلي أيها الأب الطيب!

- سأصلي من أجلكِ يا ابنتي.

تركته وذهبت مرة ثانية تحملني قدمي المتعبة إلى بيتي الخاوي، كلمة البيت لا تصلح لوصفه، فالبيت يعني حياة، وهذا المكان تحول إلى مقبرة أقضي فيها آخر أيامي على أمل أن ألتقي فلذة كبدي يومًا ما، أصبح البيت أطلالًا، ظلامًا حالكًا.

أين أنتِ يا «ماري»؟ لا يمكن أن أتخيلك جثة باردة مدفونة تحت الأرض ويأكل الدود جسدكِ الصغير، كيف تجرؤ الأرض أن تبتلع البراءة والطهارة والنضارة دون أن تتشقق وتهتز وتعترض؟ لماذا لم تبتلعني أنا وتركت حبيبتي تعيش ما بقي لها من الحياة!

وصلت إلى باب المنزل ونظرت له طويلًا نظرة الإنسان إلى مستقبله المظلم، إلى ساعات وأيام أقضيها بين جدرانه الباردة. دسست المفتاح وأدرته ودفعت الباب فأصدر صوتًا يشبه العويل، وصرخت مفاصله القديمة البالية احتجاجًا على من أيقظها بعد سبات. قلت في نفسي: كف عن العويل أيها الباب، فألمك لا يضاهي ألمي، وجراحك لا تنزف مثل جراحي.

دخلت من بين أهداب الظلام ويدي تتحدث مع الجدار بحثًا عن زر الضوء، فأدرته وولد الضوء ضعيفًا، فأبى الظلام أن يفتح عينيه ويستجيب، انتشر الضوء على استحياء فوضعت حقيبتي أرضًا وحملت نفسي المتعبة وألقيتها على المقعد الجلدي المواجه لمدفأة انطفأت نارها ولم تعد تدفئ، وضعت يدي على جبهتي وتنهدت فخرج الهواء حارقًا زاد من جفاف حلقي، تكاسلت أن أقوم إلى المطبخ الصغير لأروي عطشي، نظرت نحو المائدة التي تتوسط المطبخ وعليها إبريق الماء وتمنيت أن أمتلك القدرة على تحريك الأشياء عن بعد فيأتي الإبريق لي قبل أن أذهب أنا إليه، تذكرت سؤال «ماري» يومًا على الإفطار:

- أمي، لو كنتِ تمتلكين قدرة خارقة ماذا تريدين أن تكون؟

- أكون سوبر أم حتى أعطيكِ أقوى قبلة وحضن.

- يا أمي لا تمزحي، أنا أسأل سؤالًا جديًا!

- أنتِ ما هي القدرة الخارقة التي تريدينها؟

- أريد أن أمتلك سوبر سعادة، لأقدر أن أسعد كل شعوب العالم فيتوقفوا عن القتال.

- هذه قدرة جميلة مثلكِ يا «ماري»، أتمنى أن أعيش لأراكِ تغيرين العالم يا حبيبتي.

لم أكن أعرف وقتها أنها ستسبقني إلى الفردوس مع المسيح والقديسين.

لاحظت الضوء الذي ينبض بإلحاح على جهاز تسجيل المكالمات، حاربت الصراع بداخلي أن أقوم فأرى من سجل لي هذه الرسالة، ربما هو شخص يبيع شيئًا أو أحد يدعوني لأستقبل المسيح في قلبي، قاومت لفترة وجيزة ولكن شعوري بالعطش انتصر في معركة قصيرة على تعبي الذي انزوى في ركنٍ واعدًا أن يرجع مرة ثانية، قمت ومشيت ببطء نحو المبرد، وقبل أن أفتحه نظرت إلى بابه المليء بالأشياء، عالم «ماري»، يدها الصغيرة مرسومة بالألوان وقصاصات من الأوراق تحمل رسوماتها الأولى وحروفها المتناثرة، لمست الأشياء بأطراف أناملي وفتحت المبرد والتقطت زجاجة من الماء البارد وضغطت الزر في طريقي لإحضار كوب.

الرسالة الأولى، صوت الجهاز المعدني البارد:

- مساء الخير يا سيدتي، هل ترغبين في شراء مدفأة جديدة، مع انخفاض درجات الحرارة هذا الشتاء شركة (...) تعرض...

- تم إلغاء الرسالة.

كما توقعت، رسالة من رسائل مندوبي المبيعات.

- الرسالة الثانية: سيدة «مارجريت أتوين» معكِ الشرطي «بول ماكنزي» من مركز شرطة «...» آسف للاتصال بكِ في هذا الوقت، ولكن توجد مستجدات في قضية اختفاء ابنتكِ «ماري»، رجاء الاتصال برقم «...» أو الحضور إلى مركز الشرطة للأهمية.

انتفض جسدي كأنه مر به آلاف من الفولتات الكهربية، سقطت الزجاجة أرضًا

محدثةً دوي تردد صداه في أنحاء البيت الخاوي وتناثر الماء وبقايا الزجاج المهشم في كل مكان، ووضعت يدي على فمي وشهقت في ذعر.

يا ترى ما حدث؟ وجدوا ابنتي؟ وجدوا روحي أم وجدوا جثمانها؟ إلهي ماذا أفعل؟ جريت نحو الباب ثم رجعت فحملت الحقيبة وصفقت الباب في قوة فتردد صدى الصوت في البيت الخاوي على عروشه.

وسط أفريقيا ـ الزمن غير محدد

(هوجن)

لا أذكر أين ومتى ولدت، كل ما أتذكره ما قالته لي أمي بعد ولادتي عندما بدأت أفهم ما حولي، عرفت كيف اغتصبها عدد من الرجال في قريتها بعد انتهاء الاحتفال السنوي، شربوا حتى الثمالة ثم قيدوها وتناوبوا عليها ينتهكونها، يفعلون فعلتهم الكريهة دون ندم، ثم حملت وظهر حملها، ورغم أن ما حدث لم يكن شيئًا طلبته أو سعت إليه، إلا أنهم نبذوها وطردوها من القرية في قسوة وكأنها نجس أو بهيمة لا تحس ولا تملك من أمرها شيئًا.

هامت على وجهها في الصحراء وبين الأحراش أيامًا طويلة تقاتل الجوع والعطش وتتصارع مع الضواري على الطعام، تحرقها الشمس نهارًا ويجلدها البرد ليلًا، حتى رأت هذا الكهف على قمة تل من التلال يرتفع عن الأرض حوالي ثلاثين أو أربعين مترًا عمودية، لكي تصل إلى مدخله الذي ظنت أنه سيحميها من البرد والحر، ولكن يجب أن تمشي مائة مترًا فوق الصخور الحادة قبل الوصول إليه.

ظلت تمشي في إصرار والصخر يدمي قدميها، ثم أخذت تصعد في بطء واستماتة، تحملني بداخلها، تسقط مرة ومرات فتعيد الكرة بلا كلل ولا ملل، تلهث من الجوع والعطش وتصرخ خلاياها من الألم حتى وصلت إلى مدخل الكهف.

ارتعشت في خوف، تدخل أو لا تدخل؟ ليس لديها ما تخسره، وربما تجد شيئًا تأكله أو حيوان تقتله وتقتات على لحمه، وربما تركت الوحوش قطعة من اللحم أو الدهن تتغذى عليها وتغذي الجنين الذي يكبر في بطنها. سمعت صوتًا عميقًا:

- ادخلي.. لا تخافي.

ترددت لحظة ثم دخلت تتلمس يدها جدار الكهف الرطبة، أول ما كان في

استقبالها هو الرائحة، رائحة الكبريت والعفن، رائحة جعلت معدتها تتقلص وتحاول أن تطرد ما بداخلها ولكنها لا تجد شيئًا تطرده، تقيأت بصوتٍ عالٍ، وفقط الصوت هو ما خرج منها:

- تعالي، اقتربي..

تردد الصوت مرة ثانية في جنبات الكهف الفارغ، تعودت على الرائحة وزادت كثافة الظلام حولها وهي تتقدم ببطء في الكهف الذي أصبح الطريق بداخله منحدرًا، لا تدري كم مشت ومتى سيتبدد هذا الظلام، عندها رأت شيئًا يلمع عن بعد، شيء ضعيف لم يبدد الظلام ولكنه زرع أملًا في صدرها أن هناك من يسكن هنا، وربما عنده بعضًا من الماء والطعام. ظلت تمشي باتجاه الضوء الذي بدأت ملامحه في الظهور بوضوح، وجدت نفسها فجأة في غرفة واسعة منحوتة في الصخر ويتربع في وسطها تمثال من النحاس لإنسان يجلس على عرش، رأسه رأس ثور بقرون طويلة، يداه مفرودتان ممدودتان للأمام، يخرج من ظهره جناحان ومكان عينيه ياقوتتان كبيرتان حمراوان بلون الدم وتلمعان في قوة وعلى صدره نقش لنار ملتهبة وسطها عين، وينتصب التمثال على قاعدة من الحجر مرتفعة عليها نقوش وكتابات وحروف بلغة لا تعرفها، وسمعت الصوت مجددًا:

- اسجدي لإلهك «مولوخ» حتى يهبكِ الحياة وما تحملينه في بطنكِ.

برقت عيناها في خوف وظنت أن التمثال يتكلم معها ولكن خرج من خلف التمثال عجوز تخطى السبعين يرتدي أسمالًا، وعينه الجاحظة تبرق في قوة رغم كبر سنه، ويحمل في يده عظمة بيضاء طويلة، وحول عنقه عقد من الأسنان مختلفة الأحجام، لا يرتدي شيئًا في قدمه، نظر إليها وافتر ثغره عن ابتسامة بلا أسنان وأشار لها قائلًا:

- اقتربي..

اقتربت في تردد وقلبها يدق في عنف، أمسك يدها بيده القذرة طويلة الأظافر وبيده الثانية ربت على بطنها وقال:

- تحملين في داخلكِ امتدادًا لي وخادمًا «لمولوخ» العظيم.

قالت في تردد:

- كيف تعرف أنه ولد؟

قال:

- هكذا قال «مولوخ»، اسجدي لإلهنا العظيم تحل عليكِ البركة.

تصاعد من خلف التمثال دخان أسود كثيف والتمعت عينا التمثال الحمراء وسجدت أمي من الخوف والجوع.

***

عاشت أمي في الكهف سنوات تأكل وتشرب ولا تدري من أين يأتي الطعام، فقط يخرج الرجل ليلًا ويغيب ويعود حاملًا فاكهة ولحمًا نيئًا لا تعلم نوعه، وجرة فيها ماء وفي بعض الأحيان لبن. فرش لها فروة شاه على الأرض خارج ما يسميه بالمعبد المقدس قائلًا:

- لا يجوز لامرأة أن تبيت في بيت الإله.

العجيب أن أمي قالت إن ولادتي لم تكن صعبة إطلاقًا بل على العكس، أعطاها العجوز أعشابًا مخلوطة سكنت ألمها وخرجت أنا إلى الدنيا ولم أملأ المكان صراخًا كعادة الأطفال، كنت قليل البكاء، وقد ولدت بفضول وشغف لأرى ما حولي واكتشف.

قال العجوز بصوت جهوري عند ولادتي:

- الآن ولد عبد جديد لإلهنا «مولوخ»، فلتبتسم شياطين الجحيم لقدومه

ولتخفق بأجنحتها حوله في فرح، وليوسم بوسم الملك «مولوخ» إلى الأبد وليعبر النار حاملًا عهدًا ليكون خادمًا مخلصًا.

حمل حطبًا وأشعله وأمر أمي أن تخلع ثيابها وتحملني وتعبر بي النار التي تصل إلى قاعدة التمثال، وفعلت، وتحملت الحروق لتحميني وتضعني عند قدمي «مولوخ».

***

عندما أصبحت في الرابعة عشر من عمري، مات العجوز، أشعلنا أنا وأمي نارًا عظيمة أكلت لحم جثته وأذابت ما تبقى من دهنه وبقيت عظامه فجمعتها أمي وحفرت خلف التمثال ودفنت ما تبقى من عظامه، ولكنها لم تدفن شروره، فقد علمني وعلم أمي كيف ننصب الفخاخ للحيوانات الصغيرة وكيف نهاجم القرية المجاورة فنسطو على مخزونهم من الماء والفواكه والطحين وهم نيام، تعلمنا أن نخطف الأطفال الصغار من أحضان أمهاتهم الغافلات، فنحملهم للعجوز الذي كان يقدمهم قرابين للإله «مولوخ».

قبل موته، اختلى العجوز بي في غرفته وعلمني كيفية الصلاة والتعبد وتجهيز القرابين وتقديمها، علمني كيف أفرغ شهوتي في الأطفال المخطوفين قبل أن أذبحهم، والأهم علمني كيف أسمع «مولوخ» وأفهم كلامه وتوجيهاته، وكيف أتقرب إليه وأكون من أعوانه، وقدمني لشخص يتشح بالسواد وأخبرني أنه الكاهن الأعظم والمسؤول الأول عن كل ما يتم في القارة كلها، ولكن طموحي كان أكبر من أن أكون خادمًا لإله في كهف أو رجل متشح بالسواد، بل أردت القوة، كل القوة، وكان لا بد أن أحصل عليها مهما كان الثمن.

وسط أفريقيا ـ مالي ـ 2019

(ترينو)

وقفت ألهث بعد أن وصلت إلى نهاية الطريق نزولًا من التل المرتفع حيث الكهف الذي قضيت فيه سنوات من عمري لا أدري عددها، فقط أتذكر كيف وصلت إليه في هذا اليوم الذي أظلمت فيه السماء، ربما كانت الشمس ساطعة ولكن إحساسي كان مظلمًا وكئيبًا، أخذ أبي يدي وقال لي أننا سنذهب في نزهة في مكان قريب، كان هذا بعد أسابيع من ذهاب «برهانش» بلا عودة، إحساسي بفقد توأمي أضاف إلى كآبة الطريق رغم فرحي بالنزهة مع أبي، هذه النزهة التي كانت أمنية قديمة عندي، أبي يمسك بيدي ونذهب سويًا إلى النهر القريب، نأكل الفواكه من الأشجار ونقطف الورود ونطارد الفراشات ونلتقف العنب البري حلو الطعم من الشجيرات، وأتكلم مع أبي في أي شيء، فعلاقتي بأبي لم تكن تتعدى رفع صوته أو يده عليّ بدون سبب، السباب والضرب والإهانة لي ولأختي طوال الوقت، والغريب أني كنت ألتمس له العذر، فالفقر الشديد كان يشعره دائمًا بالعجز، كنت أريد أن أعرف إحساسه بي، ماذا شعر عندما رآني أول مرة؟ هل فرح؟ هل ضمني بين ذراعيه وهدهدني وقبلني؟

الرحلة الحقيقية كانت مختلفة، كنت أُساق مثل العبيد، ولماذا مثل العبيد! أنا فعلًا من العبيد، ألم يبعني للساحر اللعين ويقبض الثمن! الساحر الذي يطلق عليه الأهالي «هوجن» ويخافونه بشدة ويرجون رضاه، سألت أبي ونحن نصعد:

- لماذا أنا؟

رد قائلًا دون أن ينظر إليّ:

- لا بد أن تخدمه بنت صغيرة عذراء.

- ما معنى عذراء؟

سألته ببراءة. نظر إليّ شزرًا وقال:

- لا تسألي، مهمتكِ أن تخدمي الرجل وتطيعينه، إنه الآن أبوكِ وسيدكِ، ويجب أن تكوني بنتًا مطيعة ومهذبة.

مهذبة؟ ما معنى هذه الكلمة فعلًا؟ ما حدث ويحدث في هذا الكهف كان بعيدًا كل البعد عن التهذيب، دخلت الكهف وأنا أرتعد من خوف شديد من المجهول وأنا عمري تسع سنوات، ردائي البني الذي خاطته لي «برهانش» قبل أن تتركني وترحل هي الأخرى، قدمي الناحلتين تتحسسان طريقهما على أحجار أرضية الكهف الحادة. قلبي يكاد يخرج من حلقي ودقاته صارت أعلى من كل صوت، دقاته تعصف بي وتدق في أذني وجوانب نفسي، يندفع الدم إلى رأسي وتبدأ الدموع في النزول من عيني والمخاط من أنفي، وأنا أنظر لأبي في ترجٍ ولا أراه من ظلمة المكان ولا أظنه يراني أو يشعر بي:

- أرجوك لا تتركني هنا، أتوسل إليك أن تأخذني معك، سوف أكون بنتًا طيبة، لن آكل كثيرًا وسأساعد في البيت، أرجوك يا أبي..

- اصمتي..

قالها أبي في قسوة وهو يهز يدي. صوت نحيبي يرتفع، أحاول أن أنتزع يدي الرقيقة من بين أصابعه الغليظة، ارتفعت يده الأخرى في سرعة فهوت على مؤخرة رأسي فأسكتتني إلا من النهنهة والنحيب.

توقفت عن البكاء فجأة عندما توقف الزمن، اتسعت عيني وسكبت ما تبقى من دموعي وجفت وكأنها لم تكن مغرورقة بالدموع وفغرت فاهي مرتعبة عندما رأيته، عملاق أسود، يرتدي أسمالًا، قدماه عاريتان مغطاة بالشعر، وعلى وجهه قناع من الخيش الثقيل المزين بحجارة بيضاء على شكل حيوان ما لا أذكره، وترتفع من منتصف رأسه قطعة خشبية على شكل حيوان آخر ربما يكون «عظاءة» أو «ضب»، والرائحة التي تنبعث منه، رائحة كريهة منفرة مثيرة

للاشمئزاز، رائحة جعلت عصارة المعدة تتسارع إلى فمي، شعور بالهلع ممتزج بإحساس القيء. أمسكت يد أبي بقوه وتعلقت بها تعلق الغريق بقشة، ولكنه ترك يدي وأخذ جرابًا من القماش وقطعة من فخذ الغنم، وقبّل يده وتركني واختفى.

أخذت أتراجع إلى الخلف وهو يقترب مني مادًا يده القذرة ذات الأظافر الطويلة حتى التصقت بالحائط، وضع يده على كتفي وبيده الأخرى خلع القناع الذي يلبسه، ويا ليته لم يفعل، ارتعشت في جزع وأحسست بسائل دافئ يسيل على قدمي لمرأى وجهه الدميم القبيح المليء بالبثور وقد تناثر الشعر في وجهه حول شفتين غليظتين وأسنان صفراء فاقع لونها، وعينين صغيرتين فيهما حول طفيف.. والرائحة! رائحة الكبريت والعطن والقيء والبراز مجتمعة. الرائحة كائن يعيش في هذا الكهف ويتربى بين أحضانه، كائن يتغلغل داخل ثنايا الرئة وأظن يميت ما بداخلها. أصبح أكلي وشربي ليس له طعم في السنوات التي مرت عليّ في هذا المكان سوى الرائحة الخبيثة.

رأيت في هذا الكهف ما لم أتصور يراه إنسان ويظل بكامل قواه العقلية، كانت طقوس الساحر أو «هوجن» كما تطلق عليه القبائل المحيطة تبدأ بعد منتصف الليل، يختلي بالتمثال الكبير ويظل يردد كلمات كثيرة حتى يتصاعد دخان كثيف داخل الكهف وترتفع درجة الحرارة إلى درجة لا تطاق، وكأن أبواب الجحيم فتحت على مصراعيها، وأكاد أقسم أني أسمع شخصًا آخر يتكلم معه بصوت عميق مخيف، لمحت الشخص عدة مرات، شخص طويل يلبس رداءً أسود يغطي كل جسمه، ويتكلم بصوت يأتي من أعماق الجحيم.

ثم يبدأ في الصراخ، نعم الصراخ بصوت عالٍ مثل البومة، يكون الطفل الذي خطفه الساحر أو أحضره أحد الأهالي أو أرسله زعيم المليشيات إليه، طفل أو طفلة في السادسة من العمر، يقيده الساحر عاريًا على منضدة حجرية أمام التمثال، ويدهن جسده العاري الصغير بمواد عديدة مختلفة ذات رائحة نفاذة، ثم يبدأ في إحداث شقوق في جسده الصغير الناحل بمخلب من المعدن فيسيل

الدم على المنضدة، ويتجمع في آنية من الزجاج على جانبيها، ثم يشعل النار في الضحية فتتصاعد الصرخات الشديدة ورائحة الشواء، وأنا لا أملك أن أفعل شيئًا، وعندما تخمد النار تكون قد أتت على كل اللحم والشحم ويبقى العظم، يفتته الساحر ويستخدمه في الزينة ويستخدم بعضه في الخلطات التي يعطيها للسكان المحليين واهمًا إياهم أن هذه الخلطات تشفي من الأمراض المختلفة، ثم يحمل الآنية المليئة بالدم فيخلط معها التوابل والأملاح ويشربها وينام.

بعد أن ينام، أدخل فأنظف الدم بدموعي، الدم المتجلط المحترق وبقايا الشعر والجلد، الرائحة لا تطاق، ولكني تعودت عليها وأصبحت جزءًا مني متعلقة بخياشيمي ومستقرة في نفسي الثكلى، ما لا أستطيع أن أتعايش معه هو الصراخ، الصوت الذي يخترق كل ذرة من ذرات جسدي، ظننت أن دموعي قد جفت ولكنها تنزل كل مرة بغزارة، طوفان تنجرف أمامه ما تبقى بداخلي من براءة الطفولة.

أنتهي من التنظيف وأحمل جسدي المتعب إلى جانب الكهف حيث أخفي أغراضي البسيطة التي تربطني بذكرياتي أسفل فراء الغنم الذي اتخذه فراشًا وغطاءً، فستاني القديم الذي تآكل وامتلأ بالثقوب ولكن لم أتخلص منه لأنه يذكرني بأختي، لعبه منحوتة من الخشب وجدتها على شاطئ النهر، وريشة طائر لا أدري لماذا أحتفظ بها، ربما على أمل أن يأتي الطائر ليبحث عن ريشته فيحملني لأعيش بين صغاره أو يلقي بي من علٍ فأموت وأتخلص من هذا الشقاء.

كفر الحمام 1997

أول يوم من أيام المدرسة، أسعد يوم في حياتي. في الليلة السابقة، جاء أبي يحمل معه حقيبة حمراء اللون عليها أزهار بيضاء داخلها مجموعة أقلام وممحاة وعلبة ألوان وكراس أبيض، لم أنم ليلتها، بل ظللت أحلم بالمدرسة، بغدٍ جديد، بعدد الأصدقاء الجدد، بالفرصة لأنطلق في عالم بلا حدود.

بين اليقظة والمنام، سمعت الدق الخفيف وصوت الإنشاد في غرفه جدتي

وبدأت رائحة البخور تغزو أنفي وصوت الإنشاء يأتي خافتًا ويتكرر في رتابة، كنت قد قررت أن أتسلل يومًا إلى حجرتها لأرى بنفسي ماذا يحدث، يقولون أن القط له فضول قد يقتله، ولكن فضولي وشغفي للمعرفة هو أكبر من ألف قط، كنت أريد أن أسألها عما يدور بخاطري، ولكني قررت أن أرجئ كل ذلك اليوم حتى أنام جيدًا وأستمتع بالغد كاملًا.

صوت حصى يُلقى على نافذتي ويتكرر، توجست خيفة وانتفضت، ولكني تذكرت جارتي وصديقتي «صفاء» فهي تسكن في البيت المقابل وعندما تريد أن تناديني تلقي بحصى صغير على نافذتي، فتحت النافذة، ها هي تقف بوجهها الأبيض الصبوح وقد احمرت وجنتاها من البرد، عيناها الزرقاوان تلمعان في جزل وشعرها الأصفر الناعم يلمع ويتلألأ مع ضوء القمر، وضعت يديها الصغيرتين حول فمها وقالت:

- «بشرى»، لا أستطيع النوم، هل تجهزتِ للمدرسة؟

- نعم، انظري الحقيبة التي أحضرها لي أبي، إنها حمراء وبزهور بيضاء.

حملت الحقيبة لكي تراها، ورفعت هي الأخرى حقيبة صفراء.

- حقيبتكِ جميلة. انظري إلى حقيبتي، عليها أميرة من أميرات ديزني.

- أي واحدة؟

- لا أعرف اسمها، هي ذات الشعر الأصفر الطويل الذهبي مثل شعري، وكان صديقها يصعد عليه عندما يريد أن يراها. تعلمين، عندما أكبر ويصبح شعري طويلًا يمكنكِ الصعود عليه إلى غرفتي بدلًا من استخدام الدرج.

ابتسمت في امتنان وقلت:

- شعركِ جميل، ولطالما تمنيت أن يكون شعري مثله، وأعرف القصة طبعًا فهي أميرتي المفضلة. كيف تتصورين أن يكون شكل المعلمة؟

- أتمنى أن تكون طيبه وتعطينا حلوى عندما نجتهد.

- أتمنى ذلك، وأن يكون لنا أصدقاء كثر بلا عدد.

- كيف بلا عدد؟ لن نستطيع أن نتذكر أسماءهم جميعًا!

ضحكت وقلت:

- سأكتفي بخمسة أصدقاء جدد كل أسبوع.

- وأنا أيضًا، تصبحين على خير.

- وأنتِ بخير.

***

في الصباح، حملت حقيبتي الصغيرة، وكان أبي قد أحضر عددًا من أرغفة الخبز الأفرنجي وفتح أحدهما فوضع داخله «مربى الفراولة»، وبالثاني بعض الجبن، وثمرة الخيار. وقال لي وهو يضعهم في حقيبتي.

- تأكلين «المربى» أولًا لتعطيكِ طاقة لإكمال اليوم، وإذا وجدتِ نفسكِ لا زلتِ جائعة تأكلين الجبن مع الخيار.

- حاضر يا أبي، هيا سنتأخر..

- اذهبي وألقِ السلام على جدتك أولًا، فهي تريد أن تراكِ.

جريت نحو غرفة جدتي وطرقت الباب وسمعت صوتها من الداخل يدعوني إلى الدخول، دفعت الباب ودخلت قائلة:

- صباح الخير يا جدتي.

- صباح الخير يا حبيبتي. الله! من هذه البنت الجميلة؟ ما شاء الله، ومن صفف لكِ شعركِ، أكيد والدكِ!

- نعم، أمي ليست بالبيت.

- ومتى هي في البيت؟ تعالي يا حبيبتي لأصففه لكِ كما ينبغي.

وقفت أمامها في استسلام وهي تصفف شعري بفرشاة من العاج وتتمتم بآيات من القرآن وكلمات أخرى وأرقام لا أدري ما معناها، فتصاعدت في أنفي رائحة البخور، ولا أدري من أين هذه الرائحة، فلا يوجد بخور مشتعل أو منقد فحم، قبلتني وضمتني إلى صدرها وقالت:

- الله الحافظ من كل شر، من كل عين ومن كل روحٍ آثمة تكره الحق وتبغض الخير، الله الحافظ من الشيطان ونسله وأعوانه من الإنس والجان، اذهبي يا حبيبتي في رعاية الله.

خرجت فأمسكت يد أبي بقوة وعلى وجهي ابتسامة، وأشرت إلى «صفاء» التي تقف منتظرة أمام منزلها مع أبيها، واحتضنتها بقوة ووقفنا نتكلم بحماس وأبوانا يتحدثان قليلًا قبل أن تتحرك القافلة الصغيرة في طريق المدرسة، قال أبي:

- ستذهبين معنا يا «صفاء»، فوالدكِ يجب أن يذهب إلى عمله.

لم يتوقف أبي عن الحديث في الطريق إلى المدرسة، تحدث كثيرًا عن طلب العلم وأهمية التعليم وظل ينبهنا إلى أشياء لم ننتبه لها، والحقيقة فالفرحة

والحماس كانا رفيقي الطريق، وكلام أبي كان يضيف حالة من الحماس رغم عدم انتباهنا له.

فجأة، أحسست أن شيئًا يطبق على صدري، كأن هناك من وضع صخرة على صدري، أحسست بنظرات ثاقبة تخترقني وتكبلني، فتوقفت عن المشي وهنا شممت الرائحة الكريهة التي أخذت طريقها إلى أنفي، رائحة الكبريت والعطن وشيء قديم قدم الدهر، شيء خبيث لم يستطع عقلي الصغير تفسيره، نظرت إلى شمالي ورأيته، يقف على عتبة بيت قديم على أطراف القرية، ينظر نحوي بشغف ويتلمظ كأنه جائع يريد أن يلتهم وجبته الأولى، أول ما لفت انتباهي قدمه الحافية المغطاة بشيء أسود، هل هذ طين أم شعر يغطيها؟ جلبابه القصير بني اللون والشال الأسود حول رقبته ورأسه الكبير التي لا تتناسب حجمها مع حجم جسده، يبتسم ابتسامة كريهة مقيتة تحت شارب كث يستقر أسفل منخار كبير، وعينين ضيقتين تحت جبهة عريضة يغطيها الشعر، على جانبي رأسه تستقر أذنان كبيرتان كالصاج، وصوته الأجش جعلني أنكمش في جوار أبي:

- كيف حالك يا ابن «تغاني»؟ أما زالت العجوز على قيد الحياة؟

تجاهله أبي وشد على يدي ويد «صفاء» وأسرع الخطى، من الخلف تصاعدت ضحكاته كالصجيج وقال:

- ألن تعرفنا على حفيدة الغالية؟

عندما ابتعدنا غلبني فضولي، فنظرت ورائي، وجدته يقف في مكانه وهيئ إليّ أن عينه تضيء بضوء أحمر، وشفتاه تتمتمان، فحولت نظري بسرعة ودعوت الله أن نصل إلى المدرسة بسرعة ولا يفسد اليوم الجميل هذا أي شيء.

في المساء، استأذنت على جدتي وحكيت لها ما حدث، استمعت إليّ في صبر وقالت:

- هذا من أعوان الشيطان يا حبيبتي، لا تقتربي، منه وإذا حدثكِ لا تردي عليه،

وإذا أعطاكِ شيئًا لا تأخذيه.

- حاضر يا جدتي.

خلعت جدتي عقدًا من الذهب يتدلى منه لوح صغير من الذهب عليه كلمات لم أستطع قراءتها، ووضعته حول جيدي واحتضنتني وأخذت تردد آيات وكلمات وحروف وأرقام وتكررها، وصوت الإنشاد يعلو في الغرفة ورائحة البخور تطرد الروائح الخبيثة التي ظلت عالقة بصدري، وأصبح كلام المنشدين واضحًا وضوح الشمس:

صلى الله على محمد.. صلى الله عليه وسلم

صلى الله على طه.. خير الخلق وأحلاها

وظلت جدتي تردد بصوت مرتفع:

- مدد يا رب، مدد يا أهل بيت النبي، مدد يا عمار البيت، مدد يا واهب المدد، احفظها ونسلها من شر الشيطان وحزبه وأبنائه ومن شر «إذانامي» و«ثيمة» و«هسبيرس» و«اسموديوس»، ومن ملك العار مفترس الأبناء حارق الرعايا رجس بني عمون أمير جهنم..

علا صوت الإنشاد وتكاثف العرق على وجهي وإحساس بخدرٍ يغزو جسدي كله فيغمر ذراته بالسكون والصوت يردد بقوة:

_ الله.. الله.. الله.. الله...

لم أحس بعدها بشيء، استيقظت في فراشي في اليوم التالي على صوت عم «سلامة»، فنزلت مسرعة وسلمت عليه، فأعطاني قطعة من «سكر النبات» وابتسم رغم أن وجهه يحمل كثيرًا من الهم والحزن، وجاء بعده عدد من الأشخاص من الرجال والنساء ودخلوا الغرفة مع جدتي وأغلقوا الباب، ودار بينهم حوار طويل ارتفعت فيه الأصوات، ولم أفهم كثيرًا مما قيل وأنا أسترق

السمع، ولكن ما قالته «تغاني» آخر الجلسة كان واضحًا:

- لقد عاد رأس الشر ولن يسلم منه هذه المرة أهل القرية أو القرى المجاورة، ولا بد أن نحذرهم. المرة السابقة استطعنا بالحيلة أن نتخلص منه، ولكن عودته الآن تعني أنه قد تعلم الدرس ولن نستطيع التخلص منه بسهولة هذه المرة، انشروا تحذيرًا بين أهل القرى أن يحتاطوا ويحموا أطفالهم، لا خروج من البيوت بعد حلول الظلام، والخطر كل الخطر من أعوانه من الإنس.

هز الجمع رؤوسهم مؤيدين وعادوا للهمس مرة ثانية، كان تحذير جدتي بعدم الاقتراب من هذا البيت يطن في أذني دائمًا.

إنجلترا 2009

لم أنتظر الحافلة هذه المرة، أسرعت إلى جاري السيد «سميث» والذي يملك سيارة أجرة وطلبت منه أن يحملني إلى قسم الشرطة، شرحت له الموقف بسرعة فرحب بتوصيلي بشرط ألا يأخذ أجر التوصيل، شكرته ممنونة وطوال الطريق وبين كلماته التي أرد عليها في اقتضاب تتقاتل داخل رأسي الأفكار ويرسم عقلي المتعب عدة سيناريوهات وتوقعات تثقل على قلبي الواهن وأتمنى ألا يصدق معظمها.

ماذا حدث لكِ يا «ماري»؟ هل وجدوها؟ هل هي بخير؟ أين كانت طوال هذه السنوات؟ هل وجدوا جثمانها؟ هل ماتت؟ أخذت أحاول أن أنشغل بالطريق والمناظر المحيطة لأطرد هذه الأفكار السوداء من رأسي، ولكن قلبي يخبرني ويدق على عظام صدري في إلحاح «لقد مرت ثمان سنوات، ألا زال عندكِ أمل أنها على قيد الحياة؟».

- اصمت أيها القلب القاسي، لا أستطيع أن أتخيل صغيرتي الرقيقة تحت التراب تحتضنها الأرض بدلًا من أن تحتضنها ذراعي.

وصلت السيارة فقفزت منها وجريت في لهفة نحو قسم الشرطة ولم ألقِ حتى التحية على السيد «سميث» ولم أشكره، دخلت فسألت عن الشرطي الذي ترك لي الرسالة فطلبوا مني الانتظار، كيف أنتظر مجددًا؟ ألم يكفي الانتظار ثمان سنوات؟ يا إلهي، ظللت أفرك يدي ببعضهما وأنا أنظر إلى الباب المؤدي إلى مكاتب إدارة القسم، أنتظر في لهفة لا أعرف لماذا، فعندما يفتح هذا الباب قد يصدر حكم الإعدام على حياتي وسعادتي وأقابل وجهًا لوجه قدري المحتوم الذي لا هروب منه.

فتح الباب وخرج الشرطي وخلع قبعته وعلى وجهة نظرة أعرفها جيدًا، نظرة الأسف والتعاطف، وسقط قلبي مغشيًا عليه، لا.. لا تنظر إليّ هكذا، لا أستطيع أن

أتحمل هذه النظرة البائسة، نظره تحمل الشفقة في ظاهرها وتحمل القسوة كلها في باطنها.

تحاملت على نفسي وسلمت على يده الممدودة وتبعته بعد أن أشار إليّ قائلًا:

- تفضلي إلى مكتبي يا سيدتي.

ذهبت معه كأني أساق إلى قبري، أساق إلى اللحظة التي سيعدم فيها قلبي الواهن المثقل بالألم والحزن. جلست ونظرت إليه وعيني تقول: هيا اذبحني، انتزع ما تبقى من روحي.

ها هي نظرة الشفقة اللعينة تظهر على وجهه رغم محاولته أن يظهر وجهًا محايدًا، تنحنح في هدوء وفتح ملفًا مليئًا بالأوراق وقال:

- كما أخبرتكِ في الرسالة التي تركتها سيدتي، لقد حدثت بعض التطورات في قضية اختفاء «ماري»، ووجدنا أن نخبركِ بها. أعتذر، هل ترغبين في شرب شيء ربما بعض الماء أو الشاي؟

شكرته بلساني ولعنته بداخلي: لا أرغب في شرب أي شيء أيها المأفون، انطق! تكلم!

استطرد قائلًا:

- في قضية أخرى تخص شخصًا يدعى «بلايك»، وبعد القبض عليه بسنة تقريبًا وخلال التحقيقات أرشدنا إلى عدة أماكن حيث أخفى ضحاياه، معظم ضحاياه من المراهقين، وقد مر بعدد من المدن الصغيرة واعتدى على أكثر من خمس وعشرين ضحية، وأرشدنا إلى مكان خارج البلدة هنا، وعند الحفر وجدنا بقايا لبنت في نفس عمر «ماري»، وعند عمل اختبارات الحمض النووي على البقايا وجدنا أنها متطابقة بنسبة مائة في المائة.

شهقت في عنف ووضعت يدي على فمي حتى لا أصرخ بصوتٍ عالٍ، وانهمرت

دموعي من مقلتي غزيرة جارفة، لا أصدق، ماتت «ماري» الجميلة، وحدها، دفنت في قبرٍ مجهول بين الغابات في البرد وحدها، لماذا لم أحفر الأرض كلها حتى أجدها وأحتضنها وأمنع عنها البرد والوحدة؟ ضمت الأرض جسدها الصغير بعد أن واراها هذا المجرم التراب.

تحطمت من الداخل وتكسر كل جزء بداخلي إلى أجزاء صغيرة، ونظرت إلى الشرطي وقلت:

- متأكد أنت أن البقايا هي لابنتي؟

- نعم يا سيدتي للأسف.

- كيف ماتت؟

- عفوًا؟

- أسألك كيف ماتت؟

لا أصدق أني أتفوه بهذه الكلمة من فمي «ماتت» بعد ثمان سنوات من أملي أنها هربت مع صديق بعد أن حملت سفاحًا منه أو أدمنت المخدرات، ثمان سنوات وأنا أعيش على أمل أن تعود وتطلب السماح وسوف أسامحها، أقسم أني سأسامحها وأحتضنها مرة ثانية وأضمها إلى صدري وأشم رائحتها.

- كيف ماتت من فضلك؟

تردد صدى السؤال داخل خواء نفسي وفضاء إحساسي.

- سيدتي لا داعي للتفاصيل، ولكن لا زلنا ننتظر تقرير الطبيب الشرعي، فحال الجثمان ومرور كل هذه السنوات يجعل من الصعب...

- كيف لا زلتم تتباطؤون بعد هذه السنوات؟ أريد أن أعرف هل تعذبت أم كانت ميتة سريعة؟ أريد أن أحس بما أحست به من ألم، أريد أن أكون معها لحظة

بلحظة، أريد أن أكون معها في آخر دقائق من عمرها حتى لو بمخيلتي.

- سيدتي، هوني عليكِ، لا أحد يعرف هذه التفاصيل بعد و...

قاطعته قائلة:

- أريد أن أقابله.

- عفوًا!

- القاتل، أريد أن أقابله فورًا، يجب أن أعرف ماذا حدث لابنتي الصغيرة.

- ربما كان من الأفضل أن تنسي وتدفني بقايا «ماري» وتتعاملي مع الأمر، ربما يرفض لقاءكِ، فهذا مرهون به أيضًا.

- سوف أموت إذا لم أعرف ماذا حدث لابنتي، هل عندك أطفال؟

- نعم، عندي ولد وبنت.

- إذن تعرف ما أحس به، لن تبرد ناري حتى أعرف ماذا حدث.

أطرق الشرطي وتنهد وقال:

- سأرى ما يمكن فعله سيدة «مارجريت»، ولكن قد يأخذ بعض الوقت وربما يرفض الرجل أن يقابلكِ، على العموم سوف أتصل بكِ في أقرب وقت.

***

شهران مرّا عليّ وأنا أموت في اليوم عدة مرات، شهران من العذاب الذي لا ينقطع، أبكي بحوزا في غرفتها وأنام بضع ساعات وآكل بعض لقيمات بالكاد تكفيني أن أقيم صلبي، فقدت الكثير من وزني وبرزت عظام وجنتي، حتى جاءت المكالمة الموعودة.

- مساء الخير سيدة «مارجريت» معكِ مفتش البوليس «...».

- مساء الخير.

- لقد وافق المدعي العام على طلبكِ ووافق المتهم أيضًا وتحدد موعد المقابلة بعد يومين في لندن، سأرسل لكِ التفاصيل على البريد الإلكتروني والتصريح المطلوب.

- شكرًا لك.

- هل لي أن أسألكِ سؤالًا؟

- تفضل..

- لماذا تريدين أن تقابليه؟

- أريد أن أعرف لماذا فعل فعلته القبيحة، أريد أن أعرف هل تألمت ابنتي في ساعاتها الأخيرة وأنظر في عينيه وأخبره أني لن أسامحه أبدًا على فعلته القذرة.

- أنا آسف يا سيدتي، لا أستطيع أن أعرف ما تمرين به، ولكني أتمنى أن تجدي الراحة في هذا اللقاء.

- أشكرك.

جلست في غرفة الانتظار تعصف بي مشاعر مختلطة من الخوف والترقب والحزن، وعندما دخل «بلايك» إلى الغرفة ما أحسست به كان واضحًا، كره شديد لا يمكن وصفه أو احتوائه، كره لو أُطلق له العنان لأحرق الأرض ومن عليها، دخل تسبقه رائحة كريهة، رائحة الكبريت ورائحة أخرى اقتحمت أنفي ورئتي وتعلقت بذراتي، انقبض قلبي وأنا أتخيل أن وجهه القبيح هو آخر ما رأته عين صغيرتي ورائحته هي آخر ما شمته.

لماذا يبتسم هكذا؟ أسنانه الصفراء وعينه الضيقة وجبهته العريضة وأذناه كبيرتان كالصاج. جلس أمامي ولم أستطع أن أنطق بحرف، بدأ هو الكلام بصوت أجش كريه:

- أنتِ أم «ماري» إذن! آه نعم، أتذكرها جيدًا، فستان أبيض بأطراف مزركشة لامعة والحزام الأزرق، أعجبني الحزام وكان ممتعًا وأنا أفكه وهي ملقاة على بطنها أمامي، رائحتها طيبة مثل رائحة العلكة بشعرها الأحمر القصير.

نظرت نحوه بحقد وهلع وأنا أتخيل اللحظات الأخيرة في حياة ابنتي الحبيبة، فعلًا إنها هي كما وصفها، لا زال لساني عاجزًا عن الكلام.

- ماذا تريدين أن تعرفي؟

أردف قائلًا:

- أظن من الأفضل أن تدفني ما تبقى منها ولا تفكري في الأمر، فهي في مكان أفضل، أليس هذا ما تؤمنون به؟

نظرت إليه في جمود والدموع تتجمد وترفض السقوط على وجنتي، فتابع في تشفٍ:

- لعلكِ تظنين أنني سوف أعذَّب على ما اقترفته! أطمئنكِ، فمكاني محفوظ بجوار سيدي ومولاي جزاءً لي عن كل ما قدمته له من قرابين.

اتسعت عيناي وانسابت الدموع على وجهي واقشعر جسدي من بشاعة المشاهد التي تراءت أمامي وتكلمت:

- ابنتي الرقيقة كانت قربانًا لشيء في مخيلتك المريضة؟

صرخ قائلًا واللعاب يتناثر من فمه:

- شيء أيتها اللعينة! تقولين عن مولاي شيء! «مولوخ» شيء! ملك العار مفترس الأبناء، حارق الرعايا رجس بني عمون، ملك جهنم.

اتسعت عيناه حتى تخيلت أنها ستخرج من جمجمة رأسه:

- لقد التهمت ابنتكِ، نعم، قطعت شرائح من لحمها وأكلتها، قطع شهية وطرية،

ثم أشعلت فيها النار وأحرقتها حتى سال الدهن واختلط باللحم، نالت ابنتكِ الشرف العظيم أن تكون قربانًا «لمولوخ» العظيم .

لم أدرِ بنفسي إلا وأنا أقفز بقوة عبر المنضدة التي تفصلنا، وبأظافري أخمش عينيه وأنزعهما وأنا أصرخ في غضب، انقض الحراس يحاولونْ تخليصه مني ولكن أنفه كانت بين فكي، فانتزعتها بأسناني وأنا أمزق وجهه بأظافري فأزيده دمامة على دمامته، ثم أطبقت بأسناني على رقبته فاقتطعت قطعة من اللحم وسالت الدماء فأغرقت كل شيء.

حملني الحراس وأنا أضحك في سعادة لأول مرة منذ ثمان سنوات، وعينيه وأنفه تسبح في دمائه، أضحك على صرخاته وسبابه وهو يحاول أن يوقف الدم المنهمر من وجهه ورقبته، حملوني بعيدًا وتركوني أرحل، ربما رأفوا بحالي وربما سوف يأتي حسابي على ما فعلت بعد ذلك، لا أدري.

يومها دفنت ما تبقى من عظام «ماري» في مدافن الأسرة جوار أبي الراحل، وحضر قداسها سكان البلدة، وتقبلت عزاءها وواريت زهرة عمري ونور حياتي التراب.

مكان ما فوق الماء ـ وقت غير محدد

يجلس على عرش كبير من الجمر

«هليل بن شاشار»

«الملاك الأحمر»

« أمير الهواء»

يرتكن بيده كبيرة الأصابع طويلة الأظافر على سيفه الذي يقال له «تنيبرس»، يلتهب وجهه بالنار، لا يحمل ملامح محددة، بل يصعب تحديد شكله من كثرة الأشكال التي اتخذها منذ بدء الخليقة.

يجلس في تراخٍ وملل، وعلى الأرض أمامه جيف لطيور وحيوانات وبشر، وبيده الأخرى يحمل كأسًا من الذهب تحتوي على مسكر، لا يشبه الجدي ولا يغطي جسده الفرو، ومن ينظر لا يعرف تحديدًا ملامحه التي تظهر في هالة من النار ولدت في جهنم.

كان يتذكر عندما عاث جنسه في الأرض فسادًا، فأرسل الله ملائكته تحاربهم وتطهر الأرض من شرورهم، وهزم الملائكة أباه وأعمامه وأعوانهم، ووقع هو في الأسر، «إبليس الصغير» الذي لا يدرك ماذا سيحدث له.

وصعد إبليس الصغير إلى السماء، فسكنها مع الملائكة وأصبح له شأن كبير. تذكر كيف أحب الله وظل دهرًا يعبده ويتقرب إليه، حتى أصبح من المقربين، إلى أن جاء يوم أسود خلق الله فيه هذا المخلوق الكريه «آدم»، خلقه من طين، هذا المخلوق الهش الضعيف النكرة الذي خلقه الرب من طين.

- أنا أفضل منه وأقرب، ألم يخلقني من النار! أليست النار أقوى وأبهى!

هكذا وسوست إليه نفسه وتحكم فيه كبرياؤه.

- ثم يعاقبني أنا الجميل بهي الطلة، فيغير شكلي، رأسي تصبح كرأس البعير وصدري كسنام الجمل، ووجهي كوجه القرد، وعيني مشقوقتين ومنخار ككوز الحجام وشفة كشفة الثور، وأنياب كأنياب الخنزير، وسبع شعرات تتدلى من ذقني، ونفيت إلى هذه الجزيرة فحرم عليّ دخول الأرض إلا خفية متسللًا كاللص، لا أملك إلا أن أوسوس لبني آدم وأعلنها الرب صريحة، ليس لي سلطان عليهم إلا من اتبعني منهم، وأتخفى في شكل بني آدم عندما أزور الأرض لأخفي وجهي القبيح. سوف أنتصر على ابن آدم عاجلًا أو آجلًا، فقد أقسمت أن أقعد إليهم صراط الله المستقيم وأظل أوسوس لهم حتى عند صعود روحهم لبارئها، وسأفعل ذلك بإخلاص حتى أدخل النار، التي أعلم أنها مستقري النهائي، حيث سأعذب على تكبري وكبري وحسدي وكرهي ومعصيتي الكبرى، ومعي من نجحت في غوايتهم من الإنس والجن، واستمتعت بهم. سأخطب فيهم يوم القيامة وأتهمهم بالغباء لأنهم اتبعوني وتركوا ما يدعو إليه الله من حقٍ وعدل وجمال، وسيرى الله كيف خلق من يفسد في الأرض ويسفك الدماء، من يفعل كل الشرور ويظلم وينام بعدها هانئ النفس، من يدعي التقوى في العلن ويبيح لنفسه السرقة والقتل وأكل مال اليتيم، هذا المخلوق التافه الذي استباح الأرض وعبد آلهة غير الله وشره يصعد إلى السماء يوميًا فيغفر لهم الله ذنوبهم وأنا ذنبي لا يُغفر أبدًا. نادم أنا نعم ولكن لو عاد الزمن ما سجدت لآدم قط. حزين أنا؟ نعم حزين، أشتاق إلى قرب الله، جواره، أن أعود من عبيده المقربين إليه، لا أستطيع أن أطلب العفو والغفران من الله، لا أقدر، يرفض لساني أن أطلبها منه، كبريائي يمنعني ويكبل يدي ويجعلها مغلولة إلى عنقي، لن أسجد لآدم ولن أرجع عن قسمي أبدًا.

قطع حبل أفكاره دخول أبنائه الخمسة الواحد تلو الآخر، لوسيفر الكبير، اسمه باللسان العربي «داسم»، موكل بخراب البيوت وتفريق الأزواج وهدم الأسر والمجتمعات.

بعلزبول، «الأعور» الموكل بالقوادين والمومسات وإشاعة الفاحشة بين الناس، سيد الزنا ومؤجج الشهوات.

اسموديوس، «مسوط» أمير الكذب، الموكل بالمطففين الذين يكذبون في الميزان وقائد الكذب والغيبة والنميمة ينشرها جنده بين الناس كالهواء.

بلفيجور، «بترو» صاحب الجهل وأمير الجاهلية وأفعالها، يؤذي الناس في المصائب ويجعلهم يلطمون الخدود ويشقون الجيوب ويبتعدون عن الدعاء لله.

آخرهم ناهوم، «زلنبور» صاحب الطمع والجشع وجنده ينتشرون يحثون الناس على السرقة وخيانة الأمانة.

أجلسهم «إبليس» اللعين حوله، ورحب بهم وأدناهم إليه، فعملهم قلب شأن ابن آدم، وأصبح القتل والزنا والسرقة والطمع وخيانة الأمانة فضائل تراها في كل مكان على الأرض، ترى البنت تقتل أمها والرجل يزني بمحارمه، والقتل بين الناس أصبح سهلًا وبسيطًا، ولكن ذلك لم يشفِ غليله، فكرة أبيهم لابن آدم قديم قدم الزمن حتى قبل أن يخلق الله الزمن، وهمه ثقيل كالجبال يجثم على صدره منذ أمر الله ملائكته أن تسجد لهذا الكائن المتمرد الخطاء المفسد في الأرض، سافك دماء إخوته وأبنائه وعشيرته.

أول من تحدث كان «ناهوم» فألقى السلام على أبيه قائلًا:

- سلامًا أبي «عزازيل»!

صرخ في وجهه بحدة واللعاب يسيل من بين أنياب الخنزير:

- صه، لا تنطق بهذا الاسم مرة ثانية! فهو اسمي الذي كنت أنادى به في السماء السابعة.

انكمش «ناهوم» على نفسه وقال:

- عذرًا أبي، أردت أن أبشرك بعودة مكانتك بعد ما فعله أبناؤك في الأرض، ألم

تشتق إلى أسمائك التي كنت تكنى بها في السموات؟

صمت «إبليس» وتذكر أسماءه في السماوات؛ العابد في السماء الدنيا، الزاهد في الثانية، العارف في الثالثة، الولي في الرابعة، التقي في الخامسة، والخازن في السادسة.

- ويحك يا «ناهوم»! لقد فقدت هذه الأسماء بعد أن طردت من السماء وخرجت منبوذًا مدحورًا.

- ستعود منتصرًا يا أبي فتثبت للرب أنك كنت على حق، وأنت من كنت أولى أن تسجد لك الملائكة.

- أيها البائس، ألا تعلم بوعد الله لبني آدم أن يغفر لهم ذنوبهم إذا استغفروه وأخلصوا في الاستغفار!

- بلى سيدي ومولاي وأبي، ولكننا لهم بالمرصاد حتى إذا عادوا عدنا للغواية فلا نتركهم إلا في النار وننعم نحن بالقرب من الرب مرة ثانية.

شرد «إبليس» في ما قاله ابنه، حتى أبناءه خدعهم، الأغبياء يظنون أنهم سيعودون إلى مكانتهم الأولى ولا يعرفون أننا سنخلد في جهنم مع من نغويهم:

- نعم نعم، أفهم، سنحتفل بانتصارنا معًا. والآن ماذا يفعل ولدنا «مولوخ» في أنحاء الأرض؟ أرى عودة قوية له منذ أن عبده الفينيقيون ونشروا ديانته في أرجاء الأرض، يعود بقوة فيفترس أبناءهم ويفسد في الأرض كالأيام الخوالي.

- لقد جاء بنفسه لينال البركات منك يا أبي.

- «مولوخ»، تعالَ وادنُ مني يا ولدي.

دخل «مولوخ» رأسه كرأس الثور ينفث الدخان من منخاره، على صدره رسم الشجرة المحرمة التي أكل منها «آدم»، وفي منتصفها عين الدجال الذي سيبعث آخر الزمان وقد فرد جناحيه في زهوٍ وتألقت عيناه بنورٍ أحمر مشتعل، وسجد

بين يدي جده وقبّل الأرض بين قدميه فقال «إبليس»:

- قم يا بني فقد أغويت الكثيرين من القرون الوسطى وظهرت للنمرود وأعطيته الملك والمال والقوة والجاه فنصبك إلهًا يعبدونه ويقربون إليه القرابين، كيف أقنعتهم أن يقتلوا أبناءهم حرقًا في محراب معابدك التي انتشرت من شمال أفريقيا وبلاد الشام حتى وصلت للأرض الجديدة في الغرب التي يسمونها أمريكا؟ أعوانك زرعتهم في كل مكان يقتلون الأطفال ويحرقونهم ويأكلون لحومهم، لقد أسعدتني يا «مولوخ».

رد «مولوخ» بصوت عميق سحيق:

- عبدك وخادمك يا أبينا ومولانا، عبدك وخادمك يا أمير جهنم وسيد الظلام والماء والهواء، يا حاكم الكهوف والمغارات، أبشرك يا أبي لقد عدنا بقوة وانتشرت جنودي في أقاصي الأرض شمالها وجنوبها وشرقها وغربها يعبدونني ويتقربون إليّ بالذبائح والحرائق، يسرقون فلذة أكباد البشر ويجعلوهم ييأسون من رحمة الله ويسبون الدهر ويفقدون إيمانهم بعد ما رأوه من شقاء.

- احذر يا بني من نسل «محاربي المعبد»، لو وجدوا خنجر سليمان سيحكمون عليك بالنفي مرة ثانية إلى أعماق الجحيم.

- لا تخف يا أبي لن يجدوه أبدًا، وسأظل أطارد نسل «محاربي المعبد» حتى آخر الأرض عن طريق أتباعي، لقد اخترت عددًا من المخلصين لي، اثني عشر إنسيًا، سميث كلًا منهم الكاهن الأعظم، وزرعت فيهم جزءًا مني وكفلت لكل واحد منهم منطقة لإدارة أعمالي ومساعدة أتباعي في مهامهم حتى نملك الأرض ومن فيها، أما حراس المعبد فقد قل عددهم وانقطع نسلهم، ولولا مساعدة بعض قبائل الجن المنشق عن طاعتنا لما نجحوا في مسعاهم، لكن النصر قريب يا أبي.

ارتسم الارتياح على وجه «إبليس» وقال:

- فلنشرب تحية «لمولوخ» وليجلس على عرشي اليوم ويلبس تاجي، ملك

العار، مفترس الأبناء، حارق الرعايا، رجس بني عمون.

يردد مجلس الشياطين خلفه التحية بينهم يقف «مولوخ» في فخر. قامت الشياطين تحتفل وبقي «إبليس» وحده مرة ثانية.

رغم أنهم أبناؤه إلا أنه يحتقرهم ويلعنهم، فهم يعبدونه ويفعلون ما يأمر به بسهولة ودون مناقشة، وهو من أبى أن يطيع ربه ولم يسجد كما أمره، لماذا لم يفعل ذلك؟ نعم هو مطرود من رحمته ولكنه يحبه ويعرف أنه الحق ويحب قربه، لماذا رفض إذن؟ هل لو طلب منه العفو سيعفو عنه كما يفعل مع البشر كل يوم؟

ثم هذا الآدمي الذي خلقه الله وجعله آخر الأنبياء وقربه إليه ولم يأمر الملائكة بالسجود له بل صلى هو وملائكته عليه. ما هذا الشرف العظيم؟ لقد دخل سدرة المنتهى بقدميه، حتى جبريل الملاك لم يستطع الدخول، طبعًا كان يجب أن أكرهه، كرهته كما لم أكره أحدًا من قبل.

دخلت متسللًا إلى مجلسه مرات أرى ماذا يقول ويفعل حتى أمسك بي وكاد يقتلني، حتى إن لساني قد تدلى من فمي وسال لعابي على يده ورغم ذلك رفض أن يقتلني وقال إن الله أمهلني إلى يوم يبعثون. رأيته يتحدث إلى معشر الجن من قبيلة «نصيبين» وهم أكثر الجن عددًا وأقواهم شوكة، وهم عامة جنودي وأتباعي، وغيرهم من القبائل فيسلم عدد كبير منهم، وعلم الناس ماذا يقولون ويتصرفون لاتقاء شري.

ثم مات هذا النبي، فأشعلت النار، نار الفتنة وفرقت بين أصحابه ووسوست إلى الناس أن يقسموا الدين أحزابًا وشيعًا ومذاهب، زرعت الاختلاف والشقاق بينهم فكفّر بعضهم البعض. الأغبياء، يسجدون لإلهٍ واحد ويقرؤون كتابًا واحدًا ويختلفون من كان أحق بالخلافة منذ ألف وأربعمائة سنة، يتركون جوهر الدين ويتعلقون في التفاهات من كيفية الوقوف ووضع اليد في الصلاة حتى دخول الخلاء اختلفوا فيه يدخلون بالقدم اليمنى أم اليسرى، مثل بني إسرائيل عندما

أمرهم ربهم أن يذبحوا البقرة، ظلوا يسألون عن شكلها ولونها وصفاتها، لم يدركوا أن أمر الله المباشر يتوجب تنفيذًا مباشرًا، أغبياء هؤلاء البشر.

ولكني خائف، نعم فقد اقتربت ساعتي واقترب خروج الدجال وعودة النبي عيسى ليقود البشر في الحرب الأخيرة، وسيكون هذا اليوم هو آخر يوم أصرخ فيه، فقد انتهى زمني وحان موعد عقابي.

وسط إفريقيا 2023

من بين الصراخ والدخان وأصوات الانفجارات اندفعت سيارة من ذوات الدفع الرباعي، سوداء اللون، على جانبها رسمت نجمة الشيطان باللون الأحمر تدهس الزرع وتثير عاصفة من الغبار ثم توقفت، ونزل منها عملاق ضخم أسود اللون يرتدي زي المرتزقة العسكري المموّه وحذاءً أسود طويل الرقبة، وعلى رأسه بيريه أخضر وتتدلى من عنقه سلسلة ذهبية كبيرة في وسطها رأس ثور من الذهب، يحمل في يده المليئة بالخواتم الذهبية سيجارًا غليظًا يمتص دخانه في شرّه وعلى عينيه نظارة سوداء يحملها أنفٌ كبير ويراقب المذابح التي تحدث حوله في ملل.

رجاله يحصدون الفارين برصاصاتهم دون أن يفرقوا بين ذكر أو أنثى، كهل أو طفل، ومن لم يطلق عليه الرصاص تنهال سكين ضخمة «ماشيت» على ظهره فيخر صريعًا مضرجًا بدمائه. يراقب كل شيء من خلف نوافذ عويناته الشمسية التي تخفي خلفها عيونًا احمرت من أثر الخمر والمخدر. يشير إلى أحد أعوانه ويسأل:

- هل وجدتم تلك العاهرة؟

- ليس بعد يا سيدي، ولكن وجدنا السائق يحاول الهرب بالسيارة.

- أحضروه!

يأتي الرجال بالسائق مكبلًا، فيدفعونه دفعًا، فيقع عند قدمي «ماركوس» ويبدأ في البكاء والعويل وطلب الرحمة ممن لا يملك في صدره مثقال ذرة من رحمة. أمسكه «ماركوس» من قميصه ورفعه إليه وقال:

- أين ذهبت المصرية يا رجل؟ أنطق!

- لا أدري يا سيدي أقسم لك، لقد أخذها هذا الولد وهربا قبل وصولكم بدقائق.

- في أي اتجاه ذهبا؟

- لا أدري، شرقًا أو غربًا.

خلع «ماركوس» نظارته في بطء وقال:

- لقد اتفقت معك على تسليم العاهرة ومن معها، واتفقت معك على الزمان والمكان، وبعد ما أخذته من نقود تقول لي لا تعرف! غير مقبول.

أشار إلى رجاله بإصبعه نحو سيارة أخرى فسارعوا بفتح بابها وأحضروا منها امرأة وطفلًا في السادسة ودفعوهما في قسوة. نظر السائق برعب وقال:

- أرجوك إلا زوجتي وابني، لقد فعلت كل ما أمرت به واتصلت بك في اللحظة التي وقفنا فيها، ولكني لم أستطع منعهم من الرحيل، فجأة جاءت المصرية وقالت للولد أنهم يجب أن يرحلوا فورًا كأنها تعلم الغيب، صدقني لقد حاولت أن أثنيهم عن ذلك ولكنهم صمموا.

أخرج «ماركوس» مسدسه من غمده ورفعه إلى رأس السائق وقال:

- أنت غبي، كان لا بد أن تبذل مجهودًا أكبر وبالتالي أنت لا تستحق الحياة.

أدار المسدس في سرعة وأطلق رصاصة في رأس الزوجة ورصاصتين في ركبتي السائق وقال:

- سأتركك هنا غارقا في دمك حتى تظل تلعن غباءك الذي أوصلك لهذا الحال، أما ابنك فسيكون خادمًا جيدًا ومقاتلًا بعد ذلك في صفوف مليشياتي وليكون هذا عقابًا عادلًا لك.

أشار إلى رجاله واستطرد:

- هيا تفرقوا وابحثوا عن هذه الزانية ومن معها.

جلس في مقعد السيارة وارتجف جسده وهو يفكر في عقابه شخصيًا لفشله

مرة ثانية في القبض على «بشرى».

كيف تستطيع الهرب كل مرة تكون في قبضة يده وتختفي أو تهرب؟ وهذه المرأة الإنجليزية التي هربت ومعها الشيطانة السمراء وتركت على رأسه ذكرى هروبها!

مد يده فتحسس رأسه في المكان الذي ضربته عليه «ترينو» وارتعد جسده مرة ثانية وهو يفكر ماذا سيكون عقابه من سيده وسبب القوة التي أصبح يملكها والغناء الفاحش الذي هو فيه. كان في الماضي يعمل في الحقول ويرعى الماشية، أقصى طموحه أن تلد الشاة التي اشتراها بعد عناء ويصبح عنده قطيع من الغنم يؤهله لأن يجد زوجة فيدفع مهرها وينجب ذرية يعانون في الحياة كما كان هو يعاني.

تذكر عندما قابل الكاهن الأعظم، رجل متشح بالسواد ألقى الرعب في قلبه وأخبره أن حياته في طريقها للتغيير، ودلَّه على كهف في الجبل وطلب منه الذهاب سريعًا، فيترك كل شيء ويجرى نحو الكهف، فيجد الساحر ينازع بين الحياة والموت. وجده ساقطًا على الأرض بجوار تمثال ضخم من الحجر لرجل له رأس ثور، بجواره سكين حاد طويل بدائي الصنع وغارق في دمه، بالكاد كان يتنفس، تذكر الرائحة الكريهة التي اقتحمت خياشيمه، حمله وضمد جراحه وأصبح يسقيه اللبن ويطعمه من لحم الشاة الوحيدة التي يملكها بعد أن ذبحها، ظل على هذه الحال أيامًا عديدة حتى طاب الساحر وحكى له ما حدث مع الجارية التي كان يملكها.

أخذه الساحر إلى عمق الجبل فوجد صناديق من الذهب والأحجار الكريمة وخطة شيطانية لبناء جيش من المرتزقة يعيثون فسادًا في الأرض، يغتصبون النساء ويسرقون الأطفال ويتاجرون في البشر ويبيعون الأعضاء عبر شبكة شديدة التعقيد في بلدان العالم المختلفة.

بعد أن أقسم للساحر بالولاء والطاعة بدا حلف الشيطان وأصبح يملك القوة، كل القوة التي أرادها، تحميه عين «مولوخ» الساهرة. تمنى أن يقبض على كل الهاربين ويعود منتصرًا إلى سيده فتحل عليه البركة، نشر عيونه في كل مكان ووعد بجوائز مادية وعينية، وما كان يحيره دومًا هو ما سر كرة الساحر والرجل الغامض الذي يظهر ويختفي كالطيف لهذه المصرية القادمة من ضفاف النيل؟

تذكر كل ذلك وأشار إلى السائق أن يسرع وارتسمت على وجهه ابتسامة شيطانية تحمل الشر، كل الشر.

***

في الوقت نفسه وصلت القافلة الصغيرة بقيادة «فوستين» إلى نهاية الأحراش ليجدوا أمامهم صحراء، صفراء، قاحلة. التفت «فوستين» نحو «بشرى» وقال:

- إذا اتجهنا إلى الغرب سنصل إلى قرية صغيرة على حافة النهر، ولكن الطريق طويل ووعر ولا نضمن ولاء سكان هذه القرية أو القرى الأخرى، فيجب ان نتجنب الطرق الرئيسية التي يجول فيها أتباع «ماركوس» ذهابًا وإيابًا.

قال الرجل بعض الكلمات التي لم تفهم منها شيئًا فتبرع «مالك» بالترجمة:

- يقول أبي أن هذه الصحراء مليئة بالعقارب والثعابين السامة والرمال المتحركة، والأفضل الذهاب إلى أقرب مدينة.

قال «فوستين»:

- أقرب المدن إلينا على بعد مئات الكيلومترات من هنا، والطريق ليس آمنًا ولا أظن الثعابين والعقارب أكثر سمًا وشرًا من مطاردينا.

ابتسمت «بشرى» وقالت:

- يجب أن نتحرك الآن، فلا يوجد وقت نضيعه في هذا النقاش، لنختفي ونصل إلى مكانٍ آمن أولًا، ثم نقرر ماذا نفعل، فإني أسمع سياراتهم تزأر من بعيد.

سمعت صوتًا ينادي في داخل عقلها يقول:

- إلى اليمين.. الآن!

صاحت «بشرى» في رفاقها:

- هيا إلى اليمين نحو هذا التل المرتفع.

بدأوا في الجري وقدمهم تغوص في الرمال فتزيد صعوبة الجري نحو التل الذي يرتفع فلا يظهر شيئًا خلفه مع سطوع الشمس في أعينهم، صعدوا التل وهم يلهثون حتى وصلوا إلى أعلاه، فوجدوا أسفله ممرًا حفرته مياه السيول وغطته الصخور فأخفته من أن يلمحه أحد من أعلى، ظنوا أن ما بعد التل سيكون صحراء جرداء، ولكن لم يتصوروا أن يجدوا ممرًا بين الرمال.

قالت «بشرى»:

- أسرعوا إلى الممر، سنمشي فيه ولن يستطيعوا رؤيتنا، هيا أكاد أن أراهم يخرجون من الأحراش.

هبطوا إلى الممر الذي أخفاهم من العيون في الوقت نفسه الذي ظهرت فيه سيارة «ماركوس» وتوقفت أعلى التل وترجل منها وهو يعض على سيجارته ويلتفت في لهفة إلى اليمين وإلى اليسار، يتصبب العرق من رأسه العريضة اللامعة الخالية من الشعر. نزل السائق من السيارة وقال:

- سيدي، لا يمكن أن يكونوا ذهبوا من هذا الاتجاه، لو تحركوا في الصحراء لكانت رؤيتهم سهلة كالذباب الذي سقط في وعاء اللبن.

نظر «ماركوس» ناحيته فابتلع الرجل ما تبقى من كلماته وقال:

- أظنهم سيدي لا زالوا داخل هذه الواحة، ربما يختفون بين الأشجار أو في الأحراش!

أخرج «ماركوس» جهازه اللاسلكي من جيب بنطاله المموه وقال:

- احرقوا هذه الواحة عن بكرة أبيها، لا أريد أن أرى شجرة واحدة أو روحًا تتنفس، اقتلوا كل كائن حي وأحرقوهم بالقنابل الحارقة.

انطلقت النار في كل اتجاه، تلتهم كل شيء، الأخضر واليابس واشتعلت في شدة وتأججت وانعكس وهجها على نظارته الشمسية السوداء وهو يبتسم في شراسة.

كفر الحمام 2000

كنت قد قرأت أن من المهم للشخص أن يفرغ أفكار يومه أولًا بأول على الورق ليفسح الطريق لأفكار وخبرات أخرى جديدة لامعة، فتحت دفتري الوردي وأمسكت قلمي وكتبت:

«أتممت عامي التاسع، وأصبح لديّ أصحاب كثر، ولكن صديقتي المقربة ظلت «صفاء». كم أعشق ضحكتها وشعرها الأصفر كجدائل الذهب وإقبالها على الحياة والبريق الذي في عينيها لا ينطفئ. نذهب إلى المدرسة سويًا ونعود سويًا لا نفترق، تأتي إلى بيتي كل يوم فندرس سويًا ونتكلم عن أحلامنا وأفكارنا التي غالبًا تكون طفولية بريئة، وتظل باقية حتى يعود أبي فيقرأ لنا ثم ترحل.

لا زلت لا أعرف سر غرفة جدتي والدق والإنشاد ورائحة البخور. في مثل هذا اليوم، قابلت «مدبولي»، الرجل المخيف الذي يسكن على أطراف القرية، ورغم أن أبي كان معي ورغم مرور ثلاث سنوات على هذا اللقاء إلا أن رائحته الكريهة لا تزال تزكم أنفي وتثير عصارة معدتي فتتسابق إلى فمي.

هيئته المخيفة التي تزورني في أحلام يقظتي ونومي وما سمعته من أمي وسيدات الحي يثير الفضول في نفسي، يتحدثون عنه كأن له «كرامات» ويتفاخرون بقدرته على «جلب الحبيب» و«فك السحر» و«تزويج العانس» ومنح الذرية لمن حرمها الله منها، وغيرها مما يسمونه «الكرامات»، ولكني أرفض تصديق ذلك كله رغم أن هذا اللغو قد أحاطه بهالة من التقديس ووفر له حماية على الأقل من جدتي في الوقت الراهن، هل جدتي فعلًا قادرة على إلحاق الأذى بهذا الرجل أو نزع شعرة واحدة من رأسه الكبير؟

سؤال: هل جدتي بهذه القوة لتشن حربًا على هذا الرجل؟

ما سر هذا الرجل؟ هل هو ساحر أم ولي من أولياء الله كما يدعي؟

ما سر هذه الرائحة التي تنبعث منه؟

أسئلة ربما أجد لها الإجابة يومًا ما، ولكن من المؤكد أنه لا بد أن أزور بيت «مدبولي» يومًا لأرى بنفسي، ويجب أيضًا أن أعرف سر الأصوات التي تخرج من غرفة «تغاني» مع رائحة البخور.

أغلقت دفتري ولبست حذائي وخرجت من الغرفة، فرأيت أمي تجلس مع جارتنا «أم صفاء» وسيدة أخرى لا أعرفها، ارتجفت لمرآها فرائصي وانقبضت نفسي وسرت القشعريرة في جسدي. نادت عليّ أمي:

- تعالي يا «بشرى» ألقِ التحية على الضيوف.

مددت يدي فسلمت على أم صديقتي التي أعرفها جيدًا، ومدت السيدة الأخرى يدها إلى وهي تبتسم وانفرج فاها عن صف من الأسنان الصفراء تتعلق بصعوبة بفكها العلوي وصف من الأسنان السوداء تستقر بالسفلي، لا أدري لماذا سوداء هكذا.

عفوًا، لم أحكِ عن أمي، حقيقة لا يوجد ما أحكيه، ليس لأني لا أحب أمي، بالعكس فهي سيدة مكافحة تعمل ليل نهار لتساعد أبي، تمر على البيوت لتبيع الجبن والزبد واللبن الذي تنتجه بقرتنا، وبيض الدجاج الذي يمرح في عشه في الطابق الأرضي، وفي المناسبات الطيور الأخرى كالحمام والبط لنساء المدينة المجاورة.

أمي للأسف غير متعلمة، ليست أمية فهي تستطيع أن تقرأ وتكتب ولكن بصعوبة، أما أمور العلم والثقافة العامة فتتركها لأبي. أما عن زواجها بأبي فله قصة يمكن أن تكتب سيناريو لفيلم من أفلام المقاولات ولا أدري هل تفاصيلها صحيحة أم لا، فدائمًا تحكيها أمي ويبتسم أبي في رصانة فلا ينفي ولا يؤكد. كانت أمي تعمل في جني القطن، وللعامة ممن لا يسكنون القرى فموسم جني القطن يكون عيدًا في أي قرية، الرزق يكون وفيرًا حيث تعمل سيدات وبنات

القرية في الجني يدًا بيد مع الرجال، ويكون الجني بنزع القطن عن زهرته واحدة تلو الأخرى ثم تجميعه في أكوام وتنظيفه وتعبئته في جِوالات من الخيش، ثم يحمل لمصنع الغزل والحلج، والحلج هو عملية يتم فيها نزع بذور القطن عن زهرتها ميكانيكيًا لصعوبة فعل ذلك يدويًا، ناهيك عن الوقت .والمجهود، لأن البذور تكون متشابكة مع القطن ذاته، ثم يتم غزله لخيوط بأحجام مختلفة تستخدم لصناعة النسيج، كان للقطن المصري مكانة عالية وما زال رغم قلة مساحته المزروعة واتجاه الفلاحين للمكسب السريع.

سمع أبي يومها صوت صراخ وعويل، فجرى مع الناس نحو مصدر الصوت فوجد أمي جالسة على الأرض تمسك بساقها التي يسيل منها خطان من الدماء وتكاد تفقد الوعي من الخوف والألم، تبرعت إحدى السيدات العاملات وقالت أن أمي قد عضتها أفعى سامة، حملها أبي إلى الوحدة الصحية، والحق يقال كانت أمي على قدر من الجمال، وهو يطمئنها أن سم الأفعى لن يقتلها فورًا، بل يحتاج ساعة أو ساعتين على الأقل حتى يتوقف قلبها عن النبض، لاحقًا عرفوا أنه لم يكن هناك أفعى أو سم، ولكنها جرحت من شوكتين في الأرض بين أغصان القطن وظنت هي أنها أفعى، وتشارك الخوف والتوتر معًا لخلق حكاية خرافية احمر وجهها خجلًا عندما عرفت من الطبيب أن الوضع بسيط ولا يوجد سم أو خطر على حياتها، ولا أدري ماذا حدث في هذه المغامرة، ولكن انتهت بزواجها من أبي بعد شهر من الواقعة وكنت أنا ثمرة هذا الزواج.

***

أمي سيدة بسيطة كأي فلاحة أصيلة مؤمنة بالعادات والتقاليد والأهم النصيب، تؤمن أن نصيبها في الحياة أن تساعد أبي وتأخذ بيده ولا تشتكي، ورغم صلابتها وتحملها شظف العيش إلا أنها تنقصها الحكمة في الكثير من الأمور والقدرة على التصرف، وتستمع إلى رأي جاراتها وصديقاتها وتنساق لهواهم الذي في أغلب الوقت لا يكون صوابًا.

أخذت أنظر إلى يد المرأة الممدود نحوي تنتظر أن تغلق مخالبها حول يدي وسألت أمي:

- أمي، أين جدتي وأين أبي؟

ردت أمي في خجل:

- فلتسلمي على خالتكِ أولًا يا بنت! لقد خرج أبوكِ مع جدتكِ وهم على وصول، هيا سلمي عليها لا يصح أن تظل يدها ممدودة هكذا!

مددت يدي لأسلم فجذبتني السيدة نحوها في قوة وشممت الرائحة مرة ثانية، ليست قوية مثل السابق بل خافتة ولكني أعرفها جيدًا وتعرفها معدتي، رائحة كبريت ورائحة شيء ممتهن، مهترئ، قديم قدم الزمن من أول الخلق.

أجلستني على فخذها وأطبقت عليّ كالوحش في البراري ولفت يدها حول وسطي كالأفعى وأنا أحاول أن أتخلص منها دون جدوى، وأخذت تتحسس جسدي كأني فريسة تتساءل من أين تبدأ بالتهامي، وقالت في شغف:

- لقد حان الوقت، لا يفضل التأخير لقد كبرت وبهذا نسترها ونحافظ عليها من الشهوات.

- شهوات؟

ردت أمي:

- أي شهوات؟ إنها ما زالت صغيرة في التاسعة!

- عادةً تكون البنت في السادسة أو السابعة، لقد تأخرت كثيرًا وعليكِ خطيئة وذنب كبير لو أخرتِ هذا الموضوع.

- أخاف أن أفعل ذلك بدون إذن زوجي!

- وما دخل الرجال بهذا الموضوع؟ الشرع والعرف يقولان أنه عند وصول

البنت سن معين وجبت الطهارة.

قالت أم صفاء:

- لا تخافي، لقد قامت «فهيمة» بختان «صفاء» منذ أيام ومر كل شيء على خير، وهي الآن ترتاح ولم يعرف أبوها أي شيء، وعندما سأل قلت له أنها مصابة بالبرد، إنه يعود من العمل ليأكل وينام ولا يشغل باله بهذه الأشياء.

ردت أمي:

- لا يا أختي، «صابر» مختلف، إنه قريب جدًا من البنت وسيريد أن يعرف ماذا حدث لها.

قالت «فهيمة» في خبث:

- لقد قلتِ إنه متدين ويفهم في الشرع، لا أظنه يعترض على ذلك بل سيكون سعيدًا.

قالت أمي:

- لا أدري، لا داعي للعجلة، سأسأله أولًا ثم نتفق على موعد آخر.

قالت «فهيم « بلهجة العالم ببواطن الأمور:

- كما تريدين، ولكن لو تزوجت وحدث لها مشاكل مع زوجها أو أتعبتك في فترة المراهقة، هل تظنين أنها ستشتكي لأبيها؟ الأمور النسائية من اختصاص المرأة وليس الرجل، وسوف يلومكِ أبوها ويقول أنكِ كنتِ مسؤولة عن تربيتها وتعليمها هذه الأمور، معي الأدوات هنا والوقت يسمح، سنأخذ وقتًا قصيرًا وننتهي قبل عودة زوجكِ، خير البر عاجله.

كنت أنظر حولي ولا أفهم ما يحدث، فقد شُغلت بمحاولة التملص من ذراع «فهيمة»، ولكنها كانت تطبق عليّ مثل مخالب الحدأة عندما تقبض على الطيور

الصغيرة فلا تتركها حتى تستسلم وتفارق الحياة، مثل الثعبان يعصر فريسته حتى تختلف ضلوعها وتتمزق.

قامت أمي تغلي قدرًا من الماء ومدت «فهيمة» يدها ففتحت حقيبة سوداء تحتوي على سكاكين وشفرات ومقصات وقطع زجاجية حادة وصخور، وقطع من القماش عليها بقايا من الدماء، برقت عيناي في خوف وتسابقت دموعي للسقوط على وجهي في صمت وعلى يدها الموشومة شكل لم أستطع التعرف عليه، الوشم يظهر مثلث بداخله عين ويخرج من جهات المثلث الثلاث خطوط كأشعة الشمس تنتهي بأيادٍ صغيرة، وبيدها أظافر حادة طويلة تبدو أحد من الأدوات التي تحملها في حقيبتها السوداء المهترئة.

ناديت على أمي في خوف وأنا أحاول أن أهرب رغم أني لا أعرف ماذا سيحدث لي، جاءت أمي من المطبخ تحمل وعاءً من الماء الساخن، فقامت «فهيمة» بوضع الأدوات في الماء وقطعة القماش التي سال منها الدم واختلط بالماء وتلون باللون الأحمر. طلبت «فهيمة» من «أم صفاء» أن تحتضنني بقوة مكبلة يدي خلف ظهري وتبتتني بوضع شبه مائل، ورفعت هي فستاني ومدت يدها تحاول أن تنتزع سروالي الداخلي وأنا أصرخ وأمي تضع يدها على فمها وتنظر نحوي بألم.

- ماذا يحدث هنا؟ توقفوا فورًا!

صوت جدتي «تغاني» يهدر في المكان بقوة ويهز أركان البيت، وانفتح باب غرفتها فجأة وخرج منه هواء بارد جعل «فهيمة» تسحب يدها بسرعة وتنظر إلى الغرفة وجدتي في ارتياع، واتسعت عينها ونشف الدم في عروقها وابتلعت لعابها بصوت مسموع.

- «بشرى»، تعالي هنا يا ابنتي..

جريت نحوها وأنا أجفف دموعي وارتميت بين ذراعيها وأنا أرجف وأتنفس

بصعوبة. قالت جدتي بغضب:

- ألم أحذركِ يا عاهرة ألا تقتربي من بيتي أو بيت أحد من أهلي؟ أخرجي ولو رأيتكِ مرة ثانية سأقتلع عينيكِ من رأسكِ وأسلط عليكِ من لا يرحمك، ارحلي من هنا، احملي أغراضكِ ولو رأيتكِ صدفةً سيكون حسابي معكِ عسيرًا، هيا اذهبي إلى سيدكِ!

دخل أبي من الباب ونظر حوله في استغراب، عبرت المرأة بجواره تلملم نفسها وأغراضها في سرعة وكأنما تطاردها شياطين الجحيم وهي تخفي في يدها شيئًا يبدو أهم من أغراضها، أردت أن أنبه جدتي أن هذه المرأة قد سرقت شيئًا ولكني لم أقدر على التركيز مع هول ما يحدث أمامي. التفتت جدتي نحو أمي وقالت في غضب:

- وأنتِ يا جاهلة يا بليدة العقل، كيف تعرضين طفلة بريئة لهذا العذاب الجسدي والنفسي؟ أليس لكِ عقل تفكرين به؟

قال أبي:

- ماذا أصاب «بشرى»؟ أنتِ بخير يا ابنتي؟ ماذا يحدث هنا؟

قالت « أم صفاء» وقد احمر وجهها الأبيض من الخجل:

- كل خير يا أبو «بشرى» كنا فقط نقوم بعمل «ختان» للبنت لأنها وصلت للسن المناسبة، وقد قمنا بختان ابنتي منذ يومين وهي في أحسن حال.

برقت عينا أبي ونظر لأمي في عتابٍ قاسٍ:

- ختان؟! نعتذر منكِ يا «أم صفاء»، نحتاج أن نتكلم في هذا الموضوع، رجاءً بلغي سلامي لزوجكِ وأتمنى أن تكون ابنتكِ بخير.

لملمت السيدة نفسها بسرعة وخرجت، وهي تنظر لأمي نظرة اعتذار، تجر خلفها أذيال الارتباك والخجل. نظر أبي نحو أمي التي أطرقت برأسها في خجل

وقال:

- تعرفين أني أحبكِ، وطوال هذه السنوات لم أقسُ عليكِ ولم أطلب منك أن تتعلمي أو تقرأي وتعرفي أمور دينكِ ودنياكِ، لم أكن أتوقع أبدًا أنكِ تفعلين شيئًا يخص «بشرى» بدون الرجوع إليّ واستشارتي، أحمد الله أن أمي جاءت في الوقت الملائم وإلا كان آخر يوم في حياتي معكِ يا «صباح».

مصمصت جدتي شفتيها وقالت:

- لا زلت طيب القلب يا «صابر»، توقعت أن تضربها، كانت ستتسبب للبنت بعاهة مستديمة وحالة نفسية تستمر معها طول العمر بجهلها وسوء تصرفها.

قالت أمي في انكسار:

- لماذا يا أمي تقولين هذا؟ هل أنا أول أو آخر امرأة تختن ابنتها؟ كل نساء القرية فعلن ذلك مع بناتهن!

- فعلة سوداء لا أساس لها في الدين ولا الأخلاق.

- هذه عادتنا يا أمي، ثم إني لم أتصور أن تغضبي هكذا أو يغضب «صابر»!

- اسألي، استأذني من أبيها، لا تتصرفي من منطقكِ وفكركِ المحدود.

قاطعها أبي:

- الجهل رغم أنه مشكلة كبيرة تأكل في أعمدة المجتمع إلا أنه ليس عيبًا، ولكن التصرف بجهل بدون الرجوع إلى العقلاء والمثقفين هو الخطأ، ولا يحل الضرب والعنف الجسدي المشكلة يا أمي، ليس ذنب «صباح» أنها لم تكمل تعليمها. ونعم، أكثر من سبعين في المائة من البنات والسيدات في مصر تم ختانهن بدون رغبة منهن، وهي عادة يقوم بها المسلمون والمسيحيون، وواجبنا نحن المثقفين أن نعلم الناس حتى لا يقعوا في الخطأ.

جلس بجوار أمي وأمسك يدها وأردف:

- تقولين أن هذا الفعل من العادات والتقاليد الموروثة لكنكِ مخطئة حين تقولين أن هذا رأي الشرع، فلا يوجد أي دلائل شرعية على وجوبه في القرآن والسنة، والحديث الوحيد الذي يذكره الناس هو حديث ثبت ضعفه ولا يعتد به.

سألت أمي:

- ما معنى حديث ضعيف يا «صابر»؟ أليس كل ما يقوله الرسول واجب التنفيذ؟

- حقًا ما تقولين، كل ما يقوله الرسول واجب التنفيذ، ولكن ضعيف معناه لم يثبت في علم الحديث نقله عن النبي عليه السلام، بل الختان في الأصل هي عادة جاهلية وليست من الإسلام في شيء، والأصل في الشرع مخالفة أفعال الجاهلية وليس فعلها وتكرارها، وقد صدرت بيانات وفتاوى كثيرة تحرم ختان الإناث حيث أنه يتسبب في تشويه أعضاء المرأة التناسلية ويسبب الأمراض الجسدية والنفسية والتي تصل في بعض الأحيان إلى مضاعفات في أثناء الولادة تصل إلى النزيف الحاد؟

ثم أكمل:

- أتعرفين أن الضرر النفسي قد يصل للشعور بالعار والخجل والخيانة من الأب والأم لسماحهم بهذا الانتهاك الصارخ لطفولتهم؟ خلاصة القول، إن الختان عادة اجتماعية وليس لها مرجع ديني، وقد اختلف علماء كثر فيها وتركوها للحاكم والجهات الشرعية الحكومية متمثلة في الدستور والقوانين، وقد جرمت قانونًا سنة 1946 في مصر ولكنها ظلت تمارس في الخفاء وفي المستشفيات الحكومية حتى منعت في سنة 1959.

- لو كنتِ تقرأين كنتِ عرفتِ وجود كتاب «الوجه العاري للمرأة العربية» للكاتبة نوال سعداوي، عندها ستعرفين إحساس الطفلة عندما تمر بهذه الصدمة وتنتهك

أيد غريبة المنطقة الخاصة بها والتي حرم الشرع رؤيتها، فقد حرم الفقهاء الكشف عن عورة البنت عندما تكمل أربع سنوات وقبل ذلك يكون للمساعدة على النظافة ويكون فقط من الأم أو الأخت الكبرى.

ذهب أبي إلى المكتبة ففتح كتابًا قديمًا جلده مهترئ وقرأ فيه:

- روي عن الحاكم أن محمد بن فياض قال: رفعت إلى رسول الله وعليّ خرقة في صغري وقد كشفت عورتي فقال: «غطوا عورته فإن حرمة عورة الصغير كحرمة عورة الكبير ولا ينظر الله إلى كشف عورته».

ابتسمت جدتي وقالت:

- بارك الله لك يا ولدي.

نظرت أمي نحوي بأسف وقالت:

- اعذريني يا ابنتي، أعدكِ أن أستشير أباكِ في أمركِ، ولن أجعل من قلة علمي سببًا في أذاكِ أبدًا.

قال أبي:

- دعونا من ذلك ولتجهز لنا «صباح» عشاءً جميلًا فوق سطح المنزل، فالجو مناسب للجلوس بالخارج وأيضًا عندي لكم مفاجأة سارة.

قلت في لهفة:

- ما هي المفاجأة يا أبي؟

قال أبي:

- لقد استلمت أمي بعض المال من بيع أرض لها في الصعيد وسوف أفتح متجرًا لبيع المستلزمات المدرسية والبقالة والكتب في القرية.

قالت أمي بابتهاج:

- هذا خبر جميل، سنحتفل بوجبة دسمة من البط.

وقامت تهرول إلى المطبخ لتجهيز العشاء

***

«مذكراتي العزيزة..

أمي طيبة القلب، ولكن تنقصها الحكمة والتصرف بعقل في المواقف المختلفة. افتتح أبي المتجر وأصبح مقصدًا لأهل القرية لأنه الوحيد من نوعه، وأتمنى أن تزدهر تجارته حتى أستطيع تحقيق أحلامي وأكون صحفية مشهورة.

ظلت «صفاء» تغيب عن المدرسة عدة أسابيع، ولم يسمح لي بزيارتها، حتى نافذتها ظلت مغلقة، إلى أن رأيتها ولكنها قد تغيرت، أصبحت شخصًا آخر، انطفأ بريق عينيها واقتلعت براءتها، وكأن يدا خبيثة امتدت داخلها فانتزعت منها طفولتها فأصبحت وعاء فارغًا».

***

في ذات الوقت، وعلى الطرف الآخر من البلدة في بيت الساحر، دخلت «فهيمة» تجر أذيال الخيبة وتهتف:

- سيدي سامحني لقد فشلت.

- ماذا تفعلين هنا؟ ألم أقل لكِ أن «تغاني» ليست في المنزل ويجب أن تدخلي وتضعي يدكِ على نسلها فهي أملنا الوحيد في السيطرة والانتصار على «محاربي المعبد»؟ لن تأتي هذه الفرصة مرة ثانية، فحراس البيت من أقوى أتباع الملك «أباديباج» وأتباع الملك «طارش».

- سيدي ومولاي، لا أدري ماذا حدث، لقد مددت يدي وكان بيني وبينها قاب قوسين أو أدنى، ثم دخلت هذه الشمطاء العجوز مع حراسها يقفون خلفها

بسيوفهم وأعينهم الحمراء ورداء الحرب الأخضر، وكادت تطبق على رقبتي فلا تتركني إلا وأنا جثة هامدة.

- ألم يرسل معكِ مولانا «مولوخ» أحد قواده لحمايتكِ وتسهيل مهمتكِ؟

- «ميمون ابانوخ» لقد فر عندما رأى «تغاني» ومن معها من الحراس المدججين بالسلاح، ولكني سرقت مسبحتها الخضراء ولففتها في ردائي حتى تظل بها رائحة «تغاني».

- أحسنتِ، الآن يمكن النيل منها دون الحاجة للجوء إلى الحرب المباشرة.

أظلم المكان فجأة وتصاعد دخان كثيف ورائحة كريهة من المكان، ولمع ضوء شديد في أعينهم فألهبها بنار حارقة فسجدوا على الأرض، وظهر أمامهم رجل متشح بالسواد عندما رآه «مدبولي» خر ساجدًا، صاح بهم بصوت عميق قادم من أعماق الجحيم:

- لقد فشلت أيها الأحمق مرة أخرى، سأصلبك وأقطع جسدك قطعًا صغيرة وأحرقك حتى لا يبقى إلا العظم.

رد الساحر وهو يرتعد من الوحش:

- يا مولاي وسيدي، لقد حاولت «فهيمة» ولكن الحراس تصدوا لها وأنت تعلم قوة الملك «طارش» والملك «أباديباج» حتى من أرسلته معها هرب ولم يقدر على التصدي لهم.

صاح في اهتياج:

- اصمت، ألا تعلم أهمية أن نسيطر على حفيدة «تغاني» ونتحكم فيها، أنت لا تدري خطورتها وقدرتها على إفساد كل ما وضعناه من خطط، ليس هنا فقط، ولكن في كل مكان، ليكن ما سيحدث لمعاونتك درسًا لك حتى لا تنسى وتحاول المرة الثانية بقوة أكبر.

تصاعد صوت صراخ «فهيمة» بقوة حتى إنه خاف أن ينظر إليها ومدت أظافرها الطويلة فاقتلعت عينيها ومزقت وجهها فسال الدم غزيرًا في كل مكانٍ وأخذت تجري في أنحاء الغرفة وتصدم رأسها بقوة في الحوائط، ثم سقطت على الأرض وتلوى جسدها بشكلٍ بشع وكأنه خلا من العظام والزبد يسيل من فمها، وفجأة أمسكت النار بجسدها وتصاعدت رائحة الشواء والجلد المحترق.

قل الصراخ وبقيت النار تضطرم وتحرق بقاياها فلم يبقَ منها إلا عظام بيضاء كأنها غسلت توًا ثم اختفى الدخان والصوت، وعندها فقط تنفس «مدبولي» الصعداء، فقد نجا بنفسه هذه المرة وجفف عرقه وأقسم أن لن يدع «صابر» وأسرته في أمانٍ، وإذا لم ينجح شياطين الجن من الانتصار على «تغاني» فربما ينجح شياطين الإنس.

برقت عيناه بشرّه وفي عقله المريض تشكلت خطة جديدة يتعاون فيها أسوأ أنواع البشر من أعوان الشياطين مع مبعوث الجحيم.

القرن التاسع الميلادي ـ بلاد الشام

دقت الطبول وارتفعت أصوات المنشدين تخترق عنان السماء وتجوب الطرقات في أبهى صورة، الرجال يرتدون أزياء بيضاء اللونِ بالكاد تغطي أجسادهم، مرصعة بالذهب والأحجار الكريمة، على رؤوسهم تيجان من الذهب، وجوههم ملطخة بالأصباغ ويدقون دفوفًا كبيرة في رتابة وينشدون في صوت عذب. خلفهم نساء يرفلون في أزياء ضيقه مفتوحه تكشف فتنتهن والتفاف أجسادهن، ألوانها زاهية ومحلاة بخيوط الذهب والفضة، يرتدون أساور من الذهب وتجمل جيدهن الحلي المرصعة باللؤلؤ وعلى رؤوسهن قبعات من الريش الملون، يتمايلن حول الرجال ويتراقصن في شبق.

يقف أهالي البلدة عن اليمين واليسار ينظرون في مرحٍ على الموكب ويصفقون في بلاهة وانتشاء، بعضهم يحمل أطفالًا رُضَّع ويمسك الآخرين بيد أطفالٍ في عمر الست أو السبع سنوات يبتسمون في براءة ويراقبون الموكب في مرح. بين الحشود، يقف رجل يبدو أنه من خارج المدينة وتبدو على وجهه ملامح الدهشة وهو ينظر إلى الموكب، ثم يلتفت إلى الرجل الذي يقف بجواره ويقول:

- ما هذا الاحتفال يا أخي؟ هل هناك مناسبة دينية معينة؟

يدر الرجل في جزل:

- نعم يا رجل، إنها ليلة «مولوخ».

- «مولوخ»! تقصد الصنم الذي يعبده الكنعانيون؟

- نعم يا أخي، «مولوخ» الإله العظيم، إله الخصب والزراعة والحرب.

- تعبدون إلهًا غير الله؟!

قالها الغريب في استنكار.

- تبدو من أتباع النبي «إلياس» وتردد كلامه! ما الذي أتى بك إلى هنا إذن؟ نحن نريد أن نعبد إلهًا قويًا نستطيع أن نراه ونرى آثاره وبركاته تحل علينا في كل وقت، منذ أقمنا المعبد له وتبركنا به وقدمنا القرابين ونحن نرى الخير الكثير، المزروعات تنبت والأشجار تثمر وامتلأت ضروع الماشية باللبن وعَمَّ الخير، وأمنًا على أوطاننا فلم نخض أي حروب منذ زمن طويل.

- ويحك يا رجل! أرى من ملامح وجهك أنك من بني إسرائيل، ألم تتعلموا الدرس بعد! ألم تعلموا أن الله الواحد هو الرازق الواهب وهو من يأمر الشجر فيثمر والأرض فتخرج خيرها؟ ألم تسمع بخبر من سبقونا، أسلافنا الأولين الذين كُتب عليهم التيه في سيناء أربعين عامًا؟ أتدري لماذا عاقبهم الله؟

- لا أدري، أنت تتحدث كثيرًا، دعني أنظر إلى الموكب، الفتيات يرقصن شبه عاريات في شبق، ما بالي وما حدث في الصحراء من سنين! نحن هنا الآن، فلنستمتع بالخير في احتفال الإله.

- دعك من الفتيات يا هذا واستمع لي، لقد أسكنهم الله الصحراء وأنزل عليهم المنَّ والسلوى، ولكنهم أذابوا ما سرقوه من ذهب وبنى لهم السامري عجلًا له خوار فعبدوه، فحرمهم الله من دخول أرض الميعاد وكتب عليهم التيه في الصحراء.

ضحك الرجل في سخرية وقال:

- عجل له خوار! حقًا التاريخ يعيد نفسه، انتظر حتى ترى إلهنا «مولوخ» يا صديقي، سوف تُذهل.

نظر الرجل حوله آسفًا وقد عجز عن الكلام، ظلت عينه تبحث عن النبي «إلياس» لعله يوقف هذا الفسوق والكفر، وقرر أن يتبع ذاك الموكب ليرى ماذا يحدث في هذه المدينة.

سار في الطريق خلف الموكب مع مَن سار حتى وصلوا إلى معبد مهيب، أعمدته تخترق عنان السماء، مزينة بالذهب، تحمل سقف المعبد الكبير المزين بحروف وكلمات تصف روعة وقوة الإله «مولوخ»، وتكرر رسم النجمة السداسية باللون الأحمر على واجهة المعبد السوداء، في وسط المعبد تمثال كبير من البرونز لإنسان يحمل رأس ثور، ترتفع قرونه نحو السماء مع يديه رمزًا للقوة، وعلى صدره دائرة حفرت حول نجمه سداسية الأركان، وسطها عين محفوره بدقة على صدر التمثال، ومن حولها شقوق محفورة على شكل أشعه الشمس مدهونة بالأحمر الزاهي لون الدم، تنتهي بأيدٍ صغيرة مفتوحة الأصابع وقد استقرت في وسط العين ياقوتة حمراء ضخمة تبرق بشدة فتبدو مع الشقوق كأنها شمس مشرقه تلقي بأشعتها في كل مكان.

فغر الرجل فاه عندما رأى كهنة في زي أسود خيطت جوانبه بخيوط من ذهب وتزينه نقوش ذهبية من صورة الثور والنجمة السداسية، يرتدون أقنعة لحيوانات مختلفة، ثور وماعز وخنازير، يلقون بخشب كثير وقطران أسود لزج في فتحة كبيرة أسفل التمثال ويشعلونها بالنار فيتصاعد دخان أسود كثيف من أنف التمثال في صوت خوار مخيف تردد في الأرجاء.

«ما أشبه اليوم بالبارحة! أفلا يتدبرون أحوال أمم قبلهم؟». فكر الرجل في نفسه.

ارتجفت الأبدان مع الصوت المهيب وازداد لمعان عين التمثال الحمراء وفي بطء، فتحت الدائرة في المنتصف مع هبوط أيدي التمثال إلى الأسفل لتمتد وكأنها تطلب القرابين، تصاعدت صيحات وصفير من المحيطين واشتد الدق والغناء وتحولت الرقصات بين الراقصين إلى حركات مثيرة لم تلبث أن تحولت إلى علاقات جنسية في الطريق بدون ستار أو خجل مع وصول موكب من ستة رجال حالكي السواد، عراة تمامًا يحملون هودج من الذهب الخالص ويجدون السير إلى التمثال ويضعون ما يحملون أرضًا.

ترجلت من الموكب امرأة شديدة الجمال، شقراء بلون الذهب، بيضاء بلون الحليب، شفتاها حمراوان كالرمان، أنفها صغير، جبهتها عريضة تحمل فوقها تاجًا أسود أطرافه حادة، مزين بقطع من الياقوت الأحمر، ترتدي ثوبًا أبيض طويلًا، يكشف أكثر مما يستر، تمشي بين الجموع بإباء وشمم ورأسها يرتفع نحو السماء بينما يردد الجموع اسمها: «جزابيل».

تقدمت ووقفت تحت قاعدة التمثال واتجه إليها أحد الكهنة الذين يرتدون الثوب الأسود، فأعطاها خنجرًا من الذهب مقبضه أسود اللون وقال مخاطبًا الجموع في صوت جهوري:

- هللو وافرحوا، لقد جاءت «جيزابيل» ابنة «أشبال» ملك الفينيقيين وزوجة «إهاب» ملك إسرائيل وأم «أهازيا» ولي العهد، راعية معبد الإله «مولوخ».

ثارت الجموع وعلا الهتاف باسمها، فأشارت إليهم بالصمت وبدأت في الكلام:

- أبناء «مولوخ»، لقد اجتمعتم اليوم للاحتفال بإلهنا العظيم وتقديم القرابين والتقرب إليه بالأناشيد والموسيقى، والشكر لفتيات وفتيان المعبد على المجهود المبذول لنشر المتعة والبهجة بين الناس، لقد كتب لنا الإله العظيم الرخاء والغنى بين الشعوب وأنبت لنا الزرع وقدم لنا كل الخير، ولكنه غاضب من هذا المدعو «إلياس» الذي يحاربه في كل مكان وينعته بأسوأ الصفات ويستنكر ما نفعله من أجل رضاء الرب «مولوخ»، ويتهمنا بالفسق والفجور.

تصاعدت صيحات الاستنكار والغضب من الجموع فأشارت إليهم أن يصمتوا:

- أعلن اليوم الحرب على «إلياس» ومن تبعه، سأرسل الجنود في الأرجاء يبحثون عنه، هذا المجنون الذي يطلب منكم أن تعبدوا إلهًا يرفض أن يظهر لكم أو يكشف عن وجهه، لا يريدكم أن تعرفوه، أتدرون لماذا لا يريد حتى أن يصف هذا الرب لكم؟

تعالت الأصوات تسأل لماذا، فاستطردت:

- لأنه لا يوجد رب، إنه يدعي ذلك ليسيطر عليكم ويحرمكم من لذات الجسد، وحتى الطعام حرم بعضه عليكم والشراب، يريدكم أن تقضوا أيامكم في معاناة ورتابة وملل، انظروا لهذه الأجساد الفتية...

وأشارت إلى الراقصين.

- اليوم أحلها لكم تفعلون بها ما تشاؤون فور الانتهاء من الطقوس، لا تحرمون على أنفسكم المتع ولتحل لعنة «مولوخ» على «إلياس» وأعوانه.

تعالت الصيحات واحمرت العيون من الدخان الكثيف المنبعث من مواقد عملاقة، فتخدر الوعي واختفى التفكير المتزن في غياهب الشهوة، أشارت إليهم مرة ثانية بالصمت وقالت:

- فليبدأ الاحتفال، احضروا هذا الصغير ليحوز شرف أن يكون القربان الأول.

حملت سيدة من الجموع طفلها الرضيع نحو المذبح، فأخذته منها وحفرت على صدره النجمة السداسية بخنجرها الذهبي والطفل يصرخ من الألم، فلا يسمع صوته من الدق المحموم والغناء، وضعت الطفل على يدي التمثال فارتفعت يداه في بطء لتلقي بالطفل داخل التجويف في صدره المشتعل بالنيران، واختفت صرخات الطفل والنار تأكل لحمه وعظامه وتحيلهم إلى رماد، ومنعت أصوات الغناء والدق المحموم صوت الضمير من الوصول إلى قلب الأم التي نزلت تشارك الجميع في الرقص والغناء.

استمرت هذه الطقوس ثلاثة أيام تم فيها التضحية بأكثر من أربعمائة طفل من أعمار مختلفة، وارتوت أرض «كنعان» بدماء أطفال بني إسرائيل وتصاعدت في السماء رائحة الشواء تزكم الأنوف.

***

سالت دموع الرجل أنهارًا من هول ما رأى، وسقط أرضًا مفجوعًا عاجزًا عن

الكلام، ماذا يفعلون هؤلاء الحمقى وكيف يطيعون تلك الشيطانة؟ نظر نحو «جيزابل» في كرهٍ وهمَّ أن يجري نحوها فيقتلها ويريح الناس من شرها، ولكن وجد يدًا تمسكه من كتفه، فالتفت، رأى رجلًا في العقد الرابع من العمر له لحية بيضاء ويغطي رأسه بغطاء من الصوف رغم حرارة الجو، وفي يده عصا يتوكأ عليها، همَّ أن يبعد يد الرجل في قوة ولكن شيئًا في عين الرجل منعه من ذلك خاصة عندما تكلم الرجل وقال بلهجه آمره:

- اتبعني!

تبع الرجل في طرقات المدينة وتعجب من الخفة التي يتحرك بها رغم كبر سنه، ظل خلفه حتى وصلوا إلى أطراف المدينة عند باب من أبوابها يقف عليها حارس مدجج بالسلاح، نقده العجوز بعض العملات المعدنية وعبر مع مرافقه حتى وصلوا إلى أطلال ومبانٍ مهدمة خارج البلدة، فدخلها العجوز وهو خلفه، فوجد رجلًا جالسًا على الأرض وحوله عدد من الرجال والنساء والأطفال، مهيب الطلة وعلى وجهه نورٌ، ويبتسم ابتسامةً مرهقة ولكنها مطمئنة، أشار إليه أن يجلس بين يديه ففعل وتكلم الرجل بصوت مجهدٍ رخيم:

- ما اسمك يا بني؟

- اسمي «شمعون» يا سيدي.

- أهلًا بالأخ «شمعون»، أنا «إلياس»، وهؤلاء قومي ممن تبقى من بني إسرائيل على دين التوحيد، الرافضين لما تقوم به «جيزابيل» زوجة «إهاب»، لقد زوجه أبوه «عمري» منها لخدمة مصالحه مع الفينيقيين وابتلانا بها، أحضرت معها الفسوق والزنا والسفاح وأقنعت المختلين من بني إسرائيل أن يضحوا بأبنائهم حرقًا لإله الكنعانيين «مولوخ».

رد شمعون:

- ما حدث اليوم رهيب يا سيدي وتقشعر له الأبدان، لقد قتل مئات الأطفال

حرقًا وكان الزنا في الطرقات مما ذكرني بقوم «لوط» وخوفي من أن يعاقبني الله مع من عاقب من قوم «لوط» لمجرد السكوت على هذا الفعل المشين، هل سيعاقبنا «يهوه» يا نبي الله؟

تحامل «إلياس» على عصاه وقام فربت على كتف الرجل وقال:

- إن انتقام الرب «يهوه» من «جيزابيل» سيكون بيدنا نحن وأتباعنا، لنا أعوان من المؤمنين في كل مكان، في بلاط الملك نفسه، وسوف يقدمون لنا يد المساعدة ويبذلون كل غالٍ ورخيص من أجل أن تنهي حياة هذه الكافرة وأعوانها ويكون موعد لقائها مع ربها في الجحيم في أقرب وقت.

فرح الرجل وقال:

- امنحني هذا الشرف يا نبي الله، ولكني أخاف أن تغلبني بالقوة والحيلة، فأعوان الشر في كل مكان، ولو حصلت على المساعدة المطلوبة فسوف آتيك برأسها فألقيه تحت قدميك أو أهلك دون ذلك.

ابتسم «إلياس» وقال:

- لا تخف يا بني، فأنت تملك قوة أكبر بكثير من الجيوش، أنت تملك الإيمان الذي يبني ممالك ويطيح بملوك.

***

دخلت «جيزابيل» إلى مخدعها الملكي في برج قصرها العالي، ملابسها ووجهها مغطاة بالدماء، دماء الأبرياء من أطفال بني إسرائيل، رائحة الشواء واللحم المحترق متعلقة بأطراف شعرها الذهبي الناري تذكرها ببشاعة ما حدث ولكنها لم تبالِ، تحررت من ملابسها ونزلت في المغطس الخاص في غرفتها الذي يمتلئ بالماء الدافئ والأملاح ورحيق زهور البنفسج والياسمين، تسربت قطرات الماء بين ثنيات جسدها الأبيض تزيح ذرات الدماء الملتصقة به لتسقط وتذوب

في الماء، غمرت جسدها ورأسها بالكامل تحت الماء وبقيت تحته عدة ثوان ثم أخرجت رأسها وشهقت بقوة.

أجفلت وارتجفت عندما امتدت يد تدلك كتفيها والتفتت في حدة، ولكنها ابتسمت عندما رأت جاريتها المفضلة «شهرزاد» تدنو منها، أشارت لها فتحررت هي أيضًا من ملابسها، التي كانت عبارة عن غلالة من الحرير تكشف أكثر مما تخفي، ونزلت معها إلى المغطس وأخذت تنظف جسدها من الدماء وشعرها وتمتد يدها لتلمسها بشهوة أثارت داخل «جيزابيل» الاشتياق إلى من يلمسها، فزوجها العاجز لم يقربها من فترة طويلة، فأصبحت جاريتها هي الطريق الوحيد لإطفاء شهواتها.

انتهت الطاغية من حمامها فمسحت جاريتها على جسدها دهن العود ومشطت شعرها الذهبي الطويل في ضفيرة طويلة وصلت إلى منتصف ظهرها وهي نائمة على فراشها الأبيض القصير وجسدها العاري يتلألأ في ضوء القمر، وفي يدها كأس من النبيذ الأحمر القاني ترتشف منه فتحمر وجنتاها في انتشاء.

أشارت الي جاريتها بالخروج وانتظرت لوهلة ثم قامت فارتدت رداءً أسود، ثم أزاحت الفراش فظهر تحته باب من الخشب له مقبض نحاسي، أمسكت بالمقبض وأدارته، ورفعت الباب في صعوبة فظهر تحته درج حجري ضيق، نزلت منه حاملة شمعة في يدها لتضيء السواد السرمدي داخل السرداب المخفي ببراعة أسفل حجرتها. نزلت الدرج الذي انتهى بغرفه فسيحة جدرانها حجرية مدهونه باللون الأسود وعلى جوانبها الأربعة حوامل نحاسية عليها شموع كبيرة سوداء اللون لم تفلح إضاءتها في تخفيف سواد الغرفة الكئيب.

على الأرض، ارتسمت نجمة سداسية حمراء اللون داخل دائرة وعلى جوانبها وعند مكان التقاء كل ضلعين شموع سوداء ستة، مصنوعة من دهن آدمي مخلوط بدهن خنزير مما أعطى للغرفة رائحة كريهة غمرت المكان وتعلقت بالجدران، في الوسط وعاء زجاجي يحوي دماءً طازجة من المؤكد أنها دماء

طفل من ضحاياها العديدين، خلعت رداءها وسكبت الدماء على جسدها وأخذت تتمتم بكلمات بلغة شيطانية غير مفهومة.

ارتفع اللهب بشدة من الشمعات الست حتى بلغ سقف الحجرة وانتشر دخان أسود كثيف كريه الرائحة، انقشع عن كائن ضخم نصفه إنسانٌ وله رأس ثور يسيل الزبد من فمه، وعينيه الحمراوين تضيئان الظلام بعد أن هدأت النار المنبعثة من الشمعات الست وتكلم بصوتٍ عميق أجش وقديم قدم الأزل:

- لماذا استدعيتني أيتها الإنسية؟

- سيدي ومولاي، لقد أردت أن أسألك عن مدى رضاك باحتفال اليوم، هل راقتك القرابين؟ وهل أعجبك الفجور الذي انتشر في الطرقات عند تمثالك المقدس؟

أمسك بها الكائن من رقبتها ورفعها عن الأرض قائلًا:

- أيتها الحمقاء، هل تصورتِ أن يكفيني بضع مئات من الأطفال يقتلهم أهلهم طواعية تقربًا لي وبعض الفجور والفسق الذي لا يفيد؟ لقد طلبت منك رأس العجوز «إلياس»، فوجوده ودعوته تهدد وجودي ومنزلتي لدى بني إسرائيل، وخاصةً أنها تلقى قبول الكثيرين وتنتشر انتشار النار في الهشيم.

تركها فسقطت على الأرض وتأوهت في ألم، أدار لها ظهره وهو يلهث فارتمت على قدمه تقبلها وتقول:

- سيدي، إن هذا الإلياس لا يملك أي سلطة عليهم، إنه ساحر أو شاعر يسحر أذنهم بكلماته وأشعاره، وقريبًا لن يجد أتباعه ما يأكلون ويشربون، فقد ضيقت عليهم الخناق وسيركعون من الجوع ويسجدون من العطش أمام محرابك المقدس.

نظر إليها والتمعت عيناه فازدادت احمرارًا وقال:

- حمقاء، لن يزيدهم الجوع والعطش إلا تمسكًا بدينهم، فمن رحم الحرمان يولد الأمل ومن ألم الجوع يصقل الإيمان، وها هو ذا هذا الشاعر أو الساحر الذي تدعين قد جمع لكِ أتباعًا وقرر أن يقتلكِ، لقد بلغني أعواني المخلصون أنه أعطى المهمة لشابٍ حار الدماء وقد نوي التنفيذ قريبًا.

برقت عيناها في شراسة وقالت:

- دعه يأتي، سوف أنتظره وأكون له بالمرصاد، وأنت سيدي تشملني بعطفك ورعايتك، فأنا خادمتك المخلصة، أليس كذلك؟!

نظر إليها مطولًا ولم يرد، فانقبض قلبها خوفًا وارتعدت فرائصها.

***

في مكان آخر خارج المدينة، جلس «إلياس» مع بعض من أعوانه وجلس بينهم «شمعون» يتباحثون مخططهم ويدرسون احتمالات نجاحه، تكلم الرجال في آنٍ واحد، فأشار إليهم «إلياس» بالصمت فأطاعوه في احترام وساد الصمت في المكان فقال:

- لقد أبلغنا جواسيسنا أن اللعينة قد عادت إلى القصر، سرعة التنفيذ هامة جدًا ويجب أن تكون اليوم وتحت جنح الظلام.

ثم التفت إلى شمعون وقال:

- البركة في الشباب يا بني، اذهب كما اتفقنا إلى أخيك «بنيامين» فسوف يمدك بالمعلومات والسلاح الذي سيكفل لك أداء مهمتك على أكمل وجه، واحمل له هذه الرسالة مني ولا تفتحها.

أومأ «شمعون» برأسه وقبّل يد «إلياس» وخرج يجد الطريق نحو بيت «بنيامين». في الطريق، رأي بقايا الاحتفال المجنون الذي ما زالت رائحة الرجس والفجور تزكم الأنوف، نساء ورجال عرايا ينامون في الطرقات بعد أن أطفأوا

شهواتهم وامتلأت الطرقات بنجس أفعالهم المحمومة التي ألهبتها رائحة الدخان وحرارة الجو ودق الدفوف، تسارعت دموع القهر تتساقط من مقلتيه أسفًا على قومه لاعنةً جهلهم وولعهم بالمعصية، كيف بالله يقتلون أبناءهم من أجل تمثال من الحديد! ألم يتعلموا من أخطائهم الماضية؟ لعنة الله عليهم ما أضلهم وما أغباهم من قوم، أخرجهم «موسى» من مصر وأنقذهم من فرعون وهامان ورغم ذلك عبدوا عجلًا من بقايا الذهب الذي سرقوه من المصريين ليلة مغادرتهم مصر، وعاقبهم ربهم بالتيه أربعين سنة في سيناء عندما رفضوا أن يقاتلوا وقالوا لموسى في قسوة «اذهب أنت وربك فقاتلا»، والآن بدلًا من أن يكونوا شاكرين على دخولهم أرض الميعاد وانتصارهم على الكنعانيين، انزلقوا في بئر الخطيئة مرة ثانية وعبدوا عجلًا آخر لا يضر ولا ينفع، ما بالهم لا يتعظون ولا يتعلمون مما حدث لأجدادهم والأمم التي سبقتهم!

لاح له في الأفق بيت «بنيامين»، فمسح دموعه واقترب وهو ينظر حوله في حذر ودق الباب، مر وقت طويل ولم يجبه أحد، فمد يده ليطرق الباب مرة ثانية، ولكن الباب فُتح وظهر على عتبته كهلٌ له لحية بيضاء كثيفة، ويرتدي ثوبًا أبيض وحزامًا أسود حول وسطه، وينظر إليه وقد رفع حاجبيه في استفهام. قال «شمعون» وهو يمد يده بالسلام:

- سلامٌ عليك يا أخي..

تجاهل الرجل اليد الممدودة وهو ينظر إلى «شمعون» بتركيز، فقال شمعون في ارتباك وهو يخرج الخطاب من جيبه:

- عذرًا يا أخي، لقد أرسلني النبي «إلياس» وقال أنك ربما تملك شيئًا قد يفيدني في مهمتي.

انبسطت أسارير «بنيامين» وأمسك بيده مرحبًا وأدخله إلى المنزل، ولم ينس أن ينظر يمينًا ويسارًا قبل أن يغلق الباب خلفه، فقال «شمعون»:

- لا تقلق، لم يتبعني أحد فأنا غريب عن المدينة والقوم متعبون من الاحتفالات وينامون في الطرقات.

رد عليه «بنيامين»:

- لا أظن أن من يتبعك تستطيع رؤيته يا صديقي، لقد تحالف الإنس مع شيطان من أقوى أبناء إبليس وأشدهم شرًا، وأتباعه من الجن منتشرين في كل مكان ويرونا من حيث لا نراهم، ولكن لا تقلق، فالبيت محصن ومخفي من عيونهم وإن حاولوا الدخول سيحترقون بطلسم الحماية.

- طلسم؟ ماذا تقصد؟

- الطلسم يا صديقي هي مجموعة من الحروف والأرقام عندما تكتب بطريقة معينة وبترتيب يعرفه قليلون ممن عندهم علم الكتاب يكون لها قوة رهيبة، كان أبي أحدهم وتعلمه في مصر القديمة من أبيه وجده من قبله وتوارثته الأجيال حتى سينتهي هذا العلم عندي، فكما ترى أنا أعيش وحيدًا وليس لي خلف.

- يبدو أنه علم نافع، هل تعلمني إياه؟

- هو علم نافع بالطبع، ولكن في يد الشر يكون سلاحًا فتاكًا وشديد الخطورة ويجلب الموت والدمار، بعد أن تكمل مهمتك المقدسة وتقطع رأس الأفعى فلتعد وسوف أعلمك ما أعلم فتستخدمه في الخير أنت وأولادك.

- عندي ولد واحد اسمه «حاييم» كان عند عمومتي في المدينة، فقبل أن آتي لك تركته في رعاية «إلياس» حتى أعود إذا نجحت في مسعاي.

- ماذا عن أمه؟

- أمه من الغابرين، صبئت عن دين الله وتركتنا لتخدم رأس الشر وتسجد لصنم لا يضر ولا ينفع.

ربت «بنيامين» على كتفه وقال:

- لا تقلق يا بني، أعدك أن أرعى ولدك من بعدك إذا لم توفق وسوف أتبناه وأعلمه ما لدي من علم، والآن هل ترى هذه اللفافة؟ أحضرها وانظر ما فيها.

فتح « شمعون» اللفافة فوجد بداخلها خنجر من الفضة له مقبض من الجلد الذي لا يبدو أنه مصنوع من جلد حيوان، وعلى رأس المقبض استقرت دائرة من النحاس، المذهل هو ما نقش بدقة على أجزائه. على النصل الحاد نقوش وحروف بالعبرية، واسم «مولوخ» داخل نجمة خماسية، على أطراف النجمة نقش الرقم سبعة داخل دوائر أصغر تلمع باللون الأحمر. على المقبض كتابات باللون الأحمر القاني ودوائر عديدة متداخلة داخل دوائر أكبر تلتف حول كتابات من التوراة قرأها «شمعون»: «فليسمع الرب من السماء ويكون الشيطان ملعونًا في الأرض والسماء».

على الدائرة النحاسية نجوم خماسية تحيط باسم الله، وفي الأركان وبشكل دائري كتبت «كلمتي كنار وكمطرقه تحطم الصخر».. «لينصر الرب عباده الصالحين على الشيطان وجنوده».

هتف «شمعون» في انبهار:

- يا الله! هذا الخنجر به قوة غريبة عندما أمسكته اندفع الدم في شراييني والقوه والبأس في عروقي!

- احذر يا بني، فقد تكون هذه القوة خادعة، قد تظن أنك أقوى من «مولوخ» ولكنه شيطان خبيث يتخفى خلف أتباعه من البشر ويظل كامنًا حتى ينقض عليك من حيث لا تدري، يجب أن تركز في مهمتك المقدسة، مع موت «جيزابيل» سوف ينهار هذا الدين ولن تقوم له قائمة، وسوف يحاربك الخبيث ويحارب ذريتك من بعدك ولن يكل ولا يمل، سوف أخبر ابنك عن بطولاتك، وإذا عدت فأخبره بنفسك واجعله يحكي لذريته لتحذيرهم من الحرب التي لن تتوقف عندما تقتل أحد أهم أتباعه وتقضي على عبادته وفسقه قضاءً نهائيًا.

ثم تنهد ونظر إليه في حنان وقال:

- سأتركك الآن يا بني تتجهز وتصلي «ليهوه» لينصرك، واعلم يا ولدي أن دعاءنا وصلاتنا تحفك وتحميك، ولقد تحدثت مع الكثيرين من أتباعنا ممن يعبدون الله حقًا ويخافون على أولادهم من هذا المجتمع المنحل ويرفضون هذه الممارسات، وبعضهم يعمل في القصر وسوف ينتظرونك ويسهلون مهمتك حتى تدخل مخدع الحية الرقطاء، وعندما تراها اغمد هذا الخنجر في صدرها وأرح الناس من شرها.

ثم قام نحو صندوقٍ من الخشب وفتحه وأخرج منه رداءً وأردف:

- البس هذا الرداء فقد جهزته حتى يخفيك عن عيون أعوان الشيطان ولتتحرك الآن، فالظلام سوف يخفيك عن أعينهم.

قبّل «شمعون» يده ونظر إليه شاكرًا، اتجه نحو الباب وخرج بعد أن ودعه وابتلعه الظلام. مسح «بنيامين» دمعة نزلت من عينيه وقال:

- في رعاية الرب يا ولدي.

***

ارتجفت «جيزابيل» عندما طال الصمت وقالت:

- سيدي، لماذا لا ترد؟

رد «مولوخ» في غضب:

- لقد اختفى عن أعين الجواسيس ولا نعلم ماذا حدث، لقد أصبح الوضع خطيرًا الآن، ربما من الأفضل أن ترحلي الآن ولتأخذي معكِ بعض أعوانكِ الذين تثقين بهم، اتجهوا إلى الساحل فاركبوا السفينة وأبحروا شرقًا على طول الساحل حتى تصلوا إلى «قرطاج»، وهناك تعيدين بناء معبدي بما سوف تحملينه من ذهب وما تملكين من قدرة على الغواية، وسأكون معكِ في كل خطوة، يجب ألا

يموت هذا الدين أبدًا، اذهبي الآن!

تحركت «جيزابيل» في سرعة فارتدت ثوبها الأسود وصعدت إلى غرفتها وصرخت في خادمتها أن تسرع وأعطتها تعليمات «مولوخ» وأخذت تضع الذهب والأحجار الكريمة التي سرقتها من بني إسرائيل تحت قناع القرابين والعطايا، لم تكن تتخيل أن ينتهي بها الأمر هاربة مطاردة، لماذا لا يستطيع أن يحميها من كل ذلك بكل ما عنده من قوة وسيطرة؟ كيف ينتهي بها الحال في بلاد لا تعرفها منبوذة، وأين أعوانها؟ أليس من الأفضل أن تنتظر وتقاتل من أجل هذه الحياة التي بنتها طوال هذه السنوات؟

قطع حبل أفكارها صوت يقول:

- أيتها اللعينة، لقد انتهى الوقت وحان موعد حسابك، سأرسلكِ لتقابلي معبودكِ في الجحيم الذي جاء منه، وعليكِ وعليه لعنة الرب.

التفتت إليه في شراسة وضحكت بصوتٍ عالٍ ضحكة مليئة بالتوتر وخرج صوتها ساخرًا ولكن تشوبه نبرة من القلق:

- أي رب هذا الذي تقصد وأي لعنة؟ أين كان هذا الرب وأنا ألقي بأبناء شعبه المختار في النار؟ أين هو وهم يكسرون قواعده العشر ويزنون ويشربون في الطرقات؟ أنت موهوم يا فتى إن ظننت أن هناك ربًا يسمح بهذا الظلم على الأرض دون أن يتدخل، أين عقابه الذي تدعون أنه قاسٍ وعنيف؟ أتعلم، لقد بدأت أصدق أنكم قد تهتم في الصحراء بغبائكم وليس بعقابه.

- أنتِ مخطئة أيتها الفاسقة، إن الرب قادر على أن يهلك كل شيء ويقتلنا جميعًا ويستبدلنا بقومٍ آخرين يعبدونه ليل نهار، ولكنه زرع الخير داخل ابن آدم وأعطاهم حريه الاختيار بين الخير والشر، خلق آدم وعلمه ما علمه وفضله على الملائكة، بل وأمرهم بالسجود له وجعله خليفة في الأرض، ثم يؤخرنا جميعًا إلى يوم يحاسب فيه الجميع على أعمالهم بما فيهم سيدكِ الذي يعطيه الله الفرصة

كاملة للغواية حتى لا يكون له حجة عندما يخلد في النار مع أتباعه من أمثالكِ.

أخرج من رداءه الخنجر الفضي، فانعكس ضوء الشموع على نصله الحاد وهجم عليها وهو يسدد إلى صدرها طعنة نجلاء.

في اللحظة نفسها دخلت خادمتها وهي تصرخ ووقفت بينه وبيت «جيزابيل»، فاخترق الخنجر صدرها وتناثرت الدماء من فمها وسقطت جثةً هامدة. صرخت «جيزابيل» تنادي حراسها وهي تتراجع نحو نافذة البرج، فقال لها:

- اصرخي قدر ما تصرخين، فلن يأتي أحد لإنقاذكِ، إنهم يمقتونكِ على ما تفعلين بأبنائهم وكثير منهم صالحون، وقد كان غباءً منكِ أن تتخذي من بني إسرائيل حراسًا.

أكملت تراجعها وهي تتمتم بكلماتٍ لم يفهم منها شيئًا، فارتفع عمود من الدخان الأسود واندفع فدخل من فمها في سرعة، فانتفض جسدها كأن مر فيه آلاف الفولتات، وبرقت عيناها باللون الأحمر وكشرت عن أنيابها. ارتجف «شمعون» مما رأى وتردد، ولكنه تذكر أن قوة الإيمان في قلبه والعمل المقدس الذي يفعله هو كفيل بدفع كل القوة في عروقه، أحكم قبضته على الخنجر واندفع نحوها فأمسكت يده بقوةٍ ليست إنسية بل شيطانية وهي تضحك بجزل، ودفعته بقوة فارتطم بالحائط وأحسَّ بطعم الدم الصدئ في فمه وعظامه تئن من عنف الصدمة.

تحامل على نفسه واندفع بجسده نحوها واحتضنها واخترق بها النافذة ليسقطا سويًا من أعلى البرج، اقتربت الأرض في سرعة وهي تقاومه، ولكنه تشبث بها كما يتشبث الغريق بقطعة من الخشب في وسط الأمواج وارتطم جسدهما بالأرض في قوة، وانغرس الخنجر في صدرها يمزق قلبها المحمي بين ضلوعها فأصدرت صوت خوار عالٍ وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة وتختلط دماؤها بدماء قاتلها الذي علت على وجهه ابتسامة وروحه تفارق جسده لاعنة روحها

التي ستخلد في أعماق الجحيم.

***

أمسك «بنيامين» بيد طفل في العاشرة من عمره تبدو علامات الذكاء على وجهه وسار به في الطرقات حتى وصل إلى بيته، دخل وخلع قلنسوته وأجلس الفتى على مقعد بجواره ووضع أمامه أوراقًا ومجموعه مختلفة من ريش الكتابة ودواة من الحبر وقال:

- فلنبدأ، كان «شمعون» بطلًا، حرر بني إسرائيل من الشر وأنقذهم من الضلال فكُتب من القديسين، هذا الإثم كاد ينزع عنهم صفة شعب الله المختار على الأقل الآن، فبني إسرائيل إذا لم يضلهم أحد سيضلون أنفسهم وهم لا يعلمون أن ذنوبهم ستبحث عنهم، وعندما تجدهم لن يستطيعوا الهرب منها.

نظر «حاييم» إلى الرجل وقال:

- لماذا تقول ذلك عنهم يا عماه؟

- التاريخ يا ولدي، التاريخ يعيد نفسه والإنسان ينسى، ينسى من سبقوه وكيف أصابهم عذاب الله بذنوبهم، وسيأتي اليوم الذي نقف فيه بين يديه ويتساقط لحم وجوهنا من الخجل عندما نعلم أن وعده كان الحق وأن اتباعنا للشيطان كان طريقنا للضلال والضياع في غياهب الدنيا وظلام الشهوات الزائلة، اكتب يا ولدي العنوان علّ من يأتي بعدنا ويقرأها يعلم.

- ماذا سنسميها يا عماه؟

- سنسميها «قصة شهيد.»

إنجلترا 2010

مر عامٌ كامل منذ حاولت الثأر لابنتي من قاتلها الذي انتهك براءتها ولم يشفِ غليلي سوى علمي أنه احترق في سجنه فجأة ولم يتبقَ منه سوى كومة من الرماد، تمنيت أن أراه يحترق ويصرخ من الألم حتى تبرد النار التي بداخلي، ومع موته رأف القاضي بحالي ولم يحكم عليَّ بالسجن جزاء ما اقترفته، خاصةً أن « بلايك» نفسه قد تنازل عن حقه المدني في التقاضي فلم يجد القاضي سببًا لإضافة عذاب ومشقة السجن لما أشعر به من قهر وما شعرت به من فقد وحزن السنوات الماضية.

عام كامل لم أقص ما حدث بيني وبين هذا المأفون من حوار عن إلهه ومعبوده هذا «المولوخ»، ورغم أني كنت حتى وقت قريب مقتنعة بكذبه وأن كل ما قاله لي إنما هو من صنع عقله المريض، ولكن لم يتوقف هذا الكيان النجس عن زيارتي في أحلامي ينتزع النوم من عيني ويبقيني يقظة أتجرع مرارة الفقد وإجهاد السهر، الرائحة الكريهة ظلت عالقة بأنفي وكأنها استوطنت خياشيمي وظلت باقية تذكرني به.

قررت أن أتحدث مع الأب «مايكل» راعي الكنيسة، فأصارحه بما يجول في صدري لعلي أجد عنده إجابة لكل هذا، انتظرت بعد قداس الأحد وذهبت إلى غرفته، وبعد تردد دققت على الباب دقات متتابعة فسمعت صوته الهادئ يدعوني إلى الدخول، دخلت إلى الغرفة وأنا أدفع قدمي دفعًا، ولكن نظراته المرحبة المندهشة قضت على ما بقي من ترددي، وخاصةً عندما قام من خلف مكتبه الصغير فاستقبلني وأجلسني على المقعد المقابل وهو يردد عبارات الترحيب:

- أهلًا يا «مارجريت»، لقد سعدت بلقائكِ، ماذا تشربين؟

ابتسمت وشكرته ومرت لحظة صمت طويلة قطعها قائلًا:

- أنا سعيد برجوعكِ إلى الكنيسة وانتظامكِ في جلسات دراسة الإنجيل، ولكن

تبدين متعبة ويوجد ما يشغل بالكِ يا ابنتي!

- أنا بصحة جيدة يا أبتي، أشكر الرب على كل شيء ولكن هناك ما يطبق على صدري ويجعلني دائمًا أتساءل، وقد جئتك اليوم لعلي أجد عندك ما يريح صدري.

نظر إليّ في اهتمام وقال:

- تحدثي يا ابنتي، كلي آذان صاغية..

أطلقت من صدري تنهيدة خرج معها جزء كبير من توتري وقلت:

- أنت تعرف أني هاجمت «بلايك» قاتل ابنتي في قوة لم أعهدها من قبل وخمشت عينه وقضمت طرف أنفه بأسناني، حتى أني حتى الآن لا زلت أشعر بطعم الدم في فمي.

ظهر على وجهه الامتغاض فسكت ولكنه أشار لي أن أستمر.

- ليس هذا هو المهم، المهم ما قال لي ولم أستطع تفسيره وبحثت كثيرًا فلم أجد سوى معلومات قليلة متناثرة، لقد تحدث عن إلهٍ يعبده يقال له «مولوخ» ملك العار مفترس الأبناء رجس بني عمون، لا أدري ما معنى كل ذلك.

اعتدل الأب «مايكل» في جلسته وظهر عليه التركيز فأردفت:

- قال أنه إلهه الذي يعبده وهو من أمره أن يفعل كل ما فعله من جرائم ومن يوم أن احترق في سجنه وهذا «المولوخ» يزورني في أحلامي وكأنه يعاقبني.

أغلق القسيس عينيه وأخذ يفكر ثم قام إلى مكتبته القديمة فأخرج كتابًا قديمًا مهترئًا، وأخذ يقلب صفحاته حتى توقف عند صورة، فأدار الكتاب نحوي وهو يشير إليها. نظرت إلى الصورة فرأيت إنسانًا برأس ثور، إنه هو مَن يزورني في أحلامي، نظرت نحوه في تساؤل فقال:

- هذا هو «مولوخ»، كان معبود الكنعانيين وعندما حاربهم بني إسرائيل

وانتصروا عليهم قاموا بتدمير تماثيله وهدم معابده وتوقف الناس عن عبادته حتى أن الرب في التوراة أو العهد القديم منع الناس من التجارة والزواج مع من يستمر بعبادته أو مثله من الآلهة، في كتاب الملوك ذكر هذا الإله في أكثر من مكان، ثم عبدوه الفينيقيون بعد ذلك ولكن تحت مسمى آخر في وقت النبي «إلياس» عندما تزوجت «جيزابيل» ابنة « أثيوبال» من الملك «إهاب» ابن الملك «عمري» ملك إسرائيل، وكان الزواج سياسيًا بغرض حماية الدولة الوليدة من مخاطر الدول المحيطة وخاصةً أن اقتصادها كان قائمًا على التجارة، كانت «جيزابيل» تعبد إلهًا يسمى «بعل» وهو المرادف «لمولوخ»، ولهذا قد لقي استحسانًا مع من تبقى من الكنعانيين، يوجد تفاصيل كثيرة عن الحروب والصراعات بينها وبين النبي «إلياس» والتي انتهت بموتها والتخلص منها بإلقائها من نافذة قصرها على يد أحد أتباع «إلياس» ويقال أيضًا أن من قتلها هو ابن زوجها «أهاب» نفسه بعد عدة سنوات من موت الملك.

هززت رأسي قائلة:

- نعم، أعرف بعض ما قلت، ولكن ما يحيرني هو عودة عبادة «مولوخ» بعد كل تلك السنين!

هز رأسه وقلب في الكتاب الذي أمامه وقال:

- يقول الكتاب أن النبي «سليمان» قد عصى أمر الرب وتزوج امرأة من الفينيقيين ونجحت هي في إغوائه، فعبد معها «مولوخ» وأقام له معابد في أقطار الأرض، ولكن لا توجد تفاصيل كثيرة في هذا الموضوع، الحق يقال هو موضوع محير جدًا.

خلع عوينات القراءة وقال:

- لقد كنت في تجمع كنسي منذ سنوات في الفاتيكان وقد قابلت أحد الأساقفة الأب «إيمانويل» وكنت أعرفه من قبل فقد عملت بضع سنوات في إيطاليا في

بداية حياتي وتقربت منه وتحدثنا سويًا عن هذا الموضوع بالتحديد، وأتذكر أنه قال لي أن النبي «سليمان» لم يعبد هذا «المولوخ»، بل بالعكس لقد حارب أتباعه ونفاهم، ولكن حدث خطأ عند ترجمة النص من العبرية القديمة، أظن أنه سيكون عنده معلومات أكثر عن هذا الموضوع.

لمعت عيني وقلت:

- إذن قضي الأمر، يجب أن أقابل الأب «إيمانويل».

قال:

- ما الفائدة يا ابنتي، لقد مات «بلايك» في سجنه!

- نعم مات في سجنه ولكنه وإلهه المأفون يعيشون في تلافيف عقلي، يجب أن أعرف كيف أطرده من حياتي، ولقد كنت أريد أن أزور إيطاليا منذ زمن، ربما حانت الفرصة أخيرًا.

- إذن، فسوف أدعو لكِ الرب أن تجدي راحتكِ في لقائكِ مع الأب «إيمانويل» وهو راعي دير «البيندكتين» في «سان نيكولو لارينا» الموجودة في «كاتانيا» جنوب «إيطاليا»، وأتمنى أن تنجحي في مسعاكِ رغم أني أعرف أن لا جدوى من ذلك.

- أعلم أنه من المفترض أن يرتاح قلبي مع موت «بلايك» ولكن لا أظن أن هذا يكفي، فمن الواضح أنه يوجد مئات غيره من أتباع هذا الإله الوهمي، ويجب أن يوقف أحد الشر والحقد الذي ظهر على الأرض وتسبب في الألم لعدد كبير من الآباء والأمهات ممن فقدوا أولادهم وأحبابهم، ولن يهدأ لي بال حتى أصل لمصدر الشر فأنتزعه من جذوره.

- يا ابنتي، طالما الشيطان موجود سيظل الشر موجودًا، فوجوده له حكمة لا يعلمها إلا الرب، وبدون الشر لا توجد ذنوب ولا توجد توبة وتصبح الحياة هباءً

فنعيش فيها كما الأنعام.

ابتسمت وقلت:

- هذا نوع مختلف من الشر وطالما كان موجودًا فأنا أثق أنني سأجد محاربين لهم نفس الهدف على الطريق، وأنا لست بقديسة ولن أحارب الشيطان وحدي بالطبع، ولكن إذا لم يفعل الصالحون شيئًا في وجه الشر والظلم فلن تقوم للحق قائمة وصمتنا سيعاقبنا عليه الرب، سأذهب إلى إيطاليا لأقابل القس «إيمانويل»، وسأرى أين ستأخذني هذه الرحلة.

***

قمت ببيع ما تبقى من ميراث أبي الذي تركه لي وكل ما أملك، وحملت نفسي وقررت أن أكرِّس حياتي للبحث في هذا الأمر وحرب هذا الملعون وأتباعه، ومنذ وصولي إلى مطار روما وأنا أحس بنشوة واستمتاع وأحسست أن قراري هو أصح قرار أخذته في حياتي، ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، فعندما وصلت الدير في جنوب إيطاليا وبعد رحلة طويله كان الأب «إيمانويل» في خلوة ولا أحد يدري إلى متى ستستمر، فجلست أنتظر والشيطان يتلاعب بي ويهمس في أذني ويقول: «لقد تمنيتِ أن تزوري إيطاليا منذ زمن طويل، لماذا المعاناة؟ لتستخدمي الأموال في التمتع بأوروبا وتحقيق حلم حياتكِ، أو أذهبي إلى أمريكا أو آسيا، لقد انتقمتِ لموت ابنتكِ لا داعي للاستمرار».

كنت أقاوم الشيطان بقوة في نفسي وفي أحلامي التي يعصف بها «مولوخ» وأعوانه، رأيت في الحلم امرأة صارخة الجمال تبرق عيناها بلونٍ أحمر وتنظر لي بكرهٍ وفي يدها سلسلة من الحديد تنتهي بطوق يلتف حول رقبة ابنتي الصغيرة «ماري»، شهرين كاملين من المعاناة المستمرة، لم يهنأ لي جفن ولم تغمض لي عين والكوابيس تؤرق مضجعي حتى وأنا داخل الدير الذي سمحت لي الأم الكبرى بالمبيت فيه في انتظار انتهاء خلوة القس «إيمانويل».

قررت في ليلة الرحيل وعزمت أن أحمل حقائبي وأعود مع أول ضوء من أنوار الصباح، والعجيب عندما قررت ذلك نمت نومًا عميقًا وحلمت بامرأة سمراء البشرة تبدو كملكة من ملوك الفراعنة، وتحمل سيفًا فضيًا يلمع بقوة ولكن ضوءه لطيف لا يؤذي العين، مدت لي يدها وحملتنا نسمة من الريح سويًا فوق صحراء وجبال حتى وصلنا إلى باب كبير من الحجر عليه نقوش، وضعت يدها على الباب وأخذت تردد كلمات بصوت رخيم كأنها تغني فاهتز الباب وانفتح في صوت عالٍ، أشارت إليّ أن أدخل معها فدخلت، المكان مظلم، أشعر بأشياء تتحرك حولي ولا أدري ما هي، التمع السيف بضوئه الفضي الهادئ، فأضاء المكان مع ابتسامتها اللطيفة وظهرت المرأة الجميلة فجأة وهي تضحك بشراسة، ودار بينهما صراع بالسيوف رغم عنفه ولكني كنت أترقب في استمتاع، تفادت الملكة الفرعونية ضربة قوية أصابت الأرض الحجرية فتطاير الشرر، انحنت في رشاقة واندفعت يدها التي تحمل السيف الفضي فانغرس في قلب المرأة الجميلة، فتأوهت في ألم وخبأ نور عينيها الأحمر وسقطت السلسلة من يدها فارتطمت بالأرض في صوتٍ عالٍ وتحطمت إلى مئات القطع التي تطايرت في كل مكان، ثم

جاءت «ماري» بوجهها الجميل تمشي بهدوء نحوي وترتمي بين ذراعي، تساقطت دموعي بغزارة وانتفضت من نومي على دقات بابي، والأم الكبرى تخبرني أن الأب «إيمانويل» انتهى من خلوته وأنه في انتظاري.

***

إلى غرفة صغيرة حملتني قدماي، الغرفة يضيئها مجموعة من الشموع موزعة بعناية في أرجائها، في منتصف الغرفة خلف مكتب من الخشب القديم يجلس رجل أبيض الوجه، خفيف الشعر أبيضه، حول رأس صغير يحمل أذنين كبيرتين وأنف طويل معقوف وابتسامة تدعوني إلى الدخول، يرتدي رداءً أبيض ويتدلى من عنقه صليب من الخشب المزخرف بالأحجار الكريمة، أشار إليّ بالجلوس في المقعد أمامه ونظر منتظرا أن أبدأ في الكلام، وفعلًا بدأت.

حكيت له كل شيء، القصة كلها بتفاصيلها، حكيت له مشاعري من خلال دموعي وضحكاتي وملامح وجهه تتغير مع تغير الأحداث من الحزن والغضب والشفقة، وانتهيت من قصتي بالحلم الذي حلمته بالأمس فقام من وراء مكتبه وربّت على كتفي في حنان ثم اتجه إلى باب الغرفة وفتحه وطلب من الشماس شيئًا بالإيطالية، عرفت بعدها أنه مشروب ساخن، تركني أرشف في هدوء فتبعث كل رشفة من المشروب الساخن الدفء في عروقي وذهب هو إلى مكتبة ضخمة في ركن الغرفة، فأحضر عدة كتب ولفافة من الجلد وحملها إلى المكتب ثم بدأ الكلام بلغة إنجليزية ركيكة:

- إذن، زارتكِ صديقتي الملكة الفرعونية؟

نظرت إليه في تعجب فقال:

- لا تتعجبي، فكل من يحارب الشيطان يربطه بالآخرين رباط روحي يمتد عبر الأجيال والمسافات، لقد زارتني صديقتنا عدة مرات وأظن زرناها نحن أيضًا وهذا يدل على أن الشيطان يرتعد خوفًا وقد استعد للحرب الكبيرة وليست الأخيرة، فالحرب مستمرة حتى يوم الميعاد، واضح أنه قد تم اختياركِ من الرب لتكوني من جنوده في هذه المعركة الأزلية.

فتح كتابًا من الكتب التي أمامه وقال:

- كل ما قاله لك الأب «مايكل» حقيقي ومذكور في العهد القديم أو إنجيل اليهود كما يسميه البعض، ولكن دعيني أخبركِ أن النبي «سليمان» لم يكفر بالرب ولم يعبد إله الفينيقيين، إن هذا محض افتراء ولأنها قصه قديمة ولا تؤثر في العقيدة فلم يهتم أحد بتصحيحها، الحقيقة هي أن «سليمان» قد تزوج من سبعمائة زوجة وكان له ثلاثمائة جارية كما ثبت في كتب كثيرة منها كتاب المسلمين المسمى بالقرآن الذي درسته بعناية مع التوراة والإنجيل، والأصح أن «سليمان» قام بحبس المارد «مولوخ» في معبد أقامه في الصحراء جنوب

الجزائر في منطقة جبلية والتي شكليًا تتبع مملكة «الطوارق».

أشرت إليه بالتوقف وقلت:

- عذرا سيدي، سليمان ومعبد ومارد وطوارق، هذا كثير وصعب الفهم!

هز رأسه في تفهم وقال:

- ما أريدكِ أن تعرفيه الآن وسوف أعطيكِ بعض الكتب لتعينك على الفهم لاحقًا، أن «مولوخ» ليس إلهًا، بل هو مارد أو شيطان من نسل «إبليس»، شرير وشديد الشر، وقد نجح أكثر من مرة أن يغوي بني البشر وجعلهم يعبدونه وكان لا بد أن يتصدى له أحد الأنبياء ذوي القوة والسلطة، قام «سليمان» بمحاربته وحبسه في معبد في منطقة يقال لها « آدرار إيفوجاس» وهي سلسلة جبال على الحدود بين «مالي» والجزائر»، ومكان المعبد مجهول ولا يعرف أحد أمره أو طريقة الوصول إليه سوى شعب «الطوارق» الذين يعيشون في الصحراء، وهم مسلمون ولهم دولة ولكن لم يعترف العالم بهم.

ثم حمل اللفافة من أمامه وفتحها في بطء ليكشف بداخلها عن نصل من خنجر رغم قِدَمه ما زال يلمع في ضوء الشموع، في الوقت نفسه اندفع هواءٌ ساخن في المكان رغم أن الغرفة مغلقة وليس لها نوافذ، ارتجف قلبي وشهقت ولكن ابتسامته الهادئة طمأنتني وخاصةً عندما قال:

- إننا نتعامل مع كيان شيطاني قوي جدًا يا ابنتي وعندما تكونين في عمري ستتوقف هذه الأشياء عن إدهاشكِ أو إثارة الخوف داخلكِ، وما حدث الآن يدل على غباء شديد من الشيطان لأنه بفعله الطفولي هذا أخبرنا أن هذا النصل له قوة كبيرة ودور في المعركة المنتظرة.

أمسكت النصل ومررت أصابعي على التقوس والحروف والكلمات عليه وتساءلت:

- ما هذا النصل وكيف حصلت عليه؟

- منذ سنوات، أرسل الفاتيكان بعثة تبشيرية بقيادة القس «جوناثان» إلى «مالي» واستقرت في إحدى المدن القريبة من العاصمة، وقام «جوناثان» ببناء كنيسة هناك ودار للأيتام ملحقًا بها، ولأنه يحب الترحال فقد سافر في أنحاء البلاد وعثر على هذا النصل في واحدة من رحلاته ويبدو أن النصل يحمل أهمية كبيرة، ربما هو النصل التي قتلت به «جيزابيل» وربما له معنى آخر وقد أرسله لي لأقوم بدراسته وقد حان الوقت لإرساله لصاحبه، لطالما أردت أن أسافر إلى «مالي» للمشاركة في هذه المغامرة ولكن السن لا يسعفني ربما إذا كنت أصغر وأكثر صحة. نظرت إليه في امتنان وقلت:

- سوف أحمله بنفسي إلى صاحبه، فرحلتي لم تنتهِ بعد وأشكرك على المعلومات، وسوف أرسل لك دائمًا بخطابات أتمنى أن تحمل لك أخبارًا جيدة.

مد يده لي باللفافة التي تحتوي على النصل وقال:

- سأنتظر خطاباتكِ وربما تقابلين ملكتنا الفرعونية في الطريق.

شددت على يده وحملت نفسي وحقائبي للمطار لأعبر البحر المتوسط في الطريق إلى «مالي».

كفر الحمام 2000

غرفة «مدبولي» الساحر كريهة الرائحة، على الأرض دائرة رسم بداخلها نجمة سداسية على أطرافها شموع سوداء اللون صنعت من بقايا دهونٍ بشرية، حول كل شمعة أسنان بشرية على شكل دائرة وفي وسط النجمة السداسية جمجمة طفل صغير بيضاء اللون، الغرفة مليئة بروث الحيوانات وبقايا عضوية تبدو أنها للساحر نفسه، صوت صراخ طفل رضيع لم يتخطَ عامه الأول يحمله الساحر وبهدوء وثبات يمرر سكين على رقبته فيسيل الدم غزيرًا ويتوقف الطفل عن البكاء، تشرب الأرض الدم في نهم وتغرق الجمجمة البيضاء فتتحول مع كل قطرة دم إلى لونٍ أحمر قانٍ.

يبدأ الساحر في سلخ الجلد عن اللحم وتغطية الجلد بالملح ثم يخرج من جيبه مسبحة بحبات خضراء فيفرط عقدها وهو يبتسم في شراسة، يضع نصف الحبات مع ما تبقى من جثمان الطفل في وعاء من الحجر ويبدأ في التمتمة بلغة غير مفهومة، فتشتعل النار وتأكل البقايا فتذيب اللحم عن العظم وتذوب معها الحبات الخضراء تاركة سائلًا كريه الرائحة تسبح فيه قطع صغيره من العظام، يحمل الساحر الوعاء الحجري فيفرغ السائل في الجمجمة الموضوعة في المنتصف ثم يأتي بالجلد الجاف فيبدأ بالكتابة عليه في صبر ويرسم عليه بحبر أحمر.

يرسم مربعًا كبيرًا ويزين أضلعه بكلمات وحروف ورموز ثم يرسم دائرة داخلها دوائر أصغر ويقسم المسافات بين الدوائر إلى أقسام في كل قسم يكتب حرفًا ورقمًا بالتتابع وعلى أطراف الدوائر يرسم مثلثات في كل مثلث رمز مختلف، تارة نجمةً سداسية وتارة حرفًا باللغة العبرية أو رقمًا مكتوبًا بالرومانية، وعندما انتهى من الرسم وضع الجمجمة وما تبقى من حبات السبحة الخضراء في منتصف اللفافة وربطها بقوة، ثم حمل اللفافة وخرج من بيته مستترًا بالظلام ومتجهًا إلى مقابر القرية. في ظلمة الليل وقد نام الناس ولم يبقَ غير شرارهم،

حتى القمر نفسه قد أبى أن يخرج ليبدد الظلام الدامس الذي لم يكن في مثل سواد قلب «مدبولي»، فالقمر من عبيد الله والساحر يعبد الشيطان.

أصوات الكلاب ودواب الليل تأتي إلى أذنه كفيلة بدب الرعب والخوف في قلب أي بشر، ولكنه لا يملك قلبًا وهو أدنى من البشر، يحتضن اللفافة بقوة ففيها انتقامه من «تغاني»، يصل إلى قبر يبدو أنه حديث، على مدخله شخصان ينتظران، ينحني وينزل إلى القبر متجاهلًا الرجلين فلا يلتفت أو يتحدث معهما، يجد جثمانًا جديدًا ملفوفًا بكفن أبيض، يرفع الجثمان ويضعه جانبًا ثم يحفر حفرة عميقة في منتصف القبر، يضع اللفافة في حرص ويهيل عليها التراب وهو يردد كلمات مبهمة والعرق يسيل على جبينه ثم يضع الجثمان على الحفرة المردومة، الميت الغافل عما يفعل بقبره، يصعد درجات المقبرة ويخرج رزمتين من النقود فيعطيها للرجلين ويأمرهما بإغلاق المقبرة، ثم يعود أدراجه وهو يبتسم ابتسامة ليست آدمية بالمرة.

***

خمسة عشر يومًا مرت على البيت في حزن وجدتي تتألم، محمومة ترتفع درجة حرارتها فترتجف وتهذي ثم تنخفض ولكنها لا تفيق، لا يملك أحدٌ أن يفعل لها شيئًا، يجلس أبي بجوارها يقرأ لها القرآن ويضع على وجهها ورأسها قطعًا من القماش المبلل بالماء الفاتر، على المنضدة بجوارها علب دواء كثيرة لا تنفع ولا تفيد، حتى الأصوات التي كنت أسمعها من غرفتها توقفت عن الإنشاد، صوت الدفوف ورائحة البخور استبدلت بالتأوهات ورائحة الدواء، انقلب حالنا جميعًا، أمي تبكي في صمت ويختلط دمعها بدمعي وأنا أجلس بجوار جدتي أمسك بيدها البيضاء وأتكلم معها وأدعو الله أن تسمعني وتفيق دون جدوى.

في بعض الأحيان، أدخل عليها الغرفة فتفتح عينها الطيبة التي فقدت بريقها وتمسك بيدي وتضغط عليها مطمئنة وتحاول أن تقول شيئًا فلا أدري ماذا تقول مع جفاف حلقها ووهن صوتها، أصعب شيء في الوجود أن ترى من تحبه يتألم

ولا تستطيع أن تفعل شيئًا، حتى الأطباء الذين أحضرهم أبي لا يعرفون مرضها وتنتهي الزيارة بمزيد من الدواء والتكهنات التي لا تفيد.

لجأت إلى حجرتي وبكيت خوفًا أن أفقدها، وكنت قد زهدت الطعام فلا آكل سوى لقيمات تقمن صلبي، كيف آكل وأشرب وحبيبتي بالكاد تأكل وتشرب رشفات من الماء المخلوط بالعسل! تحدثت إلى الله بلساني الصغير وطلبت منه العون، سألته كما أسأل أبي أن يشفيها وأن يفرح قلبي الصغير بسماع صوتها مرة أخرى، ظللت أدعو حتى غفوت.

غزت الأحلام عقلي المجهد، أحلام كثيرة غير مفهومة، قيء من الأحلام العقلية وكأن عقلي يزيح أضغاث الأحلام ليفسح مكانًا لرسالةٍ من عالم آخر، هدأت نفسي وانتظمت أنفاسي ورأيت جدتي تقف في غرفة خضراء الجدران، ترتدي ثوبًا أبيض، حافية القدمين في بركة من الماء الأسود كريه الرائحة، إنها تحاول أن تتكلم، ولكن شفتيها قد خيطتا معًا بخيط أسود، يديها مكبلتان تحاول أن تنزع الحبال الملتفة حولها كالثعابين، أجري نحوها لأحاول أن أساعدها ولكن لا أستطيع الحركة، تشير بعينيهَا إلى شيء بجوارها، تظهر فجأة المنضدة الصغيرة التي تجاور فراشها، مهلًا أستطيع أن أجري نحو المنضدة بسهولة، أفتح بابها فتندفع صور كثيرة في وجهي وتستقر على الأرض المبللة، أدقق في الصور قبل أن تغرق في الماء فلا أستطيع أن أرى بوضوح من في هذه الصور، تمتد يد سوداء من الماء فتقبض على وسط جدتي وتسحبها إلى الأسفل فأصرخ باسمها مرارًا وأستيقظ من نومي والعرق البارد ينهمر على جبيني ويغرق وسادتي، أجري نحو غرفة جدتي وأنا ألهث، أدخل الغرفة فينظر لي أبي في دهشة وأنا أتجه نحو المنضدة المجاورة للفراش فأفتحها وأمسك صورة في يدي وأنظر لأبي وأبتسم قائلة: عم «سلامة».

***

القلق يغزو خلايا جسدي والأفكار السوداء تصير غمامة على رأسي تنذر

بالمطر، قمت من فراشي أجر قدمي في عتمة الليل فأتوضأ وأصلي، أخرجت مسبحتي الخضراء وأخذت أستغفر الله وأقول بصوت خافت: «يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف».

صوت جرس الهاتف يمزق عذرية الصمت وسكون الليل، ورأيت اسم «صابر» يظهر على الشاشة المضيئة، ارتجف قلبي وأنا أسمع صوته الحزين وعصفت بي الظنون، حكى لي ما حدث لأختي «تغاني» وكيف عجز الأطباء عن علاجها، عاتبته لأنه انتظر خمسه عشر يومًا كاملين ليخبرني بكل ذلك، ثم هونت عليه، فالعتاب في ظل هذه الظروف لا يفيد، ولكن ما يحتاجه هو الدعم النفسي والمعنوي، أخبرته أني سأشد الرحال إليه فورًا وسأكون عنده مع أذان الظهر.

دخلت إلى غرفتي فأخذت حقيبتي الصفراء ووضعت بداخلها مجموعة من الأعشاب والحبة السوداء وقارورة من العسل الجبلي النقي وبعض من ماء زمزم في زجاجة صغيرة وأضفت إلى محتويات الحقيبة بعض البخور وانطلقت في ظلمة الليل قاصدًا بيت أختي بالرضاعة التي ربتها أمي وأرضعتنا سويًا في منزل أبيها، بعد رحلة طويلة مجهدة استغرقت ساعات الليل قضيتها في الدعاء، وصلت في الصباح واتجهت إلى البيت وعندما وصلت شعرت بقبضة باردة تعتصر قلبي، أحسست بالشر الذي سكن البيت وأنشب مخالبه في جوهره النظيف، فتح «صابر» الباب وقد احمرت عيناه من الدمع والسهر والسهد، ألقى بنفسه بين ذراعي وأحسست بدمعه يبلل جلبابي الأبيض، ربتُّ على ظهره مطمئنًا وحملت نفسي وحملته وهو يجر قدمه جرًا إلى غرفة الحبيبة أختي.

أواه يا أختاه! ماذا حدث لكِ، وكيف صرتِ؟

نائمة كالملاك على الفراش وقد ذبلت نضارتها وظهرت عظام وجنتيها بعد أن أكل الإجهاد والمرض ما حول العظام من لحم، انحدر دمعي وأنا أتمتم:

ما المال والأهلون إلا ودائع

ولا بد يومًا أن ترد الودائع

مسحت على وجهها وأنا أردد:

أهاج قذاء عيني الأذكار

هدوًا فالدموع لها انحدار

وصار الليل مشتملًا علينا

كأن الليل ليس له نهار

وضعت يدي على جبينها وبدأت أقرأ ما تيسر من القرآن، ثم ناديت على «رضا» وقلت:

- لنسمع سورة «البقرة» تتكرر على نحوٍ مستمر يا ولدي ولا تقلق، فقط أحضر لي مدق الهاون وإناء كبير مملوء بالماء.

هزَّ رأسه وخرج من الغرفة وأحضر ما طلبت، فأخرجت من حقيبتي سبع ورقات من السدر الأخضر ودققتها بالهاون ووضعتها في الماء وخلطتها بماء زمزم وقرأت عليها المعوذتين والصمد وآيات السحر من سورة يونس والإسراء وأخذت أردد «لا يفلح الساحر حيث أتى» بصوتٍ عالٍ وهي ترتجف من الحمى تحت يدي، وأخذت أسقيها من الماء ثلاث شربات، ثم ناديت على زوجة «صابر» فأخبرتها أن تحمم «تغاني» بما تبقى من الماء ولا تجففه وتلبسها ثوبًا جديدًا، وأخذت أكرر ذلك ثلاثة أيام، صوت القارئ العذب يشدو بسورة البقرة ورائحة البخور تملأ المكان. بعد مرور الأيام الثلاث، هدأت الحمى وبدأت تفيق، ابتسم «صابر» وهمَّ يشكرني ولكني استوقفته قائلًا:

- ليس بعد يا بني، ما فعلته الآن هو تهدئة للوضع، ولكن أمك قد سحرت بسحر أسود سفلي شديد، أظن أحدهم سرق شيئًا من أغراضها التي كانت قريبة منها دائمًا واستخدم هذا الأثر في فعل فعلته القذرة.

قالت الصغيرة «بشرى»:

- لقد بحثت عن مسبحة جدتي كثيرًا ولم أجدها، كنت أريدها أن تسبح وهي راقدة ولكني لم أجد لها في البيت أثر.

ربتُّ على رأسها في امتنان وقلت:

- أحسنتِ يا ابنتي، هذا هو، يجب أن نجد هذا السحر ونستعين بالله أن نبطله.

قال «صابر» في حده:

- كيف نجده يا عم «سلامة»؟ كأننا نبحث عن إبره في كومة قش!

- لا تقلق يا بني، سيوفقني الله بإذنه وقدرته فأجده وأبطله وليعلم من قام بهذا السحر أنه اقترف ذنبًا كبيرًا، وذنوبنا دائمًا تبحث عنا وعندما تجدنا لا نستطيع الهرب، والآن اتركني مع أمك وحدنا فلدينا عمل كثير ولن أستطيع أن أفعل شيئًا بدون مساعدتها، فهي أقدر مني وأعلم بهذا الأمور.

نظر إلى أمه بدهشه وقال في استنكار:

- أمي هذه؟ تعلم في أمور السحر، كيف؟

- هيا يا ابني، اخرج الآن!

قلت وأنا أدفعه برفقٍ إلى الخارج، أشارت «تغاني» إلى «بشرى» فنظرت إليها متسائلًا فقالت في إعياء:

- لقد حان الوقت.

- ولكنها ما زالت صغيرة!

- يجب أن تعرف، لقد عرفت في سنها ولا يوجد اختبار أقوى من هذا لنرى إذا كانت مستعدة أم لا.

- هذا مخالف للتعليمات يا أختاه، استلام العهد لا يكون في هذه السن الصغيرة!

- لن يكون هناك استلام للعهد، ولكن القوة التي بداخلها ستساعدنا على الوصول للسحر وبعون الله نبطله.

هززت رأسي في غير اقتناع ولكني رضخت للأمر، فأنا أعلم أن «تغاني» عندما تقرر شيئًا لا يستطيع كائن أيًا كان أن يحيدها عما قررت. أمسكت بيد الصغيرة وأجلستها على الأرض بيني وبين جدتها بعد أن ساعدتها على النهوض من الفراش، وشكلنا دائرة صغيرة بأيدينا وبدأت أنا و«تغاني» في التمتمة.

***

جلست بين جدتي وأخيها حائرة واجفة لا أدري ماذا يحدث، مترقبة ومضطربة، ما هو العهد وكيف يجدون السحر وأين؟ ما زال عقلي الصغير يحاول أن يستوعب ما يحدث ولكني أدركت إلى حدٍ ما أن لي دور مهم الآن ولاحقًا.

مع استطرادهم في الدعاء، أخذ صوت الدق على الدفوف يرتفع تدريجيًا مع رائحة البخور، نظرت حولي أحاول أن أرى من أين يأتي الصوت دون جدوى فهو يأتي من لا مكان وكل مكان، أما رفاقي في الدائرة فقد أغلقوا أعينهم وانتظمت أنفاسهم وقالت جدتي بصوت عميق:

«يا من أمره بين الكاف والنون

إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون

يا من سخر الجن لسليمان وألان الحديد لداوود

يا من أرسل محمدًا بالحق

سخر لنا ما ينصرنا على الشيطان وفعله».

ارتفع صوت الإنشاد شيئًا فشيئًا

صلى الله على محمد صلى الله عليه وسلم

صلى الله على طه خير الخلق وأحلاها

انتشرت رائحة البخور وتخللت أنفي وصدري واهتز جسدي مع الأصوات التي اشترك معها «سلامة» و«تغاني» في الإنشاد بصوت عالٍ يهز الأعماق: «يا لطيف الطف بنا.. يا لطيف يا لطيف».

أصبحت أتنفس بصعوبة وبدأ جسدي في الارتعاش حتى غبت عن الوعي.

صفحة بيضاء، هذا ما رأيت في نومي، مكان لا اتجاهات فيه، فقط ضوء أبيض حولي، بدأت في المشي إلى الأمام ولكن الحقيقة لا يوجد أمام أو خلف، ثم كما يحدث على شاشات التلفاز مرت أصوات وصور مكررة من أحداث سابقة وعصور مختلفة ورأيت رجالًا ونساءً يرتدون أزياء قديمة ويرقصون، وصوت أطفال يصرخون ورجل يرتدي لثامًا لونه أزرق نيلي ويمد لي يده، رأيت معبدًا قديمًا ورجلًا يرتدي السواد ويركع على سيف أسود أمام محراب، نظر نحوي بعينين حمراوين في غضب غير مبرر، امرأة بيضاء شعرها ذهبي تجري في خوف، ثم صمت تام.

شمس تشرق فجأة وطائر أسود اللون يحفر الأرض ويدفن طائر آخر، نعم أعرف هذه القصة، غراب قابيل يدفن سوءة أخيه. تغرب الشمس في سرعة ويعلو صوت لهاث، ألتفت فأرى كلبين أسودين بعيون حمراء يجريان نحوي في سرعة، أنحني فيقفزان من فوقي نحو الغراب، فيطير وهو يصدر صوت نعيق حاد، يبدآن في حفر الأرض بتسارع محموم ثم أسمع صوت فحيح، ومن الناحية الأخرى تزحف أفعى كبيرة نحو مكان الحفر وتبدأ في الالتفاف حول نفسها، ثم تنتفض فيخرج من جوفها شيء أسود يسقط داخل الحفرة.

أنظر تحت قدمي فأجد نصلًا من الفضة، أحمله في يدي فأرى عليه نقوشًا لا

أدري ما هي ولكن مع حملي للنصل تلتفت الأفعى لي وتصدر فحيحًا غاضبًا ثم لا شيء مرة ثانية.

الفراغ الغريب من حولي مرة ثانية، ولكن يوجد باب من الخشب أظن رأيته قبل ذلك، لا أدري أين، يفتح الباب فأجد رجلًا طويلًا أبيض الوجه لطيف الملامح يرتدي ثوبًا أخضر اللون وعلى رأسه عمامة سوداء اللون، نظر إليّ وابتسم ومد لي يده، أمسكت يده، كانت باردة كالثلج، فتح الباب ودخلنا سويًا، غرفة صغيرة في وسطها عمود من الخشب مربوط فيه رجل يبدو على ملامحه الإرهاق، نظر إليّ في رجاءٍ وأشار إلى الحائط الأيمن فوجدت عليه قطعة من الرخام عليها آية قرآنية «يا أيتها النفس المطمئنة». وبدأ في البكاء. نظرت إلى الرجل الطويل في حيرة فقال:

- لقد حان الوقت، عودي الآن..

سألته في حيرة:

- كيف سأعود؟ لا أعرف الطريق!

ابتسم في حنان ووضع يده على جبيني، فانتفض جسدي وفتحت عيني وأنا أشهق في قوة. نظرت حولي فرأيت وجه عم «سلامة» ينظر لي في قلق وبجواره وجه جدتي وهي تربت على وجهي وتنادي عليّ في حنان:

- ماذا حدث يا ابنتي؟ هل أنتِ بخير؟

نظرت نحوهم في دهشة وكأني أراهم للمرة الأولى وقلت:

- حفرة في الأرض، غراب، كلاب سوداء.

نظر نحوي «سلامة» وأخرج من حقيبته الصفراء دفترًا وقلمًا وقال:

- هوني عليكِ يا ابنتي، واحكي لي ما رأيتِ بالتفصيل.

حكيت له كل ما رأيته في الحلم أو الرؤية، أو هذا الذي مررت به بالتفصيل وكتب هو كل شيء، ثم أخذت كوبًا من الماء وتجرعته في سرعة وأنا أجلس في حِضن جدتي. جلس «سلامة» يفكر وينظر إلى الورقة في تركيز ثم لمعت عيناه وقال:

- مذهلة! لقد عرفت المكان!

نادى عليّ أبي ثم مال على أذنه وطلب منه شيئًا ونظر إلى جدتي وقال:

- يجب أن تنامي قليلًا، فهناك مهمه ثقيلة في انتظارنا في جنح الليل وأحتاجكِ معي.

***

عندما كتبت الكلمات التي خرجت من فم الصغيرة أدركت ما حدث، لقد رأيت ما حدث لها من قبل، يسميه الأطباء صرع في الفص الجبهي من المخ، يدخل المريض في حالة نشوة دينيه وترى فيها رؤى يصعب تفسيرها في كثير من الأحيان، ونصفها نحن بالدروشة أو الاتصال الروحي الفائق أو بوصف أدق «التجلي»، عندما يمنح الله لبعض عباده شفافية تؤهل روحهم إلى السمو إلى مناطق تؤهلهم لحل مشاكل معقدة أو تفسير أحداث غامضة، وهذا من فضل الله طبعًا يؤتيه من يشاء.

استطعت بما أوتيت من علم أن أربط بين رؤياها، فالحية ترمز إلى «مدبولي» الساحر رأس الشر والكلاب هم معاونوه من بني البشر، وباقي الحلم دلالة على أنه قد دفن العمل في مقبرة من المقابر الحديثة، طلبت من «صابر» أن يسأل عمَّن مات من أهل القرية منذ خمسة عشر يومًا بالضبط، فأخبرني أنه في هذا اليوم دفن ثلاثة أشخاص، رجلان وامرأة، قمت باستبعاد المرأة وأحد الرجلين لأنه دفن بالنهار، ولا تحمل مقبرته أي لوح رخامي، وبقي القبر الأخير.

كانت «تغاني» نائمة نومًا عميقًا، فقد كانت الحمى شديدة وما مرت به ليس

هينًا، ولكن كان يجب أن أوقظها، فهذا النوع من السحر يتطلب شخصًا في قوتها وشفافيتها، ثم أنها المختارة من «محاربي المعبد»، وهي الوحيدة التي تستطيع إيقاف الساحر والقضاء عليه. تحاملت على ذراعي وخرجنا مع «صابر» في اتجاه مقابر القرية، قابلنا اللحاد يحمل مصباحًا كبيرًا يعمل بالكيروسين عند مدخل المقابر فتحدث مع صابر ونقده بعض المال فأشار إلينا أن نتبعه، مشينا وراءه حتى وصلنا لمقبرة في الأطراف، تبدو كأنها أغلقت قريبًا، قال اللحاد:

- لقد مات الحاج «إسماعيل» ودفن منذ خمسة عشر يومًا، إذا فتحت المقبرة ستكون الرائحة كريهة وقد لا تتحملوها، هذه المقبرة بالتحديد يحدث حولها أشياء غريبه وقد ذهبت إلى الشيخ «الرفاعي» عدة مرات أسأله المشورة في الأصوات التي أسمعها والرائحة التي تتخلل الأرض فتملأ المكان والحيوانات الضالة النافقة حول المقبرة. قال «صابر»:

- لقد دفن أحد السحرة عملًا سفليًا في هذه المقبرة، نحن نعرف حرمة تدنيس مكان الدفن ولكن الضرورات تبيح المحظورات، وقد قال رسول الله «غفر لأمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»، ونحن أكرهنا على ذلك للأسف.

هز الرجل رأسه متفهمًا ثم قام بنزع الألواح الحجرية المرصوصة فوق المقبرة وهو يقول:

- لنبتعد قليلًا ونسمح للرائحة بالهروب حتى تصبح مقبولة ويستطيع أحدكم أن يدخل، أعتذر عن الدخول معه فأنا أخشى على نفسي من هذه الأمور.

هززت رأسي وقلت:

- لا تقلق، لن يدخل غيري ولن تضايقني الرائحة فأنا معتاد عليها، فهذا ليس أول ولا أخر قبر يستخدمه أتباع الشيطان في إلحاق الضرر بشخص غافل مسكين.

ظهرت الدرجات الحجرية مع رفع آخر لوح واندفعت الرائحة مع هواء ساخن

وصوت نواح عالٍ من داخل المقبرة، تراجع اللحاد في فزع وهو يبسمل ويحوقل وينظر إلى القبر في توتر دفعني لأطلب منه الذهاب وسوف نستدعيه عندما ننتهي من عملنا.

انطلق اللحاد وكأنه كان ينتظر هذه الكلمات ليولي الأدبار، نظرت إلى «تغاني» مطمئنًا ونزلت المقبرة وأنا أحمل المصباح، الجسد المتحلل تخرج منه ديدان سوداء وبيضاء اللون وأخرى خضراء، الكفن تغير لونه من الأبيض إلى الأسود وظهر وجه الميت وكأنه يصرخ من الألم، تقوس ظهره كأن هناك من غرس سكينًا فيه، دعوت له بالرحمة وأزحت الجثمان بهدوء وبدأت في الحفر تحت جثمان من كان يومًا يعرف بالحاج «إسماعيل» بعد أن تأكدت أن فمه خال، فبعض السحرة يدس السحر في فم الميت، تعجبت من سخونة التراب تحت يدي والهواء الساخن يدور حولي في رتابة ولا يقترب مني فقد كنت أردد «بِسْمِ اللهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اِسمِهِ شَيءٌ فِي الأَرضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيم». اصطدمت يدى بشيء صلب، حملت اللفافة الجلدية في يدي وخرجت مناديًا «صابر»:

- لقد وجدته، اذهب فأحضر اللحاد يغلق القبر مرة أخرى يا بني.

أعطيت اللفافة «لتغاني» فوضعتها على الأرض وفكت الرباط من حول الجلد المجفف وما إن فكته حتى بدأ في التحلل وسقطت حبات المسبحة الخضراء من داخله، أخرجت بعض الملح فرشته على المحتوى وبعض الكيروسين وأشعلت النار، ظلت النار تأكل البقايا حتى أتت عليها تمامًا وأنا وهي نقرأ ما تيسر من القرآن. تنفست «تغاني» الصعداء وكأن روحها ردت إليها وعاد بريق عينيها اللامع وقالت:

- الآن بعد أن أعلن اللعين الحرب عليّ صراحةً فقد حان الوقت للتخلص منه فورًا، لنذهب إلى بيت «مدبولي» لنرسله إلى سيده في الجحيم الذي خرج منه.

تحركنا صوب بيت الساحر على أطراف القرية، وعندما وصلنا اتجهت «تغاني»

إلى الباب فضربته بقدمها في قوة، فانفتح على مصراعيه، ها هو «مدبولي» يقف في وسط البيت تتحرك شفتاه بكلام غير مفهوم وتبرق عيناه ببريق أحمر وكأنه كان في انتظارنا، يتحرك حوله دخان أسود كثيف يبرق بداخله شرارات بيضاء كأنه البرق قبل المطر، وصرخ صرخة جعلتني أضع يدي على أذني وألقت «صابر» على الأرض، ولكن «تغاني» لم تهتز بل أخرجت من حزامها مقبض خنجر من الجلد بدون نصل ينتهي بقرص من المعدن لم أره من قبل، وأشارت به نحو الساحر فاندفع إلى الخلف في قوة ليرتطم بالحائط خلفه، ولكنه وقف سريعًا وهو ينظر نحوها بغضب، فقالت في صوت تردد في أرجاء المكان وتصدعت له الحوائط:

«إِنَّهُ مِن سُلَيمَانَ وَإِنَّهُ بِسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ»

«ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ»

«فَمَن يَستَمِعِ الآنَ يَجِد لَهُ شِهَابًا رَصَدًا»

«بِسمِ اللهِ الجَبَّار.. بِسمِ اللهِ القَهَّار»

انطلق من المقبض خيطٌ من النار عبر من داخل الكيان الدخاني الخبيث وأصاب الساحر في صدره وتبدد الدخان مع صوت صرخة متألمة، وبدأ جسد الساحر في الاحتراق وسقط على الأرض تخرج منه رائحة شواء كريهة وهو يستنجد بسيده ولا مجيب، وظل كذلك بعض الوقت حتى همدت حركته وجلست «تغاني» على الأرض تلتقط أنفاسها، فقد انتهت معركة ولا زالت الحرب مستمرة.

أفريقيا الوسطى

(ترينو) 2019

جلست على الأرض في إنهاك، التصق فستاني على جسدي من العرق الغزير المنهمر الذي امتزج بدمائي السائلة من بين فخذي، إحساس العطش والجوع أصبحا نوعًا من أنواع الترف مقارنةً بما أحس به من ألم بضلعي المكسور وقدماي المتورمتين المجروحتين، حلقي جاف كقطعة إسفنج، ومعدتي بدأت تهضم نفسها من نقص الطعام، أخذت ألهث ودموعي تتسابق مع دمائي وصوت بكائي المكتوم الممزوج بشعوري الشديد بالضياع يحيطان بي ويظلمان النهار الذي بدأ في الانسحاب ليحل محله ليلٌ قد يكون آخر ليل أقضيه في هذه الأحراش.

استلقيت على ظهري أحاول أن ألتقط ما تبقى من أنفاسي وأطرد رائحة الساحر القذرة من داخلي، أمسح عن جسدي آثار أصابعه وهي تلمس جسدي وتستحل براءة طفولتي، يتسلل إلى مخدعي كل مساء فيجردني من ملابسي ويلمسني في لهفة محمومة، وأنا أحاول أن أغطي عورتي بيدي وأحاول بيأس أن أدفع جسده الضخم المقزز بعيدًا، لم تنجح دموعي في استرحامه ولم تستعطفه أناتي وتوسلاتي، كل ليلة يستحل جسدي كأنه يملكني وأنا لا أملك اعتراضًا كأنه يملكني، رغم أني لم أكن أكثر من طفلة لا أملك أي مقومات لهذا العبث، ولكنه كان يطفئ شهوته ويسكب سوائله القذرة على جسدي ثم ينام ويعلو غطيطه وأنا بجواره ألملم بقاياي وأحاول أن أداري عريي وعاري، أقوم من جانبه فأذهب حيث الماء وأسكبه على نفسي، ولكنه لا يزيل رائحة نجسه، أفرك الحصى والرمال على صدري وبطني حتى تدميها وتلتهب وما زلت أشعر بثقله جاثمًا على روحي مثقلًا عليها.

أخذت أدعو أن يظل جسدي صغيرًا، جسد طفلة فلا أكبر أبدًا، ولكن جسدي «الوغد» أبى أن يبقى طفلًا وبدأت معالم الأنوثة تظهر عليه وكأنه «الخائن»،

يعطي للساحر الضوء الأخضر لينتقل من مرحله التحرش إلى مرحله الاغتصاب، لم أكن أقبل أن يقتحمني أو أحمل بذرته، كان لا بد أن أقاوم، أخفيت قطعة من الحديد الحادة تحت أحشية فراشي استعدادًا لزيارته الليلية، وعندما جاء يطلب جسدي أخذت أبحث عنها وهو يعبث بعذريتي، ومع نزول الدم الساخن من بين فخذي وجدتها وغرستها بقوة في عينه الجاحظة، فصرخ وابتعد في سرعة وعينه السليمة تبرق في ظلمه الكهف تحمل كره الدنيا، واندفع نحوي فنزلت على الأرض وعاجلته بطعنة أخرى في فخذه وقع على إثرها وأطلقت أنا العنان لقدمي وهو يلعنني بأشنع الألفاظ من بين صرخات الألم التي لم تشفِ غليلي.

ها أنا ذا أشعر أني ألفظ أنفاسي الأخيرة في هذا المكان المقفر، ولكن لا! لن أستسلم بعد كل هذا العناء! لم أقطع كل هذه الأميال لأموت هنا، يجب أن أكمل. قمت ببطء وكل ذرات جسدي تئن وتحاملت وأكملت السير، رأيت على البعد ضوءًا خافتًا، تبدو أنها كنيسة بجوارها بيت على بابه مصباح مضيء يدعوني إلى باب النجاة، ترنحت في مشيتي وبالكاد وصلت إلى الباب، «هيا يا «ترينو» بقي أن تدقي الباب»، استجمعت ما بقي من قواي ودققت الباب ففتح لي فتى في مثل عمري أو أكبر، لم أدرِ بنفسي وسقطت بين ذراعيه فاقدة الوعي.

***

عرفت بعد ذلك أني أخذت أصارع الموت سبعة أيام، بين اليقظة والثبات ألمح طيف امرأة بوجهٍ أبيض ملائكي حتى ظننت أني قد مت وهذه هي الجنة. أفقت فوجدت نفسي أرقد على فراش أبيض نظيف، أرتدي منامة قطنية بيضاء طيبة الرائحة في غرفة صغيرة جدرانها بيضاء اللون وعلى الحائط أمامي صورة لسيدة تنحني في رقة على طفلٍ صغير وتغطي رأسها بغطاء أزرق، وبجوار الفراش مائدة صغيرة عليها مفرش دائري ومزهرية تحتوي على زهرتين نضرتين وكتاب أسود أنيق، الرائحة الجميلة هي ما أثبت لي أني على قيد الحياة، وما إن تشبعت بها رئتاي انهمرت دموعي وأصبحت أبكي بصوت عالٍ، فلم أكن أظن أني

قادرة على أن أشم شيئًا بهذه النظافة والنضرة بعد سنوات قضيتها لا تدخل أنفي سوى رائحة الدم والعرق والعفن.

انفتح الباب ودخلت منه في لهفة سيدة بيضاء ترتدي فستانًا متواضعًا وتربط شعرها الذهبي بغطاء رأس أبيض عليه زهرات خضراء ومن خلفها ظهر وجه فتى تحمل ملامحه الانزعاج والقلق من صوت بكائي، جلست السيدة بجواري على الفراش واحتضنتني مطمئنة ولما ازددت في البكاء تركتني أفرغ ما بداخلي حتى هدأت.

حكيت لها ما مرَّ بي منذ ولادتي حتى هذه اللحظة، وهي تتفاعل معي وتطمئني وبجوارها يقف الفتى الذي عرفت أن اسمه «فوستين» يستمع للقصة وينفعل معي فيبكي ويضحك حتى توقفت عن الكلام في خجل، ربتت السيدة على كتف الولد وسألته أن ينتظر خارجًا وكان قد نما بداخلي نوع من الألفة والمودة تجاهه، لكن ليس بالقدر أن أحكي ما أخجل عن ممارسات الساحر الجنسية وتجاوزاته تجاهي، عادت فجلست بجواري وأكملت حكايتي بين دموعي التي سالت فامتزجت بدموعها أسفًا على ما حدث لي، كان هذا أول لقائي بالسيدة «مارجريت».

لم أقوَ على الحركة من الفراش مدة طويلة حتى تتعافى قدمي وضلوعي، وكان هو يأتيني كل صباح يحمل الوردتين فيضعهما بجوار الفراش مبتسمًا ابتسامة ساحرة، رقيقة آسرة، عينيه الحلوتين تنطقان بالكثير، تساءلت لماذا لا يتكلم معي، ربما هو الخجل، كنت أتمنى أن يتكلم معي، أن أسمع صوته، شيءٌ بداخلي يجذبني نحوه لا أدري ما هو، حتى جاء اليوم الذي دخل عليَّ كعادته يحمل الورود وقال:

- صباح الخير! هل تمانعين لو جلست بجانبكِ وتكلمنا قليلًا؟

احمرَّ وجهي وأطرقت في خجل، ثم هززت رأسي موافقة، فجلس على

الفراش وقلبي يهتز فرحًا، فصوته كان كالآلات الموسيقية التي اقتحمت صدري وعزفت على أوتار مشاعري وحركت داخلي الكثير والكثير. كان يجلس آخر الفراش ونتحدث سويًا في مواضيع شتى، حكى لي قصته ثم مد يده ليلمس يدي فأحسست أن برقًا أصابني وسرى بجسدي آلاف الفولتات وسحبت يدي بسرعة وخرجت من أعماقي صرخة، أردت أن يلمس يدي وألمس يده، قلبي أراد وجسدي رفض، أخذت أنتفض وظهر الذعر في عينيه وقلة الحيلة، لا يدري ماذا يفعل سوى كلمات الاعتذار التي اندفعت من فمه.

حاولت أن أخبره أنه ليس خطؤه، وأني راغبة في أن ألمسه وأحس بدفئه وحنانه، ولكني كلما فتحت فمي خرج منه صراخ. دخلت «مارجريت» الغرفة فأخذتني بين ذراعيها وأشارت له بالخروج وظلت تهدهدني كما تهز الأم طفلها الرضيع حتى نمت.

في اليوم التالي، انتظرته ولم يأتِ، وأحسست بيدٍ باردة تعتصر قلبي، تحاملت على نفسي وقمت من الفراش، البيت فارغ في هذه الساعة من الصباح، تتلمس قدمي الأرض، إحساس الأرض مختلف عندما لا تكون تجري هاربًا بعمرك وحياتك وشرفك. فتحت الباب ورأيته جالسًا بعيدًا يقرأ كتابًا، انحنيت فالتقطت وردتين وتهاديت نحوه في تردد وتوجس من ردة فعله، كان مستغرقًا في القراءة، ومع اقترابي دقت الطبول في صدري وأخذ يقفز هذا المعتوه محاولًا الخروج من صدري ليرتمي بين ذراعيه، والتفت وارتسمت على شفتيه أكثر الابتسامات دفئًا، ابتسامة داعية مرحبة، ابتسامة احتضنتني واحتوتني وربتت على ظهري ومسحت بعض الألم من داخلي، أعطيته الورود وقلت:

- حان الوقت أن أحمل لكَ الورود وأعتذر عما بدر مني بالأمس.

قال:

- هوني عليكِ، لقد أخطأتُ عندما حاولت أن أمسك يدك، لقد تسرعت وربما لم

تكوني مستعدة بعد، أعدكِ ألا أحاول مره أخرى.

ترقرقت الدموع في عيني وقلت:

- بل أريدك أن تحاول، وتأكد أنني أريد أن أشعر بلمسة يدك، أريدك أن تنتشلني من الأفكار السوداء والأحلام السوداء، فقط أعطني فرصةً لأبرأ.

قلت ذلك وانهرت في البكاء، المسكين لم يعلم ماذا يفعل وكيف يواسيني دون أن يلمسني، فكما أنا أريد أن أرتمي بين ذراعيه الآن فهو أيضًا يريد ذلك، أراها في عينيه ورجفة شفتيه وحرارة تنفسه ودموعه التي اختلطت بدموعي.

***

ستة أشهر مرت وأنا وهو لا نفترق، لم ينقطع عن إحضار الزهور لي كل صباح ولم أنقطع عن منحه نظرات الامتنان، وحكيت له كل شيء وتفهم ولم يحاول أن يلمسني حتى جاء اليوم الذي برأت فيه من جروح نفسي. خرجنا في الصباح الباكر لإحضار ماء من البئر لنملأ خزان الكنيسة والدار، نظرت إليه وقلت:

- ما رأيك أن نتسابق إلى البئر؟

- هل تظنين أنكِ أسرع مني؟

- أنا طبعًا أسرع منكِ، وأستطيع أن أسبقكِ إلى البئر، هل أنت مستعد؟

وقبل أن أسمع رده أطلقت لقدمي العنان وهو يصرخ خلفي:

- تغشين؟ ولكني سأسبقكِ..

تعالت ضحكاتي وأنا ألهث نحو البئر، ثم سمعت صوت سقوط وصرخة ألم، فتوقفت ونظرت خلفي، فإذا حبيبي الصغير على الأرض ممسكًا بقدمه في ألم، أسرعت عائدة ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أرتمي بين ذراعيه وأحتضنه في خوف وهو يحاول أن يطمئنني أنه بخير. هذه الرائحة الجميلة وجسده الفتي وعضلات

يده وصدره التي أحس بها لأول مرة، الهواء الذي يخرج من فمه مع اقتراب وجهي من وجهه.

تلاقت عينانا في نظرة طويلة، أحسست أني أذوب في سواد عينيه وذاب هو بين رموشي واقتربت شفتاي الجافتان من شفتيه وتلامسا في حياء واختلجت ذراتي، ما أحلى ملمس شفتيه الممتلئتين! اقتربت مرة أخرى أنهل من رحيق فمه بلا حياء هذه المرة. تعانقت شفتانا واحتضرت آلامي وأحزاني على صدره. لساني يمر على أسنانه ويلتحم بلسانه وأتذوق حلو رحيقه وأنفاسنا تزداد التهابًا وحرارة، ويده تعتصرني وتدفعني إلى صدره كأنه يريدني أن أسكن بداخله فيخفيني عن كل الشرور.

كان ميلاد حبنا قبلة منحته إياها عن رضا، وكبر حبنا الصغير فملأ الأرض وغطى وجه السماء.

***

اليوم أتممت عامي السابع عشر وأتم هو عامه الثامن عشر، وما زال حبنا عاصفًا كأنه وُلد بالأمس رغم مرور سنتين ونصف، أصبحت أحفظ وجهه وجسده وأصبح يعرف تضاريسي، دكَّ كل حصوني ومر بكل ثنياتي ومنحنياتي، مرر شفتيه على كل ندبة في جسدي وازدهرت الدنيا وتزينت في وجهي، وأنا لا أصدق أن تكتب لي السعادة بعد كل هذا الشقاء، السعادة في صوته ورائحته وضحكاته ولمسة يديه، الفرحة عندما أراه والحزن عندما أغمض عيني لأنام حتى أراه في أحلامي فترتد فرحتي، أصبحت أنا هو، وهو أنا، حتى جاء اليوم الذي تغير فيه سلام حياتنا.

شهدت القرية الصغيرة لأول مرة منذ سنوات زوارًا فوق العادة، بعثة أطباء بلا حدود المصغرة، نظرت يومها «مارجريت» من النافذة وهي تشاهد هذه السمراء الفاتنة تترجل من السيارة وقالت في دهشة:

- الملكة الفرعونية جاءت!

وسط أفريقيا 2023

بدأت الشمس في المغيب، وخرجنا من المدق الصخري نحو فراغ الصحراء القاحلة الجرداء، ومن بعيد رأينا بيتًا من الحجر مهدمًا، ولكن ما زال قائمًا وسط الصحراء، أشارت «بشرى» إلى البيت وقالت:

- هنا سنقضي ليلتنا حتى الصباح، فنبدأ بالتحرك مرة ثانية.

قلت في تردد:

- ولكن أليس من الأفضل أن نتحرك في الظلام ونتخفى تحت أستار الظلام، سنكون مكشوفين جدًا إذا تحركنا في الصباح.

ردت قائلة:

- لقد فكرت في هذا الموضوع ومخاطر التنقل في الصحراء بالليل كثيرة مثل العقارب والثعابين والضباع وغيرها، بالإضافة أننا نمشي من فترة ونحتاج إلى الراحة وبعض النوم لنستطيع أن نكمل المشوار، وإذا لم نستطع التحرك في الصباح لأي سبب يمكننا دائمًا تغيير الخطة.

هززت رأسي في اقتناع وقلت:

- إذن، سوف أقوم بنوبة الحراسة الأولى ولتحصلوا أنتم على قسط من الراحة، سوف أتأكد من خلو المكان ويوجد مكان في المنتصف ويمكن حمايته جيدًا، أقترح أن نستخدمه للنوم. تكوم كل واحد في ركن وسرعان ما انتظمت أنفاسهم وسهرت أنا أجتر ذكرياتي وبداياتي ولقائي مع الحبيبة «ترينو».

***

شوارع «باماكو» قاسية بالمقارنة بالبيت الكبير الذي كبرت وترعرعت فيه، لم يكن البيت الكبير هو بيتي بل بيت أحد الأثرياء حيث تعمل أمي، هي الآن تتولى

مهام الطهي للرجل الثري وضيوفه، ولكن لكي تصل إلى هذه المكانة بدأت من الصفر، من الكنس والمسح والتنظيف والغسل وتدرجت في المناصب وتحملت المشاق من أجل أن تهيئ لي بيئة مناسبة للعيش، لا يخفى عليكم كم هي قاسية وشاقة الحياة حين تولد في دولة فقيرة، تتزوج من رجل فقير وتعيش مع أهل زوجك أو زوجتك وتظل تخدم زوجك السكير الذي يتفاهم بقبضة يده ثم يقرر أن يلقي بك إلى قارعة الطريق مع ابنك الصغير، لتبدأ معاناة جديدة وانتهاك للآدمية كل يوم في بلد لا يساوي الفقير فيها شيئًا.

حظها السعيد والذي ربما يبتسم مرة واحدة في العمر قادها إلى هذا القصر حيث يعمل أحد أقرباء أمي من نفس قبيلتها وتوسط إلى رئيس الخدم الذي وافق بعد أن اتفق مع أمي أن يأخذ نصف راتبها مقابل وساطته.

عملت أمي خادمة وسكنت أنا وهي في غرفة مشتركة مع باقي الخدم في مسكن مقام في أطراف الحديقة الكبيرة التي كنت أقضي فيها معظم وقتي حتى تعود أمي منهكة آخر اليوم تحمل معها بعض الطعام، فنأكل سويًا ونتحدث قليلًا لتبدأ رحلتها في اليوم الثاني بلا انقطاع. ثم يشاء القدر أن يكتب لأمي انتصارًا آخر صغيرًا عندما تخلف الطاهي عن الحضور واحتاج الثري إلى من يجهز أطباق طعام لضيوفه المهمين، حاكم المدينة وبعض المسؤولين، اقترحت أمي فكرة أن تقوم هي بالطهي ووافق الثري في مضض ونجحت أمي نجاحًا ساحقًا، حاز طعامها على إعجاب الحضور واستدعاها رئيس الخدم فأخبرها أنها منذ اليوم مسؤولة عن الطهي وسيكون لها غرفة صغيرة ملحقة بالقصر وابتسم بخبث وهو يقول أن نصف راتبها الذي تضاعف الآن سوف يتحصل عليه كيفما اتفق بينهم، رفضت أمي بقوة وأخبرته أنها سوف تتوقف عن الدفع لأنها تريد أن تلحقني بالمدرسة ولن يكفي الراتب، وإذا صمم فسوف ترفض وتخبر صاحب القصر.

اضطر الرجل للموافقة خوفًا على وظيفته، وبدأت الحياة تبتسم مجددًا، استمر

الوضع لعدة سنوات ثم أتت الرياح بما لا تشتهي السفن، مرضت أمي فجأة وحار الأطباء في تشخيص مرضها ولكن اجتمعوا أن مرضها شديد العدوى، فما كان منه بعد هذه السنوات في خدمته إلا أن أعطاها بعض المال وطردها وأنا معها إلى الشارع مرة ثانية، حضن الطريق لا زال باردًا ولا زالت الأرض الصلبة فراشنا والسماء نلتحف بها فلا تقينا بردًا ولا زمهريرًا، والحياة تنسحب من أمي رويدًا رويدًا وأنا لا أملك لها شيئًا.

ماتت أمي في مستشفى حكومي، ولم تبقَ منها سوى ذكرى وقطعة من الأرض الصغيرة دون علامات أو إشارة أن هذا المكان يضم جسد امرأة أكل عليها الدهر وشرب بعد أن ظلمها المجتمع وتركت ورائها ابنًا يحارب القطط والكلاب من أجل بقايا الطعام، ينهره الناس عندما يرونه في طريقهم يطلب لقيمات أو شربة ماء ويمتغصون منه وأنا أنظر إليهم بسخرية، فهم لا يعلمون أن هذه الدنيا سوف تأكلهم وتلفظهم حفاةً عُراة وتهيل عليهم التراب وحتى من أحبوهم سوف ينسون أنهم يومًا كانوا على قيد الحياة.

تعلمت في الشارع أن البقاء للأقوى، النشل والسرقة وتجارة الممنوعات والبضائع المقلدة والبلطجة أصبحت أسلوب حياتي ومذهبي، كونت مجموعة من الشباب والبنات ولم نترك شيئًا لم نفعله حتى جاء «فيكتور». بداية «فيكتور» كانت بالتقرب إلى المجموعة رويدًا رويدًا، ثم التفريق بين أعضائها بإغرائهم بالمال أو الشرب أو غيره من الملذات، ثم بدأ في تحد أوامري بطريقة غير مباشرة حتى تم الصدام الفعلي عندما أراد التوسع والاتجار بالبشر وأعضائهم لصالح أحد كبار رجال الأعمال في أفريقيا الوسطى، أدركت وقتها أن «فيكتور» ما هو إلا أداه شريرة في منظومة كبيرة لا تعني بحياة البشر وتعتبر الاتجار بهم سواء لاستخدامهم في الدعارة أو استخدام أعضائهم مباح، حلقة جديدة في سلسلة الفقير المغلوب على أمره الذي لا قيمة له إلا في جيوب الأثرياء، وقررت الوقوف في وجهه وبقوة.

قامت بين مجموعتي ومجموعته حرب شوارع وكنا بين كرٍّ وفرٍّ حتى عرفت أن عصابته تخطط لخطف مجموعة من الأطفال من قرية قريبة فقررت التصدي له ومعي مجموعة من الشباب الرافضين لمثل هذه الممارسات.

كانت مواجهة دامية، فقدت فيها خمسةً من رفاقي وجرحت جرحًا غائرًا في كتفي وفخذي الأيمن، تحاملت على نفسي حتى وصلت إلى الطريق الرئيسي وتسللت إلى إحدى السيارات المغادرة للمدينة، دخلت إلى صندوق السيارة بجسدي النحيل ذي الأربعة عشر ربيعًا، وغبت عن الوعي ودمي ينزف بغزارة.

فتحت عيني فرأيت وجهًا أبيض ينظر إليّ بعينين زرقاوين في لون البحر يكلله شعر ذهبي اللون ممزوج ببعض الشعيرات البيضاء، وابتسامة رقيقة مطمئنة، في البداية تصورت أنني مت ودخلت الجنة، ولكن الألم الذي شعرت به جعلني أدرك أنني ما زلت على قيد الحياة وعندما تكلمت السيدة أدركت أن الرب أراد لي النجاة، وسمعت صوتها يسألني بالإنجليزية التي أجيدها بحكم نشأتي في بيت الثري:

- فلترتح قليلًا، لقد كانت إصابتك بالغة ونزفت كثيرًا من دمائك.

- أين أنا؟

- أنت في دار الأيتام الملحق بكنيسة «كومي»، لقد وجدك راعي الكنيسة وأنت مختبئ في صندوق السيارة وحملك إلى هنا عندما رأى الصليب الذهبي في رقبتك.

تحسست رقبتي فلم أجده، قالت:

- ها هو ذا، لا تقلق لقد خلعته من رقبتك حتى لا ينقطع أو يضيع ولكني احتفظت به لك.

- إنه يخص أمي، تركته لي قبل أن تموت وهو كل ما تبقى لي منها.

حاولت أن أعتدل ولكن دفعني الألم للتأوه فقالت:

- لا تحاول القيام، لقد نجحت في وقف النزيف وخياطة الجرح، ولا تخف، فلن أسألك عن شيء، لو أردت أن تتحدث وتحكي لي قصتك بعد ذلك فلك الحرية، أما الآن فارتح ولتأكل بعض الطعام.

أحضرت وعاءً من الحساء الساخن تتصاعد منه رائحة محببة وتغلب إحساس الجوع على الألم لوهلة والتهمت ما في الوعاء بشرَهٍ وأحسست بسخونته المحببة تروي عروقي، نظرت إليها ممتنًا فابتسمت وقالت:

- أنا «مارجريت».

- أنا «فوستين».

- تشرفنا يا صديقي الصغير، هل لي أن أسألك عن عمرك؟

- أربعة عشر عامًا يا سيدتي.

وابتسمت وأشارت لي أن أكمل طعامي وتركتني ألتهم الحساء حتى امتلأت واستلقيت على فراشي ونظرت إلى سقف الغرفة وشكرت الرب الذي نجاني من الموت.

عامان مرًا عليّ في دار الأيتام الملحق بالكنيسة والذي تقوم على رعايته «مارجريت»، حكيت لها قصتي وحكت لي قصتها وشجعتني على القراءة وكفلتني كأنها أمي، تعلمت عندما تتقارب القلوب الطيبة تذوب الفروق في اللون والشكل ويبقى الإنسان الذي خلق بفطرته النقية لا تفرق بين غني وفقير، أسود أو أبيض، كلنا ضيوف في هذه الدنيا.

بحكم كوني أكبر المقيمين في الدار، كنت أساعد في معظم الأعمال ورعاية الأولاد والبنات الأصغر سنًا وأعلمهم القراءة والكتابة. كانت الحياة تمر برتابة وكانت «مارجريت» تختفي بعض الأيام وتعود مرهقة كأنها تبحث عن شيء، لم

أسألها عن تفاصيل ولكني عرفت أنها تبحث عن القس «جوناثان» الذي اختفي منذ بضع سنوات ولا أحد يدري أين هو، وفي ليلة سمعنا طرقًا ضعيفا على الباب، جريت وفتحت الباب لترتمي بين ذراعيّ فتاة ترتدي فستانًا بنيًا قديمًا وتغيب عن الوعي، عرفت بعد ذلك أنها قدري ومحبوبتي «ترينو».

***

انتبهت من أفكاري على يدٍ تهزني في رفق، نظرت فإذا هو الرجل يشير إليّ أن نوبة الحراسة الأولى قد انتهت وهمس لي أن آخذ قسطًا من الراحة قبل أن يبدأ اليوم الجديد. نظرت إليه ممتنًا وتكومت على نفسي بجوار أحد الحوائط المهدمة وأغمضت عيني أحاول أن أدعو النوم لزيارتي ولكنه أبى أن يأتيني طوعًا أو كرهًا وبين اليقظة والنوم أحسست بصوتٍ خفيف وقفت له الشعيرات في مؤخرة رأسي وذهب النوم بلا عودة، وعيني تحاول أن تخترق حجب الظلام لترى ماذا يتحرك في خبثٍ يبغي شرًا.

على بعد أمتار من جسد «بشرى» الغافل تزحف، طولها يقارب المترين ولونها يقترب من الأسود، وما جعلها ظاهرة فجأة أنها عندما وصلت بالقرب من «بشرى» المستسلمة للنوم ارتفعت فوق الأرض وتحولت رقبتها من دائرية إلى مفلطحة، والتمعت عيناها الزجاجية باللون الأحمر وخرج اللسان المشقوق من فمها الصغير واستعدت للانقضاض.

إنها الكوبرا السوداء «سا» تكشر عن أنيابها لتغرسها في فريستها الغافلة، لا أدري ماذا حدث بعدها ولكني قفزت من مكاني بسرعة عجيبة، لم أصدق كيف تحركت بهذه السرعة ربما هو «الأدرينالين»! وركلت الأفعى في رأسها بقوة وأنا أصرخ بصوتٍ عالٍ أيقظ النائمين، أسرعت أقف بين الأفعى و«بشرى» التي هزت رأسها تحاول أن تطرد بقايا النوم وتستوعب ما يحدث وكانت المفاجأة، أنها ليست أفعى واحدة بل خمس أفاعٍ كبيره تقف على شكل نصف دائرة وتستعد للانقضاض علينا وعيناها تبرقان باللون الأحمر الدموي.

وقفت بين الأفاعي و«بشرى» والولد الذي ألجمه الخوف وصرخت بصوت عالٍ:

- أين هذا الأبله؟ أليس من المفترض أن يكون منتبهًا لمثل هذه المخاطر!

ردت «بشرى» وهي ترتجف:

- كيف تقف هذه الأفاعي صفًا كأنها جيش نظامي؟!

- لا أدري، يبدو أنها واقعة تحت تأثير شيءٍ ما، أنظري إلى عينيها؟

- إنه اللعين يسيطر عليها ويدفعها لمهاجمتنا بتلك الشراسة والتنظيم.

قاطعنا صوت الرجل وهو يندفع نحونا من بعيد، ويحمل في يده شعلتين من النار، يعطيني واحدة ويلوح بالثانية في وجه الرعب الزاحف نحونا قائلًا:

- لقد رأيتها تدخل في الظلام، فذهبت للبحث عن شيء أشعله لكي أبعدها، الحمد لله أنها لم تؤذِكم، لم أكن لأسامح نفسي أبدًا.

قالت «بشرى»:

- «فوستين»، حاول إبعاد الثعابين بقدر المستطاع حتى أصل إلى حقيبتي.

هززت رأسي وأشرت إليها أن تذهب وأنا أحرك الشعلة يمينًا ويسارًا وهي تبدأ في الانطفاء وأقول:

- أسرعي بالله عليكِ، لا أدري كم سنستطيع الصمود!

فتحت حقيبتها الصفراء وأخرجت منها قنينة من مزيل العرق وجرت نحوي وأخذت مني الشعلة ووجهتها إلى الأفعى الكبيرة في المنتصف، فخرج لسان من اللهب نحوها فأمسكت النار بها وأصبحت تتلوى من الألم ويصدر منها صوت فحيح وصراخ كأنها تتألم حتى انطفأ اللهب واستقرت الأفعى جثة هامدة، العجيب أن باقي الأفاعي قد هربوا وانطفأ الضوء الأحمر من عيونهم وكأن شيئًا

لم يكن. نظرنا إلى بعضنا في ذهول وقالت «بشرى»:

- يبدو أن هذا المأفون مصمم على أن يتخلص منا بعد ما كبدناه من خسائر.

هززت رأسي مؤكدًا ما قالت وقلت:

- لم أرَ شيئًا كهذا من قبل، لقد احتلَّ جسد الأفاعي وتحكم فيها، هذا يبعث على القلق، إذا كان فعل ذلك مع الأفاعي المنتشرة في المنطقة فلا يمكن أن أتصور ما هو قادر على فعله.

- لا أدري، فقد حكت لي جدتي عن هذا الموضوع من قبل وهو شيء يستطيع فعله المردة الأقرب للشيطان، وكلما زاد ارتفاع مكانتهم كلما زادت قدرتهم، يمكنهم أيضًا التحكم في البشر من ضعاف النفوس وهي مرحلة التلبس والتي هي أقوى من المس، يكون الإنسان قد مات فعليًا والمتبقي منه جسده فقط الذي يستخدمه الشيطان ويتحرك به.

- يا إلهي!

- لا تقلق، لقد انتصرنا في معركة وبقيت الحرب، يجب أن نتجهز لها فهي آتية وأظن ستكون حاسمة.

نظرت نحوها وتذكرت لقاءنا الأول بها وكيف اتحدت قوانا للتغلب على الشر الذي أصابنا جميعًا في مرحلة من مراحل حياتنا، وكيف اتفقنا على أن نقاتل سويًا هذا الشيطان، ولكن يبدو أن الطريق طويل وربما لا زلنا في أوله.

قامت «بشرى» في هدوء فاغتسلت ووقفت تصلي في خشوع مع ظهور أول ضوء من أضواء الصباح، تكور الولد في حِضن أبيه وذهبا في نوم عميق، تذكرت أنا أيضًا صلاتي فجلست على ركبتي ورفعت يدي نحو السماء وجنود النهار يحملون سيوف النور ويمزقون أستار الظلام ويضيئون الأركان بنور الصباح.

سلسلة جبال «أدرار إيفوغاس»

جنوب الجزائر سنة 1104

يقف رافعًا يديه نحو السماء ويرتدي «أبرنوس»، وهو معطف طويل من الصوف يغطي قميصًا أبيض، وبنطالًا من نفس اللون، ويرتدي على وجهه «ألاشو»، وهو لثام من القماش يغطي الوجه، اللثام مصبوغ بصبغة زرقاء نيليه تترك بقعًا من اللون الأزرق على وجهه، ولهذا عرفهم المؤرخون بالرجال الزرق ويلبسه الرجال لإخفاء الفم، ليس لحمايه الوجه من العوامل الطبيعية كما يظن البعض، ولكن لإخفاء عار الفم وهو اللسان، هذه العضلة اللئيمة والتي يحكم الطوارق عليها بالنفي خلف اللثام مدى الحياة.

أصل الطوارق يرجع إلى صنهاجة وهي قبيلة أمازيغية كبرى، ويرجّح نسبة صنهاجة إلى اليمن. ويؤكد ذلك عدد من المؤرخين إذ يروي بعض كبار السن من الطوارق اليوم أن أجدادهم رحلوا إلى أفريقيا بعد خراب سد مأرب، وبعضهم الآخر يحتفظ بشجرة نسبه التي ترجع إلى قريش وإلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلّم، وإلى أبي بكر الصدّيق، وعمر ابن الخطاب، وغيرهم.

في حياتهم الكثير من سمات حياة بدو العرب من تنقل وترحال موسمي، إلا أنهم يفضلون الانعزال في الصحراء الكبرى بالرغم من المصاهرات التي بينهم وبين العرب في الشمال الأفريقي وبين الأفارقة الزنوج في جنوب القارة، وبذلك أصبحت أعراقهم اليوم تجمع العرب والأفارقة في قبيلة الطوارق ولذلك تأثير على ألوان بشرتهم ولغاتهم المحكية.

وتعددت واختلفت الآراء التي تثبت أصل سبب تسمية الطوارق بهذا الاسم، فهناك من يقول إن اسمهم نسبة للقائد المسلم طارق بن زياد، وهناك من يرى أن اسمهم نسبة إلى إحدى القبائل التي قطنت الصحراء وكانت تُدعى قبيلة تارغا، تمتد مواطن الطوارق وأماكن سكنهم وترحالهم على مساحة شاسعة من وسط

صحراء قارة أفريقيا أو ما يُعرف بالصحراء الكبرى، فمن الحدود الشمالية الغربية لجمهورية مالي، وموريتانيا، وحدود السودان، حتى جنوب شرق الجزائر مرورًا بشمال النيجر، وتشاد، وجنوب غربي ليبيا. في موطنهم الأصلي قديمًا كان أقرب إلى شمال القارة الأفريقية، لكنهم ارتحلوا نحو الجنوب متعمقين في صحاري القارة الأفريقية إما هربًا بحريتهم من الجيوش الباغية كالرومان والفرنسيين، أو اقترابًا من أفريقيا رغبةً في نشر الإسلام وتوسيع تأثيرهم ونفوذهم. (حقيقة)

الرجل من قبيلة «كل أضاع» وهي قبيلة تستوطن جبال «أدار إيفوجاس» شمال مالي، يقف على باب خيمة حمراء مصنوعة من جلد الماعز يقال لها «أهاكين» وبجواره سيف مزخرف صنعه والده كبير طبقه الحرفيين.

من داخل الخيمة يتناهى إلى مسامعه مخترقًا الرياح والرمال صوت تأوه خافت تتصاعد حدته، يسجد على الأرض ليتم صلاته ويتضرع إلى خالقه أن تمر هذه المحنة على خير، بداخله تتفجر آلاف البراكين ويلوم نفسه على القيام بهذه الرحلة من البداية ويلوم الحب الذي جمعه بزوجته وجعله لا يرفض لها طلبًا، قالت له:

- «يوسف» حبيبي، أريد الذهاب إلى الاحتفال!

- ولكنكِ حامل يا حبيبتي وأخاف عليكِ من الطريق ووعورته!

ردت بدلال:

- أريد أن أزور أمي وأبي وأخوتي، اشتقت إليهم وستعود أمي معي لترعاني حتى ألد، أرجوك يا «يوسف» لقد مللت من هذا المكان وأريد التغيير والاحتفال سيحضره كل النبلاء، ولا أريد أن أفتح الطريق للقيل والقال فقد أرسلت إليَّ أمي تؤكد ضرورة الحضور لمنع ألسنة النساء عني، آخر احتفال لم نحضره ظلت النسوة تذكرنها بزواجي من طبقة الحرفيين وأنا أريد أن أبرئ أمي وأرضيها.

- أتخجلين من زواجنا يا «حبيبة»؟

- لا تقل هذا يا عمري، فلو خيروني لاخترتك ألف مرة.

- إذن، من أجل عينيكِ يا صغيرتي سنشد الرحال غدًا ونأخذ الولد ليرى أهلك ويسعد به.

كيف يقاوم هاتين الشفتين الحمراوين بلون الرمان والوجه الأسمر يحمل أجمل عيون واسعة وكحيلة، ورموش طويلة وأنف كحبة الكرز، عندما رآها أول مرة تتهادى في «أرقازان» من الجلد المصبوغ بلون دم الغزال يغطي قدميها الصغيرتين المخضبتين بالحناء وترتدي ثوبًا أبيض طويلًا وحجاب «ألوشو» من القطن الأزرق يغطي رأسها وتظهر منه خصلة شعر سوداء ناعمة ترفعها بيدها كلما سقطت، وترفع معها دقات قلبه التي أحبها من أول نظرة رغم أنها من طبقة النبلاء التي نادرًا ما تتزوج من طبقة أخرى ولكن حبهم تحدى العادات والتقاليد.

سنوات مرت منذ زواجهم، رزقا فيها بابنٍ يبلغ من العمر الآن ثمان سنوات ولم يكتب لهما غيره. مرت سنوات من التطبب بدهن الماعز ولبن الجمال وما تخرجه الصحراء من أعشاب دون جدوى حتى استجاب الله لدعائهم وحملت «حبيبة» وكانت الفرحة كبيرة بعد طول انتظار.

جهز «يوسف» الناقة واستعد وأهله للسفر ومرت الرحلة بسلام، ويشاء القدر أن يأتيها المخاض في الطريق وقد اشتدت الرياح وتعذرت الرؤية وكشرت الصحراء عن أنيابها. إنه يعلم هذه المنطقة جيدًا، فقد كثرت الأقاويل عن خطورتها ووعورتها وحوادث الاختفاء المقترنة بها، كان قلبه يرتجف خوفًا على زوجته الحامل وابنه الذي لم يولَد بعد ولا يدري أذكر هو أم أنثى ولذلك، اتجه نحو القبلة التي يعرفها جيدًا من مكان النجوم وسجد لله داعيًا أن ينجيه وعائلته من هذا الموقف الصعب.

صوت «حبيبة» يعلو بالصراخ وتنادي عليه أمها بصوت عالٍ، فيندفع داخل الخيمة ليجد ولده جالسًا في جانب الخيمة يبكي في صمتٍ، وخلف ستار تنام

زوجته في إعياء وأمها تمسح عن وجهها العرق الغزير الذي بلل الأرض تحتها، وبجوار العرق بقعة من دماء امتصتها الأرض الرملية في شره.

صرخت فيه الأم:

- لا أستطيع السيطرة على النزيف، أحتاج إلى عشبة «تباهق» لوقفه!

رد عليها في اضطراب:

- لدي بعض «التيلولوت» و«السلوف» ولكني لا أملك غير ذلك!

- يجب أن تبحث في المكان حتى تجدها لأدقها وأضعها على مكان النزيف ليتوقف وأحتاج كل ما معك من أعشاب أيضًا.

قال الابن في صوت خائف:

- أنا أعرف أي عشب تتحدثون عنه، سأذهب للبحث عنه.

صرخ فيه «يوسف»:

- لا تترك هذا المكان، لقد اشتدت الرياح وأخاف أن تتوه أو يصيبك مكروه!

انكمش الولد واعترض على أبيه بنظرة عتاب، فجلس «يوسف» على ركبته وأمسك الولد من كتفيه وقال:

- أعلم أنك رجل كبير وقد بلغت ثمانِ سنوات وهذا كثير في عمر الصحراء وتستطيع أن تخرج وتواجه الرياح، ولكني أحتاج إليك أن تبقى هنا لترعى جدتك وأمك، هل أستطيع الاعتماد عليك أيها الرجل الصغير؟

مسح الولد دموعه ونظر إلى أبيه وقال:

- اطمئن يا أبي سأحميهم حتى تعود.

ربَّت «يوسف» على ظهره وأحكم لثامه على وجهه وخرج. مرّ الوقت بطيئًا

قاتلًا وغاب الأب وزاد النزيف واشتدت الآلام، فأشارت الجدة لحفيدها وقالت:

- «أحمد»، لتذهب يا ولدي، فانظر ربما تجد أباك عائدًا فقد طال غيابه وأخاف أن نفقد أمك فهي تتنفس بصعوبة.

هزَّ الولد رأسه وربط لثامه الصغير وخرج من باب الخيمة وأخذ ينظر محاولًا اختراق حاجز الرمال لعله يرى أباه، بلا فائدة، قرر أن يتحرك حول الخيمة وصوت جدته يحذره من الابتعاد. مرت دقائق دخل بعدها «يوسف» من باب الخيمة حاملًا العشب المطلوب فأعطاها للمرأة وسألها:

- أين أحمد يا أماه؟

ردت المرأة وهي منشغله في طحن النباتات:

- خرج يبحث عنك ولكني أخبرته ألا يبتعد.

صرخ يوسف في خوف:

- ماذا تقولين؟ كيف سمحتِ بذلك؟ إن الرؤية منعدمة في الخارج وقد اشتدت الرياح والرمال غطت وجه السماء.

- لقد تأخرت يا بني ولم أدرِ ماذا أفعل، لا تخف سيعود الآن، ويحفظه الله من كل شر.

انتفض الأب واندفع راكضًا من الخيمة وهو ينادي على ابنه ويحاول أن يخترق حاجز الرياح والرمال، سار ببطء أولًا حول الخيمة، ثم أخذ في الابتعاد في حركة دائرية كما تعود وشفتاه تتحركان بالدعاء أن يكون ابنه يتحرك دائريًا هو الآخر كما علمه من عادات قومه من آلاف السنين، وأخذ يوسع نطاق البحث في شكل دائري مركزه الخيمة، حتى لمح من بعيد جسدًا صغيرًا يتحرك ببطء، نادى عليه ولكن ذرات الرمال شتت الصوت فجرى نحوه وهو ينادي وأخذ يقترب ويقترب، وفجأة اختفى الولد كأن الأرض ابتلعته، أسرع «يوسف» وهو

يصرخ ويقفز كالمجنون ليصل إلى مكان ولده فمادت الأرض تحته وابتلعته الرمال، وسقط في حفرة عميقة، فاصطدم رأسه بأرض حجرية وغاب عن الوعي.

***

كان قلب «أحمد» الصغير يرتجف خوفًا مع ابتعاده عن الخيمة رغم أنه كان يتحرك بالطريقة الدائرية التي علمها له أبوه، ولكن الظلام والرياح والرمال عصفت بقلبه الصغير، سمع صوت أبيه من بعيد يناديه، التفت ومع التفاتته مادت الأرض تحت قدميه وسقط وارتطم بقوة بأرضٍ حجرية عليها نقوش لنجمة خماسية محاطة بدائرة، سالت الدماء وانتشرت بين ثنايا النقوش وامتصتها الأرض في شراهة، واندفع دخان أسود كثيف فأحاط بالولد محدثًا آلاف الشقوق في جسده الصغير ويتحرك حوله بحركة دائرية.

أفاق «يوسف» على ضوء أحمر يغمر المكان من حوله وسحابة الدخان الأسود تحيط بجسد وحيده الصغير والدم يسيل فيغرق المكان.

اندفع الأب الخائف نحو ابنه بمشاعر الأبوة الجارفة، يحاول أن ينقذه ولكنه أحسَّ بشيء غير آدمي ينتزعه من الأرض ليلقي به في عنف نحو حائط المكان، تحامل على نفسه وكرر المحاولة عدة مرات وفي كل مرة يصرخ باسم ابنه وكل مرة يزداد الألم وتكسرت عظامٌ كثيرة في جسده من عنف الارتطام حتى لم يستطع القيام مرة ثانية، إحساس القهر والعجز يسيطر عليه وهو يرى ابنه ولا يستطيع إنقاذه ومع انهمار دموع القهر من عينيه أخذ يصرخ باسم ابنه بصوت مذبوح من الألم.

فجأة انشق الحائط عن خمسة فرسان ملثمين في ثياب خضراء أحاطوا بالدخان في شكل دائري عند أطراف النجمة الخماسية، ووضع كل منهم خنجرًا من الفضة في خمس شقوق تحت قدمهم وبدأوا في التمتمة بصوت عالٍ بكلمات غير مفهومة، فخرج من مقبض كل خنجر لهب أخضر اللون اندفع نحو الدخان

الأسود فتوقف عن الدوران وأخذ ينتفض ويتشكل ثم توقف واندفع نحو السماء هاربًا من الحفرة التي سقط منها الولد وأبوه، واختفى في الظلام.

سقط جسم الولد وارتطم بالأرض في صوت مقيت مع صرخة «يوسف» المفجوع، اتجه أحد الملثمين نحو جسد الطفل المسجى، وحمل جثمانه في رقة واتجه به نحو الأب المكلوم فوضعه بين ذراعيه وخلع لثامه فظهرت تحته امرأة في العقد الثالث من العمر سوداء اللون ذات عينين سوداوين واسعتين، وشعر أسود كثيف وقالت له:

- البقاء لله، للأسف لم نستطع إنقاذه في الوقت المحدد وأتم الملعون طقوس التحرر من محبسه في هذا المعبد، معركة أخرى انتصر فيها الشر.

نظر يوسف نحوها وكفكف دمعه وقال:

- من أنتم؟ وما هذا الدخان الأسود؟

أخرجت من طيات ثيابها قارورة من الماء ومدت يدها إليه قائلة:

- اشرب بعض الماء وسأحكي لك كل شيء.

تجرع الماء ثم صبَّ بعضه في راحة يده ومسح به وجه «أحمد» الذي استقر جسده في سكون بين يديه فقالت في إشفاق:

- هل تريد أن يتولى أحدنا دفنه؟

- لا، سوف أدفن ابني بيدي، ولكن بعد أن أعرف من المسؤول عن قتله وما هذا الدخان الأسود كريه الرائحة؟

اعتدلت في جلستها وأشارت إلى مرافقيها فجلسوا حولها وخلعوا لثامهم فإذا هم نساء مختلفو الألوان والأشكال كأنهن اجتمعن من أقاصي الأرض، شرقها وغربها، ثم بدأت في الحديث:

- نحن حراس المعبد، هذا المعبد بالتحديد ونمثل خمسة قبائل من الجن والإنس، وقد بنى النبي «سليمان» المعبد ليكون محبسًا لمارد شيطان يقال له «مولوخ»، لقد طغا هذا الملعون في الأرض فسادًا واتبعه الكثيرون وبنوا له معابد وتماثيل ليعبده الناس من دون الله، وله كهنة وأتباع في أنحاء الأرض، وكان لا بد أن يتدخل النبي بما أعطاه الله من معجزات وسيطرة على أقوى الجيوش فحارب الشيطان وأتباعه وطارده حتى حبسه في هذا المعبد وأقام على حراسته كما ذكرت خمسة قبائل منهم «الطوارق».

أشارت إلى واحدة من النساء وقالت:

- الأخت «خديجة» من شعبكم وهي من استدعانا اليوم مع التغييرات المناخية التي طرأت في المنطقة، ونحن الأربعة كما شرحت من قبل من قبائل أخرى من الجن والإنس، يقع الاختيار علينا بعد ظهور علامات معينة فنأخذ العهد ممن سبقنا ونصبح من حراس المعبد لنتولى مهام حراسته وضمان ألا يغادر هذا الملعون محبسه، ولكن للأسف يشاء القدر أن يسقط ولدك على طلسم الحراسة ويسيل دمه الطاهر ليفتح القفل ويطلق سراح «مولوخ».

أشارت لزميلاتها بالاستعداد فاستوقفها «يوسف» وسأل:

- وماذا سيحدث الآن؟

- الآن أصبحت المهمة شاقة والمعركة أكثر خطورة ونطاقها أوسع، فهذا الشيطان سوف يستجمع قوته ويعيد تنظيم جنوده ويقوم بما تدرب عليه آلاف السنين من إفساد في الأرض ونشر الفسق والفجور، وواجبنا الآن الاستعداد للمعركة، سوف نساعدك على الخروج من هنا وسوف ننتقم لمقتل الصغير.

نظر نحوها وقال في قوة:

- لن ينتقم لولدي سواي أنا، «يوسف بن يحيى الكوالي»، وأقسم بالله العظيم أن سيفي وأولادي وأحفادي من بعدي سيكون شاغلهم الشاغل أن يتبعوا أثر هذا

الشيطان المارد في ربوع الأرض ويقاتلونه وأتباعه حتى آخر قطرة دم تسري في عروقهم، ومن الآن يا سيدتي ستجدينني خادمًا لحراس المعبد في حربهم.

- شكرًا يا «يوسف»، وأبشرك أن الله عوضك بولدٍ وزوجتك بخير وسوف نحملك إليها إذا أردت.

- سوف أدفن «أحمد» وأربي الثاني ليكون عونًا لي في محاربة هذا الشيطان المارد.

أخرجت من نطاقها قطعة من القماش الأبيض وختمت الورقة بشعار على شكل دائرة داخلها النجمة الخماسية وعلى أطرافها الخمسة رموز تمثل قبائل حراس المعبد وقالت:

- هذا شعارنا، إذا رأيته أو حمله أحد إليك وطلب عونك وجبت مساعدته أنت أو نسلك حتى تقوم الساعة، وليكن هذا عهد مع الله واجب التنفيذ.

وكما ظهرت فجأة، اختفت هي ومن معها، ووجد يوسف نفسه بجوار الخيمة يحمل بين ذراعيه جثمان فلذة كبده، تحامل على نفسه وجسده يئن من الألم ونفسه تتمزق من لوعه الفراق، ودفن الولد ثم حمل سيفه ورفعه نحو السماء وفي عينيه بقايا دموع وكثير من الإصرار.

كفر الحمام 2008

ازدهرت تجارة أبي وتوسعت وأصبح مقصد الكثير من الفلاحين من القرى المجاورة لتنوع الأغراض ومعاملته اللطيفة، لم يخلُ المتجر من البضائع التموينية التقليدية إلى جوار الأغراض المنزلية والأقمشة وغيرها، والتي يسافر لإحضارها من الأسواق في القاهرة والإسكندرية.

انتقلنا من الطبقة الفقيرة إلى المتوسطة، وأصبحت الثانوية العامة بديلًا عن المعاهد المتوسطة، وترقب أبي النتيجة في لهفةٍ وصمت، لم يخبرني برغبته فاخترت القسم العلمي، ولكني قررت أن أبذل قصارى جهدي فتكون الأبواب مفتوحة أمامي أدخل من أيها أشاء، وكان يوم النتيجة ونجحت بتفوق، وفي اليوم نفسه صارحني أبي برغبته أن أصير طبيبة. فاجأتني رغبته، فرغم أنه أصبح قادرًا ماديًا إلى حدٍ ما، ولكن لم أكن أتوقع كلية الطب بما لها من مصروفات باهظة وسنوات شاقة لإكمالها، بالإضافة إلى أن دخولي كلية الطب يعني انتقالي من القرية الصغيرة إلى المدينة الكبيرة بما فيها من مشاق ومتاعب مادية ومعنوية، وأشفقت على أبي وعلى نفسي ولكنه كان واضحًا في رغبته كعادته.

بدأت الحياة في كلية الطب بالسكن في المدينة الجامعية للطالبات في غرفة مشتركة مع أربع مغتربات من محافظات مختلفة في الدلتا والصعيد، لن أتكلم عن الكلية ذاتها بمصاعبها ومحاضريها ما بين الممل والشديد التعقيد والمشوق، ولكني سأحكي عن رفقائي في السكن الذين أصبحت أمضي معهم معظم وقتي، لا يوجد شيء مميز فيهم إلا واحد.. «هناء».

لم تكن «هناء» شخصية عادية، كانت شخصية شديدة الغموض حتى شكلها وطريقة لبسها وتصفيفة شعرها الأحمر الناري، كلها توحي بالغموض، لا أعرف عنها شيئًا سوى أنها من محافظة «المنيا» وتعجبت لأن «المنيا» محافظة في

الصعيد والعادات والتقاليد تحددان أو ترسمان طريقة معينة للبنت في التصرف، ولكن «هناء» ضربت بالعادات والتقاليد عرض الحائط.

كان صوت ضحكتها يرن كالأجراس في ردهات الكلية يكاد يوقظ الجثث الممددة في المشرحة، علاقتها مع الأولاد، تتكلم معهم وتمزح في أريحية كأنها واحدة منهم، طلاء وجهها الصارخ وملبسها الضيق يرسمان في الأذهان تصوزا لتحرر هذه البنت، ولكنها مع ذلك لم تكن سهلة المنال، كانت تعرف كيف ترسم حدود أي علاقة، فلا يمكن تخطي هذه الحدود.

كل ذلك جعلها شديدة الخطورة بالنسبة لي، وفي الوقت نفسه وجدت نفسي منجذبة إليها كما تنجذب الفراشات إلى الضوء فتلقى حتفها بين نيرانه أو قطع الحديد لمغناطيس يشكلها كيف يشاء، ورغم احتفاظي بشخصيتي المنغلقة إلى حدٍ ما إلا أنني أصبحت لا أشاهَد إلا في صحبة «هناء» التي كانت في وقت قصير ذات شعبية كبيرة إما إعجابًا أو تحاشيًا للسانها اللاذع الذي ما إن تقرر إطلاقه على أحد لا يسلم منها، ويصبح مادة للسخرية في أوساط الجامعة، حتى تقرر أن تصفح عنه أو تضمه لحاشيتها، ورغم أنني لم أرها تدرس أبدًا، ولكنها نجحت بجدارة أثارت الاندهاش والتساؤلات، فقد كنا نحن نسهر ونذاكر وتتوقف الحياة بالنسبة لنا بين كتاب ومرجع، ولكن حياتها الصاخبة لم تتوقف.

الإشارات كلها كانت تحذرني بطريقة غير مباشرة وعلامات الخطر وأجراسه واضحة، ولكني عجزت عن رؤيتها حتى جاء التحذير المباشر.

كنت قد انتهيت من الامتحانات ورجعت إلى قريتي أنعم بدفء أحضان أبي وجدتي وطعام أمي وغرفتي الصغيرة المحببة، ومرَّ يومان أنهل مما حُرمت منه من شهور حتى أخبرتني جدتي أنها تريدني لشيء هام. دخلت إلى حجرتها وكعادتي جلست بجوارها على الأريكة الكبيرة وتربعت هي بجواري في رداء نوم أصفر وبجوارها موقد صغير يعمل بالكيروسين تجهز عليه قهوتها، بدأت ترتشف القهوة في بطء وهي تنظر إليّ، وقبل أن يقتلني الفضول قالت:

- الصاحب ساحب يا ابنتي، ويجب أن نحسن اختيار الصديق قبل الطريق.

نظرت نحوها في تعجب فاستطردت:

- كل إنسان يمر بتجربة حياتية ويتشارك مع آخرين في هذه التجربة، كل من نتشارك معه نتعلم منه أو نعلمه ولكن لا بد من الاحتفاظ بذاتنا وكياننا، لا نتلوث ولا نتغير، تقاليدنا ومبادئنا وديننا هي مرساة السفينة والحقيقة الوحيدة التي لا تتغير ولا تتبدل، أنا لا أستطيع أن أخبرك من تختارين لمرافقتك في الطريق، ولكن أستطيع أن أنصحك أن تحسني الاختيار.

نظرت إليها في تساؤل وقد احمرت وجنتاي فأكملت:

- حمرة وجنتيكِ تخبراني بالكثير، وأظن رسالتي وما أريد أن أنقله قد وصلكِ.

قلت وفي رأسي ألف سؤال:

- لا أدري لماذا أنا منجذبة لهذه البنت هكذا! ربما لجرأتها واختلافها التام عني، ربما لتحطيمها القواعد والعادات، عندما أراها أرى انعكاس نفسي على سطح الماء، لا أرى نفسي ولكني أرى ما أريد أن أكونه ولكن يمنعني الخوف، الخوف من تبعات اختياراتي، أريد أن أكون قوية مثلها، قوة تدفعني للتجربة، أليست التجربة هي الطريق للتعلم والارتقاء بالشخصية؟

ابتسمت في رقة وقالت:

- الإنسان يعيش حياته ليتعلم، هذه حقيقة ولكن لا تحتاجين إلى لمس النار لتعرفي أنها تحرق، ولا لمس الثلج لتحسين بالبرودة، أول من لمس النار احترق ونقل تجربته لمن تبعه، حتى وصلت الخبرة إلينا منقاة وجاهزة، يجب أن نحسن اختيار التجارب التي نخوضها ونمر بها لأن بعض هذه التجارب لا يمكن الرجوع منها، وخاصةً تلك التي تتعارض مع الفطرة.

- انتظري، الأهم من كل هذا، كيف تعرفين كل ذلك وأنا لم أحدثكِ عن هذه

البنت من قبل؟

ربتت على كتفي وقالت:

- إن ما يربطني بكِ يا ابنتي هو شيء أغلظ من الدم، ولقد ترددت طويلًا أن أخبركِ من أنتِ وما هو الدور المنتظر منكِ أن تلعبيه، أشفقت عليكِ يا صغيرتي، أردتكِ أن تتمتعي بشبابكِ وتكتبي بنفسكِ سطور حياتكِ، ولكن حان الوقت لتعرفي، فالحرب بين الخير والشر والتي بدأت منذ الأزل ستلعبين فيها دورًا خطيرًا وهامًا.

- أي حرب؟

- ما ستسمعين مني الآن يا ابنتي هو تاريخ، ربما لاحظتِ بعض الأشياء تحدث حولكِ ولم تسألي عنها، حادثة «فهيمة» و«مدبولي» وغيرها، ربما كنتِ صغيرة وقتها، ولكن أنتِ الآن جاهزة لتناول العهد وتتصرفين حسب ما يمليه عليكِ دوركِ المرسوم بعناية.

- عهد؟ أي عهد؟

- عهد أن تحافظي على سر المعبد وتكوني من حراسه وتتعهدين أن تحاربي الشر كما حاربه أجدادكِ على مرّ العصور، والآن انتبهي جيدًا حتى تستطيعي استيعاب ما أقوله فهو يحتاج إلى تركيز.

- لحظة! أيعرف أبي كل هذا؟ وأمي؟ هل هي جزء من ذلك أيضًا؟

- لا يعرف أحد عن ذلك سوى أنا و«سلامة»، ولو انتظرتِ قليلًا وتوقفتِ عن مقاطعتي ستعرفين أنتِ أيضًا من هم حراس المعبد، من على قيد الحياة ومن هو عدونا الأول، ولا تقاطعيني حتى أنتهي.

***

المكان: فلسطين (مجلس الملك سليمان).

الزمان: غير معلوم.

نظر النبي «سليمان» للحضور وبدأ في الكلام بذكر الله وتعظيمه وقال:

- لقد ازدادت شرور «مولوخ» ووصلت إلى أقاصي الأرض، وانضم له عددٌ كبيرٌ من الشياطين ومن تبعوه وعبدوه من الإنس، لقد نصب نفسه إلهًا من دون الله، وأمر أتباعه ببناء معابد وصناعة تماثيل في الأنحاء ظنًا أنه سيفرض سيطرته على الأرض ويعيد مجد وسيطرة الملعون أبيه على الأرض، وحان وقت محاربته والقضاء عليه، وقد أمرت الملك «أباديباج» أن يبني معبدًا تحت جبال «أدرار إيفوغاس»، ويحميه بالطلاسم ويختم عليه بختمي الأعظم وسيسجن الملعون «مولوخ» حتى يشاء الله بعد القبض عليه في هذا المعبد، ولقد جمعتكم اليوم لتأخذوا العهد مني لتكونوا حراس المعبد وتورثوا العهد لأولادكم وأحفادكم فتكون مهمتكم الأولى هي حراسة المعبد، وإذا شاء الله أن يخرج فمهمتكم الأصعب هي محاربته والحد من شروره ومحاولة إعادته لمحبسه مرة ثانية.

وقف الملك سليمان على عرشه واستند على عصاه وقال:

- عندما تستلمون العهد فلا هروب منه، حتى إذا نسيتم أو تناسيتم ما عاهدتم الله عليه أنتم وذرياتكم من بعدكم، فسوف يأتي الشيطان وجنوده لمحاربتكم في عقر داركم، والآن ليأتي كل واحد منكم فيأخذ العهد مني.

أشار النبي «سليمان» لهم أن يتقدموا فكان أولهم الملك «طارش» ملك الجان من عمار البيت والملك «أباديباج» ملك الجن من القرناء والأمير «عدنان» من الطوارق ومكلف بحماية المعبد والمنطقة المحيطة بالمعبد، والأميرة «سيتالي» قائدة جيوش وسط أفريقيا، ويخرج من نسلها نساء محاربات يمتلكن شفافية وقدرة على إبطال السحر، فقبلوا الأرض بين يديه وأعطى هو لكل واحد منهم خنجرًا من الفضة منقوش عليه العهد.

***

هكذا يا ابنتي جدتكِ الكبرى «سيتالي» تم اختيارها ونسلها من النساء المحاربات الأقوياء ليخرج منهم «حراس المعبد»، وأنتِ يا ابنتي آخر نسل الأميرة «سيتالي»، وقد احتفظ الملك سليمان بالخنجر الأخير ويقال أنه منحه لأحد الأنبياء من بعده أو لأحد الملائكة، لا أحد يعرف.

أحسست بالدنيا تدور ونظرت إليّ جدتي في ذهول، أحسست أن أحدهم قد ألقى ماءً باردًا على رأسي في أشد الأيام برودة، رفعت عيني نحوها وسألت:

- هل تتوقعين مني أن أصدق هذا الهراء! جن وشياطين وحرب بين الخير والشر، كأنها قصة قبل النوم تحكى لطفل في السادسة من عمره! ثم ماذا؟ أستلم العهد الذي تقولين عنه وأترك حياتي وأذهب للبحث عن هذا «المولوخ»؟!

هزت رأسها وقالت:

- لا أتوقع منكِ شيئًا يا ابنتي، يجب أن تتناولي العهد باختياركِ كما فعلت أنا، وكما فعل أسلافك من قبلكِ، وأظنكِ تعلمين أنني صادقة فيما قلت، فلم تعهديني كاذبة أو مخرفة، ورائحه البخور وصوت الإنشاد الذي تسمعينه يخرج من غرفتي عند زيارة الملك «طارش» أو الملك «أباديباج» التي لا تخلو من ذكر الله.

نظرت نحوها في خجل وقلت:

- عذرًا يا جدتي، حاشا لله أن أتهمكِ بالكذب، ولكني أشعر بالضياع، لا أعرف من أنا وهل سأبدأ حياتي أو تنتهي على يد مجنون من أتباع هذا الشيطان المارد!

- لا تقلقي يا صغيرتي، حتى تتناولي العهد، فأنتِ في أمانٍ كما أتصور ولن يستطيع أحد إيذائكِ إلا بإذن الله، وكل ما أطلبه منكِ أن تفكري في الأمر، فلا أظن بقي في العمر طويلًا، وقد انقطع الاتصال مع الطوارق بعد وفاة الأمير «عدنان» في ثورة الطوارق ومحاولتهم الاستقلال بدولتهم، ولا ندري ماذا حلّ بالمعبد، ولكن المؤكد وما تناقلته الألسن أن الملعون قد وجد طريقه للهروب،

ويجب أن نجد طريقة لتتبع خطواته ومحاربته، وقد بلغت من الكبر عتيًا وأصبحتُ غير قادرة على السفر والقتال.

ثم مدت يدها بلفافة من القماش فتحتها وأخرجت منها مقبض خنجر من الجلد المزخرف بنقوش وحروف وأرقام، على أحد أطرافه قرص من المعدن مرسوم عليه نجمة خماسية وأعطته لي وقالت:

- هذا الخنجر المكسور هو ما أعطاه «سليمان» لجدتكِ وقد كسر في أحد المعارك وضاع نصله، وعندما يجتمع النصل مع القاعدة يكتمل الطلسم ويصبح سلاحًا قويًا في وجه أي شر وخاصةً الكهنة وأعوان الملعون الرئيسيين، وليس هذا فقط، فوجوده في قبضتكِ يجعلكِ على اتصالٍ روحي بباقي الحراس وبأسلافكِ فيساعدكِ على اتخاذ القرار الصحيح في الوقت الصحيح، وعندما تضيق الدنيا يعطيكِ القوة على المثابرة وإكمال الطريق، خذيه يا ابنتي.

مددت يدي لآخذه وما أن لامسته أناملي أحسست برجفة تجتاح جسدي، وكأن بيني وبينه رابط روحي غير مرئي، حملته وخرجت من غرفتها وارتميت على فراشي وحملت المقبض في يدي وأخذت أتأمله حتى غبت في النوم، ورأيت نفسي أمشي في الصحراء، الشمس حارقة ولونها ليس ذهبيًا أصفر كما أعرفه، بل لونها أحمر قانٍ، ورأيت أمامي تلًا مرتفعًا فتسلقته حتى وصلت إلى آخره، فإذا برجلٍ يجلس على الأرض تحت شجرة يتيمة كثيفة الأوراق، يمسك عصا طويلة بيده وفي يده الأخرى مسبحة زرقاء اللون، يرتدي ثوبًا أخضر اللون، وعلى رأسه عمامة بيضاء ولم يتكلم معي، بل أشار إليّ فجلست بجانبه وقال:

- انظري يا ابنتي..

نظرت على ملء البصر فلم أرَ شيئًا وقلت:

- لا أرى شيئًا!

قال:

- لا تنظري، أغلقي عينيكِ وانظري بقلبكِ.

أغلقت عيني رغم إدراكي التام أنني أحلم وأن عيني مغلقة، رأيت أقوامًا يتصارعون، مجموعة من البشر تبدو عليهم القسوة، عمالقة، ضخامِ الجثة، خلفهم تمثال لرجلٍ برأس ثور يخرج الدخان من منخريه، يتحاربون مع قومٍ تبدو على وجوههم السكينة، ولكنهم يقاتلون بشدة وجرأة، يعمدون سيوفهم وتتطاير رماحهم فتحصد العمالقة يتساقطون كالذباب، ثم ينتصرون ويحطمون التمثال.

يتغير المشهد، فأرى أطفالًا تُنزع بقسوة من بين أحضان أمهاتهم، يصرخون معًا وتبقى صرخات النساء مع اختفاء صوت الأطفال في حفرة كبيرة تشتعل فيها النار، من هؤلاء الرجال في زيهم الأسود وأقنعتهم المخيفة، ينظر لي أحدهم يلبس قناعًا على شكل خنزير ويمد يده نحوي.

يتغير المشهد مرة ثانية، فأرى أحراشًا أفريقية، يقف في وسطها رجل يتشح بالسواد، تبرق عينيه ببريق أحمر ناري مخيف ويتمتم بكلمات غريبة، فتخرج من الأرض ألسنة من اللهب ترتفع، فتصل إلى عنان السماء، ثم يخرج من خلفه أسد ضخم لم أرَ هذا الحجم من قبل، كأنه بناية من دورين، يزأر بصوت عالٍ، من بين الأحراش تقفز امرأة شابة رشيقة سوداء البشرة، تحمل في يدها رمحًا قصيرًا تغمده في فم الأسد المفتوح فيخر صريعًا، تقوم المرأة في رشاقة فتتجه نحوي وتخلع من رقبتها عقدًا من الذهب وتعطيني إياه وتبتسم.

أفتح عيني فأجد نفسي لا زلت جالسة بجوار الرجل، أنظر إلى الفراغ وقد تغير شكل الشمس في السماء، فعاد لها رداؤها الذهبي وبجوارها القمر مكتمل في وسط سماء زرقاء بلا سحب. يمد الرجل يده إليّ بمقبض الخنجر، أنظر إليه في تردد فيبتسم ويفتح يدي ويضع المقبض فيها ويضغط عليها فأحس بحرارة شديدة، وكأن يدي تشتعل، فأصرخ في ألمٍ وأستيقظ من نومي والعرق يغمرني ويغرق وسادتي، وجدتني أمسك المقبض في يدي وتعجبت، هل هذه رؤية أم

***

صرخت هناء في وجهي قائلة:

- تمزحين! إنها أهم حفلة في السنة ويجب ألا تفوتنا!

رددت في إرهاق:

- ولكني مجهدة بالإضافة إلى أنه وقت المذاكرة، وخاصةً مع اقتراب موعد الاختبارات، حقيقةً لا يوجد وقت.

- الليلة فقط، لنذهب ونعود سريعًا، أرجوكِ لن نتأخر ولا أريد الذهاب وحدي.

وافقت على مضض، وفي الطريق أخذت أفكر في جدتي، مرت شهور منذ عرفت منها أصلي ودوري في الحياة وإرثي الذي وضعته في صندوق من الورق أسفل فراشي ونسيته أو تناسيته، لم أقطع علاقتي «بهناء» وقررت أن أعيش حياتي ولا أشغل بالي بكل ذلك، لا زلت صغيرة على تحمل تلك المسؤولية، بالإضافة لذلك ربما يكون الموضوع كله أوهام امرأة كبيرة السن مخرفة.

نظرت إلى «هناء» وابتسمت من الفرح الشديد الذي يبدو على وجهها كالطفل الصغير الذي حصل لتوه على لعبة جديدة، ربما هذا الذي يشدني إليها، مشاعرها حقيقية، تضحك كأنها المرة الأخيرة التي ستضحك فيها وتحزن فتنهمر دموعها غزيرة كأن جسدها يعتصر آخر قطرة دمع، تحب الحياة وتقبل عليها بكل جوارحها.

وصلنا إلى الحفل في قصر أحد الأثرياء في المريوطية، البذخ والثراء الفاحش يطغى على كل شيء، أنهار من الخمور تدخل جوف الشباب بلا رقيب، والأطعمة الفاخرة المستوردة خصيصًا من أوروبا والتي لا أعرف اسمها، وحتى لو عرفت لن أستطيع نطقه نطقًا صحيحًا، يتمايلون على أنغام الموسيقى التي تخرج من

سماعات كبيرة موزعة بحرفية في أنحاء الحديقة.

كعادتي عندما أذهب لمثل هذه الحفلات، انزويت إلى ركنٍ قصي بعيدًا عن الأضواء والأشخاص، وأخذت أراقب هذا العالم الغريب الذي اندفعت إليه «هناء» وانغمست فيه بسهولة، هذه البنت القادمة من الصعيد وكأنها واحدة منهم، أراقب وعلى وجهي ابتسامة وفي عقلي تتصارع الأفكار ويتصارع ما أراه مع مبادئي، تتصارع قوى الخير مع طوفان الشر والابتذال.

- عفوًا، أتسمحين لي بالانضمام إليكِ؟

جفلت والتفت في حدة ناحية الصوت واندفع الدم إلى رأسي مع احمرار وجنتي عندما رأيته واقفًا كنجم سينمائي بابتسامة ساحرة من فكّه العريض وبقامته الطويلة وشعره الأسود الفاحم الطويل الذي يصل إلى كتفيه وبريق عينين واسعتين بلون أخضر زيتوني ووجه أبيض يحتضن أنفًا دقيقًا وفمًا دقيقًا، وعنق كإبريق من الفضة، يرتدي حلةً سوداء تبدو باهظة الثمن على قميص سماوي مفتوح، أزراره تظهر شعيرات صدر شديدة السواد.

أردف عندما أدرك توتري:

- أنا أيضًا لا أحب الصخب والصوت العالي، هل تسمحين لي بمشاركتكِ هذا الركن الهادئ.

نظرت حولي من غير فهم، فالركن الذي أجلس فيه يحتوي على الكثير من المقاعد، يمكنه بكل سهولة الجلوس بدون أن يشاركني أي شيء، ولاحظ هو ارتباكي فقال:

- لا أريد أن أجلس وحدي، فهذه حفلة بقصد التعارف، أنا «أحمد درويش».

نظرت في دهشة نحو يده الممدودة وقلت:

- «بشرى صابر عبد السلام».

ثم ازداد وجهي احمرارًا عندما اتسعت ابتسامته لذكري اسمي الثلاثي وأردفت في خجل وبصوت خافت:

- «بشرى».

ثم أردت أن أتخلص من ارتباكي فسألت:

- «درويش» هل تعرف الدكتور «عبد الرؤوف درويش» أستاذ القلب في القصر العيني وصاحب مستشفى القلب الشهير؟

- نعم، هو أبي وهذا أيضًا قصره المتواضع وأنا ابنه الوحيد.

عندما سلمت عليه لم تتلامس يدانا بل احتضن كفه كفي في رقة، أرسلت رجفة إلى جذور شعيرات رأسي وكل ذرة من جسدي، سحبت يدي وقلت في سخرية:

- متواضع؟ لا يوجد أي شيء متواضع في هذا المكان، الكرسي الذي أجلس عليه وحده يكفي أن يطعم أسرةً في قريتنا الصغيرة لأيامٍ، فما بالك بصاحب الكرسي والمكان!

- صدقت، أنا أجد هذا المكان شديد البذخ أيضًا، وأفضل أن تذهب النقود لقريتكِ الصغيرة التي ذكرتيها بدلًا من بطون هؤلاء المنتفعين المتملقين.

نظرت إليه بدهشه وشعور غريب بالعداء ينمو بداخلي:

- قريتي الصغيرة، ماذا تعرف عن القرى يا أمير القصر ومن أنا لتجلس تتجاذب أطراف الحديث معي؟ أنا واحدة من الذين تقول عنهم منتفعين ومتسلقين، ورغم أنها أول مرة آتي لحفلٍ مثل هذا لكن من الواضح أنك تحاول أن تتغلب على الملل الذي تشعر به والتخمة من الحفلات التي تقيمها في قصرك فوجدتني فرصة للتسلية، أعتذر بشدة، فأنا أختلف عن كل النساء في حفلك المتواضع، والأفضل أن تنضم إلى ضيوفك، والمرة القادمة التي تحس بالملل فيها اشترِ

قصرًا جديدًا أو اقرأ كتابًا، أو أقِم حفلًا للمتسلقين.

تركته وابتعدت، ولست أدري لماذا كنت بهذه القسوة، وليكن، فليس عندي وقت لهذه الترهات، نعم هو وسيم وغني، ورائحة عطرة تعيش في ثنايا أنفي حتى الآن، ما لي أنا القادمة من قرية صغيرة في الدلتا وهذا الثري العابث! أنا أريد أن أكون طبيبة وأحقق حلم أبي، لا يوجد وقت لهذه التفاهات، أشرت لسيارة أجرة وارتميت فيها عائدة لمدينة الطالبات، وعيناه الساحرتان وابتسامته الآسرة لا تفارق مخيلتي، وصلت إلى غرفتي متسللة جوار رفيقاتي النائمات الملتحفات بكتب «الباثولوجي» و«الفارماكولوجي»، والتحفت أنا بذكرى لمسة يده حتى غرقتُ في النوم.

***

مرت الساعات والدقائق في اليوم التالي للحفل، في سرعةٍ شديدة وغريبة، يتحدثون إليّ وأرد، ولكني لا أعرف عن ماذا يتحدثون، الطعام ينزل إلى جوفي لا أدري إذا كان حلوًا أم مالحًا، أنظر إلى المحاضر فلا أفهم ماذا يقول، قررت أن أذهب إلى أهدأ مكان في الكلية لأحظى ببعض السكينة بين جنبات المراجع الضخمة والكتب التي أفنى مؤلفوها عمرهم في وصف الأمراض المستعصية والدورة الدموية، حيث الطلبة المجتهدون الذين لا يملكون ترف الوقت.

اتخذت ركنًا قصيًا في المكتبة بجوار النافذة، وأخذت كتابًا فوضعته أمامي وتظاهرت بانشغالي بالقراءة حتى لا يزعجني أحد، سمعت صوته الهادئ يتسلل إليّ على غفلة ويرن بداخلي رنين آلاف الأجراس:

- من الواضح أن الأماكن البعيدة الهادئة هي مكانكِ المفضل.

اهتزَّ قلبي وارتجف وشعرت ببرودة في أطرافي وقلت في حدة:

- يبدو أن الحفل لم ينتهِ، كيف عرفت أني أدرس هنا؟ هل تبعتني من القصر؟

يا إلهي! إنه أوسم من الأمس وهو يميل على المقعد أمامي ونظراته الثاقبة تخترق حصوني وتدق ما بقي من قلاعي، قال:

- دائمًا هكذا تهاجمين الناس بلا حساب؟ ما أدراكِ أني أتعقبكِ! أنا ببساطه أبحث عن كتاب، هذه مكتبة، أليس كذلك؟

- نعم، هي مكتبة، ولكن ليست للزوار، بل هي للطلاب فقط، وكون أبيك طبيب مشهور ومحاضر في الكلية لا يعطيك الحق في التجول فيها كما تشاء!

- وسيئة الظن أيضًا! رغم أنكِ تعرفين الكثير عني ولا أعرف سوى اسمكِ، ولكني سوف أخبركِ فقط حتى أتلافى لسانكِ اللاذع وغضبكِ غير المبرر، هل تسمحين لي بالجلوس؟

أومأت إليه بلا مبالاة وقلبي يدعو أن يجلس أمامي لأتأمله عن قرب، أزاح المقعد وجلس في أريحية مريحًا ظهره كاشفًا عن عضلات صدره التي برزت من أسفل قميصه الأبيض وقال:

- «أحمد درويش»، طالب بالفرقة الرابعة بكلية طب القصر العيني، ولي كل الحق في التواجد بالمكتبة، ولقائي بكِ هو محض صدفة.

وأمال جسده ناحيتي وبابتسامةٍ خلبت قلبي قال:

- وهي من أحلى الصدف التي حدثت لي في حياتي، وأريد أن أعتذر إذا كان شيئًا مما قلته بالأمس قد أهانكِ وجعلكِ مستاءة مني بهذا القدر.

ازداد وجهي احمرارًا وابتسمت.

***

انشغلت به عن جدتي والعهد والشياطين والسحرة والجن، وتوارت هذه الذكريات تحت ستار كثيف من اللقاءات في الكلية وخارجها في سيارته الخضراء الفارهة، حتى «هناء» خرجت من حياتي بسهولة كما دخلت، أو ربما

لم يعد لها مكان، فقد لعبت دور الوسيط ببراعة، وأينما كانت فسأظل مدينة لها، تصورت أن حياتي تغيرت إلى الأبد، حتى جاء يوم سمعت نقرات على بابي والمشرفة تدعوني للذهاب لغرفة الاتصال، ارتبكت وأسرعت إلى الغرفة وأمسكت التليفون، وسمعت صوت أبي الباكي من الطرف الآخر يقول:

- جدتكِ « تغاني» في ذمة الله.

مالي - وسط أفريقيا 2010

هبطت الطائرة القادمة من «إيطاليا» في مطار مدينة «باماكو» عاصمة «مالي»، ونزلت من الطائرة عازمة أن أختلط مع جموع البشر، ولكن ظللت بملامحي وملابسي الأوروبية مثل الشعرة البيضاء الأولى في رأس من الشعر الأسود الكثيف، ابتسامة الأهالي المرحبة والفقر المدقع هي ما لفت انتباهي في صالة الوصول فقيرة الحال، ومع ابتسامة الجميع كأنهم لا يحملون أي هموم، هدأت نفسي وحملت حقيبتي واتجهت إلى خارج المطار، وفي الخارج وقف الأب «جوناثان» يحمل لافتة عليها اسمي، ضحكت بداخلي بصوتٍ مرتفع، فلم يكن يحتاج إلى لافتة، فهو أبيض مني وبالتأكيد لا يمكن أن أغفل عنه بالصليب الذهبي الذي يتدلى على صدر قميصه الأبيض وبنطاله الأسود وحذاءه اللامع، وبالطبع شعره الذهبي الذي يزيده بياضًا، ابتسمت وأشرت إليه.

ركبنا سويًا، في الواقع ركبنا هي وصف غير دقيق، الأدق تكدسنا سويًا في سيارته الصغيرة التي أخذت تنوء بحملها على طريق طويل غير ممهد أخذنا إلى خارج العاصمة، والسيارة تبدو أنها سوف تتفكك من وعورة الطريق وكثرة تعرجاته وثنياته التي أسماها الأب «جوناثان» بالتدليك الأفريقي، منعتني ثرثرة القس وصوت السيارة من النوم كعادتي في أي وسيلة مواصلات متحركة، وتظاهرت بالاستماع له، ولكني في الحقيقة كنت أحارب لإبقاء عيني مفتوحة، والتقطت معظم ما قال عن الكنيسة والحملات التبشيرية التي يقوم بها في القرى والنجوع المجاورة ودار الأيتام الذي بناه، ما روعني حقًا وجعلني أنتبه حالات الاغتصاب، وخاصةً القاصرات والأطفال، وأشدت بمجهوداته لرعاية هؤلاء الضحايا وأطفالهم اللائي أنجبنهن بلا حول منهن ولا قوة.

وصلنا بعد رحلة طويلة، وجدته قد جهز لي غرفة صغيرة ولكن نظيفة، ودعاني للعشاء بعد أن أرتاح قليلًا من وعثاء السفر. وضعت حقيبتي على الأرض الإسمنتية المفروش عليها بساط صغير بالكاد يغطيها، واستلقيت على الفراش

المعدني الصغير ونظرت إلى سقف الغرفة الخشبي، وسألت نفسي: لماذا أنا هنا؟ أهي طريقتي لأجد الغفران من تقصيري في حق ابنتي؟ هل هذا عقاب؟ إني أود فعلًا أن أساعد ولو بالقليل في الوصول لأعوان هذا الملعون، لماذا لم أبحث عنهم في أوروبا أو حتى أمريكا؟ لماذا هذا المكان بالتحديد؟!

هززت رأسي وقلت في نفسي: لقد ساقني القدر إلى هذا المكان فلأبقى هنا حتى أعرف دوري الذي اختارني القدر له، هل سيكون لي دور في هذه الحرب؟ أو على الأقل في الجولة الأولى؟ سأنتظر لأرى بنفسي.

غسلت وجهي ويدي في إناءٍ صغير بجوار الفراش، وخلعت عني ملابس السفر وغبارها وارتديت رداءً طويل الأكمام، وارتأيت أن أغطي شعري بغطاء خفيف تيمنًا بالسيدة مريم العذراء، لم أرَ لها صورةً أبدًا بدون غطاء الشعر، هل هذه مصادفة! تساءلت وأنا في طريقي للعشاء.

على مائده طويلة، جلسوا بوجوههم السمراء الباسمة وعيونهم تحكي ما مروا به في الحياة من مشاق، معظمهم في عمر ابنتي، نزلت من عيني دمعة جاهدت لإخفائها خلف ابتسامة، حاولت أن أجعلها تخفي الحزن الذي يعتصر قلبي، جلست على رأس المائدة وجلس القس بجواري وطلب مني أن أقوم بصلاة قصيرة كعادة الأوروبيين المتدينين عند رغبتهم في الترحيب بالضيف، وضعت يدي في وضع الصلاة وقلت:

- بارك لنا أيها الرب في الطعام الذي سنأكله وبارك في اليد التي أعدته، وأشكر هؤلاء الطيبين على استضافتهم لي هنا، وأتمنى ألا أكون ضيفة ثقيلة، آمين..

كان الأكل بسيطًا ولكنه لذيذ، والحق كنت جائعة وأكلت بنهم، دعاني القس الطيب لأشاركه فنجانًا من الشاي في مكتبه الصغير، أشعل غليونًا من العاج وبدأ في الكلام:

- لا أخفي عليكِ، أنا أحتاج إلى امرأة هنا تساعدني خاصةً مع البنات المراهقات

اللائي نستقبلهن طوال الوقت، يحتجن إلى من يفهم ما يمرون به بدون خجل، ولعل قدومكِ مؤشر من الرب، لقد سعدت جدًا عندما أخبرني الأب «إيمانويل» بخبر وصولكِ.

نظرت إليه بدهشة وبعض الاستنكار، وقلت:

- أنا فقط جئت للزيارة ولم أنوِ البقاء قط، كل ما أردته أن أعرف عن «مولوخ» و«الطوارق» وغيرها من الأشياء التي سوف تساعدني على فهم ما حدث لابنتي، ولم أكن أنوي أن يكون هذا شيء دائم أبدًا.

هز رأسه في تفهم وقال:

- لقد حكى لي الأب «إيمانويل» في مكالمة تليفونية طويلة ما مررتِ به، وبالطبع لا أستطيع أن أطلب منكِ أن تبقي معنا هنا، ولكن ألا تظنين أن الرب قد أراد لكِ أن تكوني في هذا المكان بالتحديد؟ ربما لتكوني أمًا بديلة لبناتٍ في نفس سن ابنتكِ القديسة، ويحتاجون من يحتضنهم ويحنو عليهم، رجاءً لا تظني أنني سوف أحاول أن أضعكِ في موقفٍ يفرض عليكِ فرضًا، بل دعيني أولًا أخبركِ عن هذا المكان العجيب المليء بالتناقضات، وأتمنى أن يتسع صدركِ لبعض الحقائق التاريخية عنه، ثم نتحدث عن «مولوخ».

هززت رأسي فتابع قوله:

- الديانات السائدة هنا هي المسيحية والإسلام، وهناك أديان أخرى قديمة مندثرة، ورغم ذلك يوجد في كل قبيلة ساحر يقال له «هوجن» يحترمونه وقد يصل الأمر في بعض الأحيان إلى العبادة، يعيش الساحر عادةً في كهف مرتفع على تل من التلال المحيطة بالقرية في عزلة عن باقي القبيلة، وتقوم على خدمته بنت صغيرة عذراء يتم اختيارها، أو لتحري الدقة تُباع للساحر مقابل بعض الماشية أو اتقاءً لشرِّه، وعندما تبدأ في التحول من فتاة صغيرة لامرأة شابة، يتم التخلص منها واستبدالها.

- وماذا يحدث للقديمة؟

- سؤال مهم، معظمهن لا يستطعن العودة إلى قبيلتهن، فيكون عندهن الاختيار أن يرحلن ويبدأن الحياة في مكانٍ آخر، أو يمُتن جوعًا أو عطشًا، أو ينتهي بهن الأمر في بيت من بيوت البغاء المنتشرة هنا طبعًا، بعضهن يأتين إلى الملجأ حاملين داخلهن أطفالًا من اعتداء السحرة عليهن بشكل شبه يومي، أطفال تحمل أطفالًا بلا حول ولا قوة، وبالطبع الكثير منهن ينزفن في كهف الساحر ويمتن ويُدفن بمعرفته، وبدون أي اعتراض من الأهالي.

- والحكومة والشرطة، أليس لهم دور في كل ذلك؟!

- الحكومة لا تريد صدامًا مع السحرة وأعوانهم، وطبعًا الفساد والرشوة يدفعهم لملء بطونهم وإغلاق عيونهم وخاصةً أن أعوان السحرة يديرون بالسلاح الاتجار بالبشر وتهريب السلاح والأعضاء، بالطبع يوجد جمعيات غير حكومية ومؤسسات عديدة لرعاية الأطفال والنساء من الضحايا تعمل تحت حماية الجيش، وما أن تصطدم هذه المؤسسات بسلطة الساحر لا يستطيع الجيش أن يتدخل، أو يتدخل بعد فوات الأوان للشجب وللظهور أمام العالم بالمظهر المتحضر.

- العالم! أي عالم وأي تحضر! أين الدول الكبرى والأمم المتحدة؟

ضحك بشدة حتى أصابته نوبة من السعال، أخرج من درج مكتبه بخاخًا أستخدمه للمساعدة على التنفس ثم قال في مرارة:

- عفوًا، لم أقصد الإهانة يا سيدتي، ولكن يجب أن تعرفي أن أفريقيا بالنسبة للعالم والدول الكبرى تحديدًا، مرعى، يحصدون ما فيه من خيرات، ذهب وأحجار كريمة وماشية ومحاصيل زراعية وغيرها، ولا يأبهون بموت إفريقي واحد أو مليون طالما الطعام والأموال لا زالت تتدفق داخل بنوكهم ومؤسساتهم، إن احتياطي الذهب لفرنسا هو الأعلى بين الدول رغم عدم امتلاكهم لأي

منجم من مناجم الذهب، كل هذا الذهب خرج في الأصل من هذا المكان المعدم «مالي»، تخيلي إذا استخدم هذا الذهب في بنية تحتية أو تعليم أو صحة، ستتحول هذه الدولة إلى دولة متقدمة، دعينا من السياسة، ودعيني أخبركِ عن «الطوارق».

صببتُ لنفسي بعض الماء لأستطيع ابتلاع هذا الكم من المعلومات المؤسفة وأشرت إليه ليتابع:

- كما قلت لكِ أنني أقوم برحلات تبشيرية كل فترة في المناطق المحيطة، وأردت أن أستكشف سلاسل الجبال الواقعة شمال «مالي»، ووجدت دليلًا من «الطوارق» يعرف المنطقة كما يعرف كف يده، أخذني هناك ووجدت معبدًا مقامًا تحت الأرض، حوائطه مزخرفة بالكلمات والرموز التي لم أستطع تفسيرها، فالتقطت الكثير من الصور وعكفت على دراستها دون جدوى، حتى قابلت بروفيسور مختص في اللغات القديمة في أحد المؤتمرات وأريته الصور، كان مذهولًا مما رأى وأخبرني أن اللغة هي عبرية قديم، ربما التي كتبت بها التوراة الأولى، وكان تفسيره للكلمات غريبًا وربما يتناقض مع ما كتب في العهد القديم عن «سليمان» وحربه مع «مولوخ» التي انتهت بحبسه في هذا المعبد.

- حبسه؟ هل تعني أنه محبوس الآن في هذا المكان!

تجاهل سؤالي وأكمل:

- كانت هناك كتابات تبدو حديثة وهذه فسرها لي أحد كبار السن هنا لأنها كتبت باللغة البابارية القديمة، وهي لغة سكان المنطقة وتحكي عن خروج الملعون بعد حادث وقع لم أعرف تفاصيله، ولكنه تضمن سيل دماء ساعدت في تحريره، وتتحدث عن نبوءة بخروج ملكة فرعونية ستحارب الشر وتنتصر عليه، ولكنها ستكون معركة وليست الحرب الأخيرة التي ستستمر حتى آخر الزمان.

- ومن هذه الملكة الفرعونية؟ أفترض أنها من مصر إذن، متى ستأتي؟

- هذا غير واضح، ولكن ما لفت انتباهي أن هناك نوعين من السحرة، الدجالين، وهؤلاء اعتدت التعامل معهم وتنحصر خطورتهم في التهديدات التي لا تثمر عادةً عن شيء، والنوع الآخر وهو الأشد خطورة مثل الساحر الذي يسكن قريبًا من هنا وله قدرات خارقة عن المألوف، أظن أنه مرتبط «بمولوخ» برباطٍ معين يتيح له القيام بهذه الأعمال الخارجة عن المألوف بمساعدة الملعون أو أحد أعوانه.

- ما الذي يجعلك متأكدًا؟

- «ليز».

- عفوًا!

- «إليزابيث» طبيبة أمريكية جاءت ضمن حملة أطباء بلا حدود وأقامت في قرية قريبة تحت سفح التل الذي يقيم فيه هذا الساحر بعد تفشي مرض معدٍ بين أبناء القبيلة، لاحظت اختفاء نساء وأطفال بكثرة بعد سحب عينات من الدماء بشكل عشوائي من أهالي القرية، مما زرع الشك في قلبها أن خلف هذه الاختفاءات شبكة للإتجار بالبشر والأعضاء، طبعًا ذهبت إلى السلطات بمخاوفها وأدلة عديدة، وبعد أيام عثر على جثتها ممزقة كأنما هاجمها حيوان متوحش نهش لحمها وتركها في الصحراء، وطبعًا شجبت الحكومة ونددت وانتهى الموضوع، توجد حوادث مماثلة لدور رعاية تم حرقها عن آخرها وبعثات تم ترهيب أعضائها، وأظن كلها للتغطية على أنشطة مشبوهة.

ساد صمت طويل في الغرفة، كنت مصدومة من هول ما سمعت ولكني أيضًا عرفت أني في المكان الصحيح لأبدأ معركتي الشخصية في رحلة انتقامي ممن تسبب في مقتل ابنتي، قام من خلف مكتبه وجلس أمامي وقال:

- أعرف أن كل هذه المعلومات لربما أسهمت في جعل قراركِ بالرحيل سهلًا، ولكننا في أشد الاحتياج إليكِ، وخاصةً عندما أسافر ولا يوجد من يتولى أمر

الصغار، لا أريد أن أثقل عليكِ ولكن أريدكِ أن تعديني أن تفكري في الأمر بجدية.

هززت رأسي وغادرته إلى غرفتي والأفكار تدور في رأسي كالإعصار.

***

تسع سنوات مرت عليّ في هذا المكان، لم تخلُ من الإثارة والاصطدام بأعوان الساحر والدجالين والقوافل التي تمر على القرى لشراء البنات والنصب على الفتيان والرجال بأحلام الهجرة والحياة الآدمية، لم تصل هذه الصدامات للقتل أو الحرق، ولكنها صدامات جعلتني أدرك أن حربي مع هذا الملعون لم ولن تنتهي. واستطعت في هذه الفترة إنقاذ عدد كبير من النساء والأطفال، وجاءت «ترينو» هشة، ضعيفة، حكت لي قصتها وشاهدت علاقتها «بفوستين» تنمو وتزدهر وأنا أرعاها وأدعمها.

وحان الوقت، وجاءت «بشرى»، ورقص قلبي فرحًا، فقد بدأت المعركة.

كفر الحمام 2008

كانت جنازة جدتي مهيبة، الحضور غفير ولا يوجد مكان لقدم، لقد عاشت حياةً مليئة وأثرت في حياة الكثيرين، وكان أكثر الناس حزنًا أخوها «سلامة» الذي لازم غرفتها ولم تجف عينه حتى بعد الوفاة بثلاثة أيام.

في اليوم الثالث، سمعت نقرًا خفيفًا على باب غرفتي، فتحت الباب فوجدته واقفًا، وأعطاني صندوقًا صغيرًا من الصدف وابتسم ابتسامةً حزينة من بين دموعه، حملت الصندوق وجلست على فراشي مترددة، أحسست أن هذا الصندوق سوف يغير مجرى حياتي، وضعته على منضدة جوار فراشي وأدرت ظهري إليه وأغلقت عيني، تسللت إلى أنفي رائحة بخور خفيفة ودقات دفوف تصاعدت خافتة، فتحت عيني فتوقفت الأصوات، أدرت عيني في الغرفة المظلمة فلم أرَ شيئاً، أغلقت عيني مرة ثانية فعاد صوت الدفوف خافتًا وبدأت الغرفة تضيء بنور خافت، فتحت عيني فرأيت شعاعًا من النور يخرج من الصندوق، مددت يدي مرتجفةً نحو الصندوق وفتحته مع تصاعد أصوات الدفوف، فخرج منه ضوء أبيض ساطع فأغلقت عيني في ألم وفتحتها، فوجدت نفسي في مكانٍ آخر غير غرفتي، مكان لا أستطيع وصفه، أبيض اللون بلا حدود ولا اتجاهات، لا شمال ولا جنوب ولا شرق ولا غرب ولا جدران ولا أرض، ونبضات من الضوء تأتي وتذهب في تناغم ودقات الدفوف ورائحة البخور تخدر الحواس.

ظهر فجأة أمامي كائن أثيري يبدو أن له أطراف عديدة يقترب مني وتلامس أطرافه وجهي في رقة، وصوته كرنين آلاف الأجراس، يقول بلا شفاه:

- أهلًا بكِ آخر سلالة «سيتالي» وآخر حراس المعبد..

- أين أنا؟ هل أنا نائمة؟

سألته في دهشة.

- لا هذا ولا ذاك، أنتِ في حالة نشوة تتجاوز الزمان والمكان والذات، جزء من إدراكِ حُمل إلى هذا المكان لتلتقي فيه بالأحباب ونشاهد لمحات من ماضينا وحاضرنا، هنا نلتقي وهنا نفترق.

- ومن أنت؟

- أنا الدليل، الخريطة للمكان، أو كما يقول الشاعر

«أراني كالآلات وهو محركي

أنا قلم والأقدار الأصابع»

دعنا من هذه الأسئلة ولنبدأ الرحلة، تذكري يجب أن تفتحي الصندوق أولًا!

- تصورت أني فتحت الصندوق!

- لا لا، نفسكِ تتوق لفتحه ولكن أناملكِ لم تقربه بعد.

فجأة، ظهر الصندوق أمامي، فمددت أصابعي وفتحته.

***

ظلام، شجرة وحيدة على بعد بجوارها نار تلتهم خشبًا، السماء سوداء كرداء سهرة مُرصع بالألماس، النجوم متناثرة والقمر كبير يحتضن الأرض أو ربما تحتضنه الأرض، أمشي نحو الشجرة، هناك من يجلس يقلب في النار، تتسع عيناي في دهشه وأصرخ:

- جدتي، هل أنتِ هنا فعلًا؟ هل لا زلتِ على قيد الحياة؟

ارتميت في أحضانها وهي تمرر يدها على شعري في حنان، ظللنا في عناق طويل حتى ربتت على ظهري فاستقمت وجلست بجوارها فقالت:

- لقد تركت لكِ في الصندوق ميراثكِ وطريقكِ الذي كُتب عليكِ، وهي خطى

مشيناها جميعًا منذ قديم الأزل، أعلم أني أخبرتكِ قبلًا أن لكِ حرية الاختيار، ولكن في الحقيقة عندما أخذت جدتكِ العهد من النبي سليمان كتب علينا أن نحارب الشر ونسلم لأمر الله.

أردت أن أتكلم أو أعترض ولكنها أشارت إليّ قائلة:

- لا داعي، أعرف ما ستقولين وما يدور بداخلكِ من صراع بين حياة طبيعية تريدين أن تعيشيها وحياة أخرى أصفها لكِ لا تعلمين عنها شيئًا، صدقيني يا ابنتي أنا أيضًا لم أقبل هذه الحياة عندما حان وقتي، ولكن الشر يعرف من نحن ويعرف خطورتنا على وجوده، وسوف يجلب الحرب إلينا، سوف يهدد أحبابنا بالأذى وساعتها لن ينفع الندم. في الصندوق ثلاثة أغراض، أعطيتكِ سالفًا مقبض الخنجر وهو بدون نصل لأن نصله فُقد في معركة سابقة ولم ننجح في استعادته حتى الآن، وهو ليس خنجرا فقط بل مفتاح من خمسة مفاتيح، تستخدم لفتح بوابة في معبد في الصحراء شمال «مالي»، عندما تجتمع الخناجر الخمس يفتح الباب ويحبس المارد، وللخنجر قدرة أيضًا على قتل الكهنة الأوائل وهم أعوان «مولوخ» الذين يساعدونه ويديرون أعماله ويملكون من القدرة والسحر ما يجعلهم يظهرون للناس بقدرات خارقة فيسيطرون على أصحاب العقول الضعيفة. وداخل الصندوق أيضًا كُتيب صغير يحتوي على تعاويذ وطلاسم لإبطال السحر، جمعها أحد كبار حراس المعبد في بابل من تعاليم الملكين.

قاطعتها في دهشة:

- الملكين! تعني «هاروت» و«ماروت»!

- نعم، لقد جمعها في هذا الكتيب وهي ليست سحرًا بل تعاويذ لإبطال السحر، ويجب أن تحفظيه عن ظهر قلب، فسوف يأتي الوقت الذي تحتاجين فيه هذه التعاويذ.

قاطعتها صائحة:

- لا أريد هذه الحياة، سحر وشر وتعاويذ، لماذا لا أعيش مثل الإنسان الطبيعي؟

- لأنكِ لستِ إنسانًا طبيعيًا يا صغيرتي، أنتِ قوة من قوى الخير، طاقة صافية من النور، أنتِ المختارة ونسلكِ سيحملون الرسالة شئتِ أم أبيتِ، وسوف تقاتلون في الحرب المقدسة في آخر الزمان، وليس لديكِ في الحقيقة أي اختيار. والآن، آخر غرض في الصندوق..

- ألن تحكي لي حكاية الملكين أو حتى تفسير الطلاسم؟

- هذا شيء ستعرفينه بنفسكِ، فأنا لا أملك كل هذا الوقت، الغرض الثالث هي سلسلة من الذهب فيها حجر أخضر، لن أخبركِ عن قوة الحجر ولا أهميته، ولكن ما أستطيع قوله لكِ، يجب أن تظل هذه السلسلة حول عنقكِ ولا تخلعيها أبدًا.

ثم أمسكت بيدي ونظرت إليّ في حنان وقالت:

- أخبري «سلامة» ألا يحزن عليّ، فأنا في مكان أفضل مع من أحبهم، وأخبريه أنه ليس وحيدًا. والآن يجب أن أذهب يا ابنتي.

قالتها وتحولت لآلاف الشموس الصغيرة وبقيت وحدي، النار أمامي والسماء السوداء والصمت. ظللت أحاول استيعاب كل ذلك حتى ظهر أمامي الكائن الأثيري وقال في صوته الذي يشبه رنين الأجراس:

- لقد حان وقت عودتكِ، الآن وقد فتحتِ الصندوق لم يعد لديكِ اختيار، فكما أنا لا أملك سوى أن أكون هذا الكائن الذي ترين أمامكِ حتى نهاية الزمان، أنتِ لا تملكين تغيير ما اختاره لكِ القدر، وتكونين طرف في المعركة المستمرة بين الخير والشر.

انحنى الكائن نحوي ولامس جبهتي بطرفٍ من أطرافه الكثيرة، ففتحت عيني لأجد نفسي في غرفتي وقد فتح الصندوق وبدأت المعركة.

وسط أفريقيا 2023

تكومت في القطار المتجه للشمال، نجحنا بصعوبة في إقناع قائد القطار أن يساعدنا على الهرب من «ماركوس» وأعوانه، العزيزة «مارجريت» رفضت الهرب قبل أن تطمئن على ما تبقى من أطفال الملجأ، تركتهم في رعاية الأب «جوناثان» بعد أن تأكدت أن «ماركوس» وأعوانه لا يعنيهم الملجأ في شيء بل هم يبحثون عني أنا و«بشرى»، ولولا أني سمعت من «بشرى» الحكاية بالتفصيل لم أكن لأصدق أن في هذه الدنيا كل هذا الشر، وليس شرًا عاديًا فهناك إله من جنس الشياطين وله أعوان في درجات مختلفة مثل الجيش، له في كل قارة كاهن أعظم يتحكم في كل الشرور وتسهيلها وتحته السحرة وأعوانهم والمرتزقة وجنودهم، وكنت أظن أن الساحر الذي عملت في خدمته سنوات هو أشر الناس، وعندما طعنته في صدره تصورت أني قد قضيت على الشر، ولكن كتبت له النجاة وأطلق كلابه للبحث عني في أنحاء البلاد، كنت قد تصورت أني وجدت مكانًا آمنًا سأقضي فيه ما تبقى من عمر بلا صراع ولا خوف، ولكني وأنا في السابعة عشر من عمري جالسة القرفصاء في مخزن من مخازن قطار بضائع عشوائي ينهب الأرض نهبًا نحو الشمال، أتمنى أن تعرف «مارجريت» إلى أين نحن ذاهبون.

نادتني «مارجريت» بصوت خافت:

- «ترينو» هل أنتِ جائعة يا صغيرتي؟، يجب أن تأكلي شيئًا للحفاظ على قوتكِ، فالطريق شاق ولا ندري متى سيكون عندنا وقت للراحة والطعام والشراب!

نظرت إليها نظرة امتنان وقلت:

- شكرًا، هل تظنين أنه بخير؟

ابتسمت وقالت لي في حنان:

- «فوستين»؟ تعلمين شيئًا، هذا الفتى وكأنه خلق من نوع نادر من الفولاذ الصلد، نفس النوع الذي خلقتِ منه يا صغيرتي، لقد تعلمت منكم الإصرار والشجاعة والاستماتة في الدفاع عن النفس والآخرين.

وأردفت قائلة:

- عندما جاء «فوستين» إلى الملجأ رغم ما فيه من جروح رأيت فيه رجولة رغم صغر سنه ونهمه للتعلم والقراءة، وعندما اشتد ساعده بدأ في رعاية الأطفال الأصغر سنًا، حتى أنا كنت أشعر بالأمان في وجوده، عندما هاجم «ماركوس» ورجاله الكنيسة والملجأ، قاتل كالأسد الهصور.

ربتت على كتفي وقالت:

- لا تقلقي عليه، وحاولي الحصول على بعض الراحة فالطريق طويل.

تناولت كسرة خبز وبدأت آكلها ببطء وأنا أتذكر ما حدث، كان قد مر يومان على وصول «بشرى» إلى القرية بعد أن تركت بعثة أطباء بلا حدود وقررت البقاء مع مجموعة صغيرة من الأطباء من جنسيات مختلفة لفترة أطول بعد ازدياد حالات الإصابة والصراع بين العلم ممثلًا في «بشرى» وزملائها والخرافات والجهل في سحرة القرى وما يملكون من نفوذ وسيطرة على عقول الفقراء والمعوزين، ومع ازدياد حالات الاختفاء والتي أثبتت تورط «ماركوس» وأعوانه في الإتجار بالأعضاء والبشر كان لا بد من توحيد القوى لمواجهة هذا الشر.

أخبرت «مارجريت» «بشرى» عن ابنتها وتبادلنا المعلومات، وعرفنا وقتها من نحارب، الشيطان «مولوخ» الذي يحرك كل شيء منذ قديم الأزل وهذا مستحيل قتله والقضاء عليه، يحتاج ذلك للخمسة خناجر مجتمعين والخمس حراس من خمس قبائل أخذت العهد لحبسه في المعبد في الشمال، في المرتبة الثانية وهم الكهنة وعادةً يرتدون رداءً أسود ولديهم قدرات شبه خارقة وهؤلاء يمكن قتلهم باستخدام خنجر واحد وطبعًا الأعوان والتابعين وهؤلاء عاديون ويمكن قتلهم

مثل الساحر و«بلايك»، عرفنا عدونا والآن حان وقت المعركة.

فتحت أبواب الجحيم فجأة، اجتاحت القرية جموع المرتزقة يطلقون الرصاص بغزارة ويمزقون سكون الليل، سيارات الدفع الرباعي تحاصر القرية وتمنع الدخول والخروج، الأهالي داخل منازلهم الطينية لا يجرؤون على الخروج، أما نحن فقد احتشدنا في الكنيسة وقمنا بتحصين الأبواب بالمقاعد الخشبية وتعالت أصوات البكاء والصلاة، وتكونت في وسط الكنيسة دوامة هوائية يتطاير منها الشرر، وظهر فجأة الكاهن الأعظم، انتشرت في الكنيسة رائحة كريهة كبريتية أعرفها جيدًا، عاشت بداخلي سنوات، عينين حمراوين مثل عيون الثعابين، ويرتدي رداءً أسود بغطاء للرأس، وقال في صوت عميق يأتي من أعماق الجحيم:

- أحضروا لي المختارة، آخر حراس المعبد، وإلا ستموتون جميعًا.

اندفع «فوستين» نحوه وهو يصرخ بصوت عالٍ، ولكنه أزاحه بيده كأنه يزيح ذبابة، اندفع جسد «فوستين» إلى الأعلى مترانٍ في الهواء واصطدم بالأرض في عنف وتأوه بقوة، شهقت واندفعت نحوه في لهفة، فرفع يده وبقوة غير بشرية أحسست أن رافعة أمسكت وسطي وحملتني وبعنف ألقتني نحو الركن الآخر من الغرفة.

اندفعت «بشرى» من وسط الجموع وصرخت في وجهه بلغة أجهلها، فاندفع جسده إلى الوراء ولكنه لم يسقط، بل صرخ بصوت عالٍ يصم الآذان، وضعت يدي على أذني وأحسست أن هناك من يطرق على طبلة أذني بحديد ساخن وغبت عن الوعي.

لا أدري ماذا حدث بعدها، ولكني أفقتُ على يدٍ غليظة ترفعني من شعري و«مارجريت» تصرخ ورائحة شواء كريهة تتصاعد من الحرائق التي انتشرت في أنحاء القرية، نزلت كف «ماركوس» على وجهي فسقطت وارتطمت بالأرض

في عنف ونظرت حولي أبحث عن «فوستين» فلم أجده، وجدت صخرة كبيرة بجواري فأمسكتها بقوة وقفزت وضربت «ماركوس» على رأسه، فسقط أرضًا والدماء تندفع من رأسه غزيرة، ومع سقوطه خرج الأهالي من بيوتهم يحملون أدوات الزراعة وغيرها من الأدوات الحادة وهاجموا جنود «ماركوس» بكل ما أوتوا من قوة، وكأن سقوطه كان الفتيل الذي أشعل النار في قلوبهم وربما كانت النار المشتعلة في بيوتهم نفسها هي السبب، وبينما هم مشغولون بالقتال، أمسكت «مارجريت» بيدي وقالت:

- هيا بسرعة لنهرب من هذا المكان، يجب أن نمر أولًا على دار الأيتام لإحضار جزئي الخنجر من غرفتي.

انطلقنا نجري وسألتها:

- ماذا حدث «لفوستين» و«بشرى»؟

- لقد هربا بمساعدة الأب «جوناثان» للقرية المجاورة، ومنها سيركبون سيارة أحد المهربين الذي سيحملهم للحدود الغربية.

- ولماذا لا تبقى وتحارب؟

- يجب إعادة تنظيم الصفوف، فهي تقاتل وحدها وهو يملك أعوانًا وسلاحًا وقوة ضاربة، يجب إعادة الترتيب واختيار أرض المعركة. لا تقلقي يا صغيرتي سينصرنا الرب طالما نحارب الشر، ولكن الآن يجب أن نهرب، فمن الواضح أن «ماركوس» يبحث عنكِ أنتِ تحديدًا، حتى أنه تركهم يهربون عندما وقعتِ أنتِ في يده.

أطلقت لقدمي العنان وبدأت الجري كما كنت أفعل من ثلاث سنوات، تحولت قدماي الحافيتين إلى آلة للجري، جرينا يومًا وليلة حتى وصلنا للقرية المجاورة وقابلنا أحد أصدقاء الأب «جوناثان» الذي ساعدنا على الاختباء في القطار.

في القطار، نظرت إلى «مارجريت» وسألتها:

- ماذا حدث داخل الكنيسة؟ لقد ارتطمت بالحائط وفقدت الوعي بعد صرخة هذا الشيء غير الآدمي!

نظرت نحوي وقالت:

- أشكر الرب أنكِ فقدتِ الوعي، لقد استمر الصراع بين «بشرى» وهذا الشيء لبعض الوقت، وكانت الكلمات غير المفهومة تتطاير يمينًا ويسارا، قوية هذه الملكة الفرعونية، كادت أن تتغلب عليه ولكنه بدأ في استخدام الأطفال والمختبئين في الكنيسة لقلب ميزان المعركة، بدأ يلقي كرات من اللهب على الأبرياء فتلتهمهم وسط صراخ لا يمكن أن أنساه أبدًا، هنا لاحظت شيئًا هاما، قطرات من الدماء تتساقط من يد الكيان المظلم هذا وهنا أدركت أنه ربما يكون مرعبًا ومخيفًا، ولكنه أولًا وآخرًا إنسيّ رغم قدراته الشيطانية، ظهوره فجأة وكرات اللهب أخفت إنسانيته وحقيقة أنه يمكن إيذاءه، تذكرت البندقية القديمة التي يخفيها الأب «جوناثان» أسفل صورة العذراء مريم في الصندوق الخشبي، حملتها وأطلقت الرصاص نحوه، لا أدري أصابته أم لا، ولكني من المؤكد شتّته لحظات أدرك فيها انقلاب ميزان القوى فاختفى تاركًا خلفه جثثًا متفحمة وحطامًا كان يومًا كنيسة.

سألتها في لهفة:

- و«فوستين» ماذا حدث له؟!

- لقد أدركت أن وجودنا جميعًا في مكان واحد يسهل اصطيادنا، ولذلك كان يجب أن نفترق وخاصةً مع إصابته في كتفه وإصابات «بشرى».

نظرت نحوها في هلع فأكملت:

- لقد أصابته رصاصةٌ طائشة من نافذة الكنيسة، ولكنها عبرت دون إصابات

بالغة وعالجتها «بشرى» بسرعة قبل أن يتحركوا، لم يرِد أن يتركَكِ ولكنّي طلبتُ منه رعاية «بشرى»، وتفهم هو عبء هذه المسؤولية فهي الأمل في التغلب على هذا الكاهن وأعوانه ويجب حمايتها بأي ثمن.

نظرت من نافذة القطار نحو السماء والنجوم وسألتها:

- أين نحن ذاهبون الآن؟

- لقد أخبرتني «بشرى» أن هناك قبيلة من «الطوارق» تعيش في الشمال بجوار مجموعة من الجبال، وأعطتني رسالةً لزعيم هذه القبيلة مكتوبة بالعربية وأخبرتني أنه ربما سيوافق على مساعدتنا عندما يرى الخنجر وسوف يقوم بتركيب النصل في المقبض، تقول أن هذه القبيلة من أمهر الحرفيين. عندما يصل القطار سنبحث عن دليلٍ يحملنا إلى الجبال لنبحث عن هذه القبيلة ونرى إذا كان هذا الزعيم سيقبل أن ينضم إلينا في المعركة أم لا، لقد أخبرتني «بشرى» أن هذه الحكاية قديمة والعهد قد قطعه على نفسه زعيم القبيلة منذ مئات السنين، الأرجح أننا لن نجد مساعدة، فليس من المعقول أن يلتزم شخص بالعهد ويورث هذا الالتزام لأبنائه وأحفاده، هذا سابق لأوانه ولا بد للخير يومًا أن ينتصر يا ابنتي، سوابق الهمم لا تخرق أسوار القدر، وقد يصبح الليل شديد الظلام ولكن لا بد للفجر أن ينبثق ويغطي النور المكان ويدفئ القلوب. ارتاحي الآن..

قالتها وأدارت ظهرها ونامت، وظللت أنا أنظر إلى الفراغ وأفكر في حبيبي، أين هو؟ وماذا يفعل؟ وأخذت أدعو الله أن يجمع شمل الشتيتين بعد الفراق.

ما قبل الخاتمة

خرجت الشمس تنشر الدفء في كل مكان وألقت بأشعتها الذهبية على الطريق أمام أربعة أشخاص يجدون السير في الصحراء، هي ليست صحراء بالمعنى المعروف ولكن يمكن أن نقول هي منطقة غير مأهولة جرداء مغطاة بالرمال وتمتد أمامهم، فتبدو بلا نهاية، الأربعة يبدو عليهم الإعياء والجوع والعطش. من بعيد تراءت إليهم أشباح بيوت، أشارت «بشرى» إلى البلدة التي بدأت ملامحها في الظهور، هزَّ «فوستين» رأسه قائلًا:

- تبدو مهجورة، لا أظنها فكرة جيدة الدخول لهذه البلدة، شكلها غير آمن!

قالت بشرى من بين أنفاسها المتلاحقة:

- هل ترى أي شيء آخر في الأفق؟ إننا نمشي منذ عدة ساعات بلا هدف وقد أصابنا الإجهاد، ربما نجد في هذه البلدة مكانًا للراحة وربما بعض الطعام والشراب.

- أرى أن نكمل السير في الاتجاه المعاكس، فقد نجد مدينة ونحتمي بمن فيها ويمكن أيضًا أن نجد مركزا للشرطة أو الجيش!

- «فوستين»، القافلة تسير بقدر تحمل أضعف شخص فيها، ونحن في أشد الحاجة للطعام والشراب والراحة.

استقرت الشمس في وسط السماء مع دخول المجموعة وسيرهم في الطريق الوحيد للبلدة والذي يمر في منتصفها، وعلى جانبيه تراصت البيوت المبنية بالطوب اللبن ومبنى حكومي مهدم من دورين يبدو أنه مبنى خدمي أو مدرسة من الطوب الأحمر، قال «فوستين»:

- سأذهب للبحث في الأنحاء عن بعض الطعام.

قال الرجل:

- عادة يكون هناك بئر من الماء خارج البلدة، سوف أذهب للبحث عنه، هل يمكن أن ترعي الولد؟

هزت رأسها بعد أن ترجم لها «مالك» ما قاله والده، أمسكت بيده واتجهت إلى أول بيت صغير له باب من الصفيح الصدئ ولكن بجوار الباب أريكة من الحجر عليها بساط مهترئ يبدو أنها مكان للجلوس، تعرفه جيدًا من قريتها التي اشتاقت إليها. جلست ووضعت يديها حول ركبتيها في وضع القرفصاء، وتكوم الولد بجوارها، وسرعان ما راح في نوم عميق، تنهدت وحاولت بلَّ شفتيها الجافتين فلم تجد من اللعاب ما يكفي لترطيبهما، تعجبت من مناخ هذا البلد، شديد الحرارة في النهار وشديد البرودة في الليل. أمسكت بالقلادة الذهبية المتدلية من رقبتها وأغلقت عينيها وغرقت في بحر الذكريات.

تخرجها من كلية الطب القسم الباطني والصحة العامة وانتهائها من رسالة الماجستير برعاية الدكتور «درويش» بنفسه، والذي عرض عليها أن تعمل في مشفاه الخاص بإيعاز من ابنه الوحيد. تذكرت نظرات أبيها عندما أخبرته بالعرض وقوله:

- كنت أتمنى يا بنيتي أن يكون لكِ عيادة خاصة هنا في القرية، فتفيدين أهل قريتك وأستطيع أن أتباهى بكِ أمام الجميع، لقد انتظرت هذه اللحظة منذ زمنٍ طويل، ولكني لا أستطيع أن أقف في وجه مستقبلكِ واختياراتكِ.

نظرت إليه في حب وقالت:

- سوف أتكلم مع الدكتور «درويش» لإنشاء قسم للعلاج المجاني في مشفاه، ويمكن لأهالي القرية المجيء للعلاج، فقط أحتاج بعض الوقت.

- أي مشروع مشفى في الدنيا يكون غرضه الربح، ولا أظن الطبيب الكبير سوف يعالج الناس مجانًا وينفق من ماله الخاص لشراء الأدوات ودفع رواتب موظفين وخلافه دون أن يربح شيئًا في المقابل، أي مشروع خيري يحتاج إلى

الكثير من النقود. بالإضافة إلى ذلك فأهل القرية لن يستطيعوا السفر للعلاج بالقاهرة.

أطرقت رأسها في خجلٍ فهي لم تخبره بعلاقتها «بأحمد»، فقد ارادت أن يكون أول لقاء بينهما عندما يأتي «أحمد» لخطبتها منه في بيتهم المتواضع، فكرت قليلًا وقالت:

- ما رأيك أن أطلب إجازة كل أسبوع أو كل شهر فآتي إلى القرية لأُتابع حالة المرضى؟ ومن يحتاج إلى علاج مكثف أو إجراء بعض العمليات أو التحاليل المعقدة يمكن تحويله للمستشفى الحكومي في المركز القريب وأتابعه هناك.

تألقت عيناه فرحًا وقال:

- أحقًا تعنين ذلك؟

- طبعًا يا أحلى أب في الدنيا، أريدك أن تكون راضيًا عني، ومعك حق فبهذا أستطيع رد الجميل لك وللقرية التي أمضيت فيها أحلى أيامي.

***

تذكرت عندما حكت «لأحمد» ما دار بينها وبين أبيها وهم جالسين في سيارته الخضراء الفارهة، فضحك بصوت عالٍ وقال:

- لن تستطيعي، فأنتِ لستِ المرأة الخارقة، وبين عملكِ في المستشفى وتحضيركِ لرسالة الدكتوراه تحتاجين على الأقل يومًا للراحة بين هذا وذاك!

نظرت إليه في استنكار وهي في داخلها تعلم أنه على حق وعقلانيته هذه أكثر شيء لا تحبه فيه، ولكنها تعشق كل ما تبقى منه، هو يفكر بعقله وهي تفكر بقلبها، وكالعادة سبقها قلبها في الرد فقالت:

- بلى، سأقدر ولن أتراجع عن هذا القرار.

- كما تحبين يا أميرتي، ولكن تذكري كلماتي هذه..

انطلق بالسيارة المكشوفة ونغمات موسيقى الراي تصدح من سماعات السيارة الحديثة تصم الآذان، وشعره الأسود الطويل الناعم يتطاير من اندفاع الهواء، قالت في جزع:

- أبطئ السرعة، نحن لسنا في سباق، ثم لماذا هذا الصوت المرتفع؟ هل يجب أن يسمع الناس جميعًا؟ فلنكتفي بسماعه أنا وأنت رغم أني لا أفهم منه حرفًا!

ضحك مرة ثانية وقال:

- دعي الموسيقى تتخلل مسام جسدكِ، وما أن تتوحدين معها وتشعريها في صميم وجدانكِ سيصل إليكِ المعنى بكل وضوح وبدون حاجة لفهم الكلمات، أما السرعة فقد صممت السيارة لهذه السرعة، بالإضافة الى ذلك فأنا سائق محترف. هل تخافين عليّ يا أميرتي؟ لم أكن أعرف أنكِ تحبينني كل هذا الحب!

- الموضوع ليس له علاقة بالحب، بل بالأمان.

- إذن، أنتِ لا تشعرين بالأمان معي!

احمرت وجنتاها خجلًا وقالت:

- لا أشعر بالأمان إلا معك.

***

تذكرت أول يوم عمل لها في المستشفى وانبهارها عندما وجدت أنه يوجد بها قسم للعلاج الاقتصادي كما يسمونه، ويتم فيه معالجة الفقراء والمحتاجين بمبالغ رمزية، وقفزت على هذه الفرصة كما يقفز الأسد على فريسته وطلبت أن تكون مسؤولة جزئيًا عن هذا القسم.

كانت سعيدة بالعمل ولكنها لم تكن ترتاح لكبير الممرضين، شيء في شكله

وتصرفاته أشعرتها بالقلق، رفيع، طويل، يحمل تحت أنفه الكبير شاربًا مدهونًا بمادة شمعية لامعة، هي نفسها التي يدهن بها شعره المصبوغ بصبغة حمراء، على رأس مثلث بجبهة عريضة تحتها عينان جاحظتان، نظرات عينيه يخيل للناظر أنها تخترق الجلد وتتطلع على عورات الجسد، وفوق كل ذلك غلاظته في التصرفات والكلام ورائحة عطره الرخيص الذي يبدو أنه يستحم بزجاجة عطر كاملة كل يوم، ورغم ذلك لا تنجح في إخفاء رائحة عرقه الكريهة.

اصطدمت معه عدة مرات، ولكنه كان في حماية مدير المستشفى شخصيًا، فلا أحد يجرؤ على الاقتراب منه أو الاعتراض على تصرفاته، ولذلك كانت في شدة الإحباط عندما رد عليها في سماجة:

- أنا أنفذ الأوامر يا دكتورة.

ردت بغضب:

- أي أوامر تلك التي تتطلب إجراء هذه التحاليل؟ المريضة تشكو من ألم في المعدة، لقد فحصتها ووصفت لها مسكنًا لآلام القولون وصرفتها، ولكني وجدتها ما زالت في الغرفة، هل يمكن أن تخبرني ما الداعي لهذه التحاليل؟ ثم إنها تحاليل ليس لها علاقة بشكواها!

- ربما يجب أن تدعي هذه الأشياء لي، فأنا أنفذ الأوامر ومع حفظ المقامات أنا أقدم منكِ هنا وأعرف كيفية اتباع التعليمات، اكتفي بالتشخيص ودعي الباقي لي.

تصاعد الدم في رأسها وهي تحدق في ظهره بينما يمشي مبتعدًا في تمايل، لو كانت النظرات تقتل!

اندفعت إلى غرفة رئيس القسم وفتحت الباب بدون استئذان، وقبل أن يبدي اعتراضه لوحت بالأوراق التي في يدها ووضعتها أمامه على المكتب قالت:

- ما معنى هذا؟ مريضه تأتي بألمٍ بسيط فيتم إجراء تحاليل دم وأنسجة عديدة وغير هامة، ويتم إضافة تكلفة هذه التحاليل على ميزانية القسم الاقتصادي، هذا يحرم العديدين من الفقراء من الحصول على العلاج!

نظر إليها في برودٍ وقال:

- عفوًا يا دكتورة، هذه أوامر الإدارة، لقد طلب منا الدكتور «درويش» بنفسه وبقرار من مجلس الإدارة بإجراء هذه الفحوصات لفئة عمرية محددة بغرض تصنيف الأمراض ودراسة التأثير البيئي، وكل ذلك لخدمة الأهالي ووضع بروتوكولات مع وزارة الصحة للحد من الأمراض والأوبئة في العشوائيات.

- وهل يتم ذلك بموافقه المريض؟

- موافقة المريض غير مطلوبة، خاصةً أنهم لا يدفعون تكلفة علاجهم، حتى الدواء مجاني، فما الضرر من إجراء بعض الفحوصات من أجل دراسة هدفها الأساسي تحسين ظروف معيشتهم؟

- هذا غير قانوني واعتداء على حقوقهم الدستورية، من حق المريض معرفة ما يتم في خطة علاجه، حتى الاطلاع أو مشاركة هذه البيانات عن صحة المرضى يعتبر اعتداء سافر على خصوصيتهم

نظر إليها في ملل وقال:

- يمكنكِ أن ترفعي الأمر إلى الإدارة. ونصيحة يا دكتورة، دعي الأمر تمامًا أو دعيني أباشر عملي، فليس عندي وقت لهذه المناقشات، أنا أداة، أنفذ أوامر الإدارة وأتقاضى أجرًا، فلا تضيعي وقتي ووقتكِ.

تركت الغرفة وصممت أن تخبر المريضة عن هذه التحاليل، دخلت غرفة الفحص فوجدتها خالية، والسمج «مسعود» يقف أمام الفراش الخالي يكتب شيئًا في مفكرة سوداء.

- أين المريضة؟

رد في روتينية:

- أصابها هبوط حاد في الدورة الدموية وماتت ونقل جثمانها إلى المشرحة.

نظرت إليه في ذهول وقالت:

- ماتت !! كيف؟ لقد كانت صغيرة في السن وبصحة جيدة!

- أجلها يا دكتورة! أتعترضين على مشيئة الله!

خرجت من المستشفى وهي في صدمة واتصلت «بأحمد» ليقابلها في المطعم المفضل لهما، وحكت له كل شيء، فقطب حاجبيه وتعجب مما سمع مع وعد أن يحقق بنفسه في الأمر، فهو ابن مدير المستشفى وعضو في مجلس الإدارة، طلب منها أن تنتظره ولا تفعل شيئًا حتى يتحرى الموضوع ويصل إلى حقيقة الأمر. ولكنها أخذت التحاليل واتجهت إلى أستاذها ورئيس قسم «الباثولوجي» بجامعة القاهرة، رفع نظارته الطبية وأخذ يقرأ الورقة التي وضعتها أمامه وقال:

- هذه التحاليل يا ابنتي ليست للفحص أو الكشف عن مرض، إنما هي فحوصات لتحديد إن كان هذا الشخص صالحًا للتبرع بالأعضاء أم لا.

***

انتبهت «بشرى» على صوت صفير عالٍ، ففتحت عينيها قاطعة نهر الذكريات، لم تجد الولد بجوارها ورأت دخانًا كثيفًا لم تعلم مصدره يغطي البلدة كلها، ولكنها تعرف هذه الرائحة جيدًا، رائحة الكبريت، رائحة شمتها من قبل وتعرفها جيدًا.

قامت تبحث عن الفتى وتنادي عليه بصوتٍ عالٍ فما من مجيب، ازداد الدخان حتى أصبحت الرؤية متعذرة، رأت وسط الطريق شخصًا يبدو أنه جالس، اقتربت منه في بطء تحاول أن تسبر أغوار الدخان الذي يحرق عينيها، رأت قائمًا خشبيًا صغيرًا يستند عليه رجل، يده مقيدة إلى الخلف بحبلٍ غليظ وتلتف على

جمجمة ماعز بقرون طويلة.

ظلت تقترب حتى أصبحت أمامه تمامًا، وأطلقت شهقة، إنه «فوستين»! جالس رافع رأسه إلى السماء ومكان عينيه ثقبان أسودان وخيطان من الدماء يسيلان منهما على وجنتيه، في جوفه سيف معدني صدئ مغروس فيْ حشايا جسده ويخرج مقبض السيف من فمه المليء بالدماء التي سالت فأغرقت الأرض من حوله.

أغلقت عينيها في قوة، وأمسكت قلادتها الذهبية التي أضاءت بضوء فيروزي هادئ، وظلت تردد «وهم، هذا وهم».. «ألم».. «كهيعص».. «فَوَقَعَ الحَقُّ وَبَطلَ مَا كَانُوا يَعمَلُون»..

ثم فتحت عينيها فلم تجد شيئًا، بل سمعت ضحكة ساخرة تتردد في الأنحاء تعقبها صرخة قوية، جرت في اتجاه الصوت وهي تحاول أن تلتقط أنفاسها والدخان ورائحته تثقل على صدرها، رأت الولد يتدلى من الهواء على بعد أمتار من الأرض وكأن يده مقيدة في عارضة غير مرئية، نادت عليه ففتح عينيه، تراجعت عندما رأت عينيه وقد ابيضتا تمامًا، ثم فتح فمه فخرج منه جرادٌ كبير بأجنحة عريضة، مئات الجرادات زحفت على وجهه وتطايرت حوله في كل الاتجاهات بصوت أزيز منفر.

أغمضت عينيها في قوة ومرة ثانية أخذت تردد بعض الكلمات وقلادتها تومض بنفس الضوء الفيروزي، وفتحت عينيها فلم تجد شيئًا وسمعت الضحكة الساخرة مرة ثانية، فقالت بصوت عالٍ:

- اظهر أيها الجبان، لا تستطيع غير الوهم وتحارب من الظلام مثل سيدك، أخرج فقاتل!

جففت عرقها وقررت أن الوقت قد حان لمقاتلة الملعون قتالًا مباشرًا، أمسكت القلادة بقوه وبدأت في ترديد بعض الكلمات بصوتٍ منخفض، فأضاءت القلادة

بلون أخضر قوي وبدأ الدخان في الانقشاع، ثم سمعت نداء استغاثة يأتي من مكان قريب، بدأت بالركض فوصلت إلى بيت مهدم، اندفعت داخله فوجدت الأب مقيد من قدمه في سقف البيت وتحته حفرة كبيرة مليئة بالأفاعي التي تصدر فحيحًا عاليًا، كان الرجل يصرخ متوسلًا أن تنقذه وهو يتحرك ويحاول أن يحرر نفسه والحبل المربوط به يبدأ في التمزق وبدا لها أن الرجل سيلقى حتفه بعد ثوانٍ قليلة.

أغلقت عينيها مرة ثالثة وبدأت في القراءة، وتعجبت لأن صوت استغاثات الرجل لم يتوقف، فتحت عينيها فوجدت الرجل لا يزال يتدلى من سقف البيت، وقبل أن تتحرك انقطع الحبل وسقط الرجل في الحفرة وتعالى صراخه بعض الوقت، ثم صمت تام.

لقد نجح الشيطان في اقتناص الرجل بخدعة قذرة، انهارت «بشرى» وسقطت على ركبتيها تبكي بشدة، وفي نفس الوقت اندفع فوستين ومالك إلى داخل البيت، نظر «فوستين» داخل الحفرة للرجل الذي انتفخ وجهه من السم وفقدت عيناه بريق الحياة واحتضن الولد مانعًا إياه أن يرى أباه الممدد في قاع الحفرة.

انقشع الدخان وخرجوا ثلاثتهم من البيت بعد الاتفاق على ردم الحفرة، فقد كان من الصعب استخلاص الجثمان من بين أنياب الثعابين.

قالت «بشرى» وهي تجفف دموعها:

- لن نفترق بعد الآن، ولن نسمح لهذا الملعون أن يربكنا أو يوهمنا بعد الآن، الآن هدفنا إيصال «مالك» لأمه والبحث عن «ترينو» و«مارجريت»، والأهم إلحاق الهزيمة بهذا الوغد، انضموا إليّ ولنشكل دائرة، وأغلقوا عيونكم ولا تفتحوها حتى أخبركم.

شكلوا دائرة بأجسادهم وبدأت «بشرى» في ترديد بعض طلاسم الحماية التي تعلمتها، والقلادة تلمع بضوء أخضر شديد، ثم خرج منها ذرات من النور الأخضر

أخذت تدور حول أجسادهم في هدوء ومع ارتفاع صوتها بالدعاء ازدادت حركة الذرات حول أجسادهم حتى شكلت دائرة من الضوء أحاطت بهم، ثم اندفعت الذرات داخل أنوفهم وهدأ كل شيء. طلبت منهم أن يفتحوا عيونهم وما أن فتحوها لمعت عيونهم بضوء أخضر سرعان ما اختفي فقالت:

- هذا كفيل أن يحمينا من أي أوهام يحاول هذا المأفون أن يزرعها في عقولنا، ولن يستطيع السيطرة على عقولنا مهما حاول بإذن الله. والآن فلنتحرك ،فالطريق ما زال طويلًا وشاقًا.

قال «فوستين»:

- لقد وجدت بعض الماء والطعام المحفوظ في المبنى الحكومي، وأظن أنه سيكفي لنصل إلى المحطة التالية من رحلتنا.

تحركت القافلة التي قل عددها نحو أطراف البلدة في اتجاه الشمال، ومنظر جثة الرجل المنتفخة يسيطر على تفكير «بشرى» ويزيد من شعورها بالذنب ويذكرها بماضٍ مؤلم تحاول بقوة أن تنساه.

***

ركبت سيارة أجرة وأخبرت السائق أن يتحرك بسرعة نحو المريوطية وقلبها يدق بقوة، لقد أخبرها «أحمد» أنه بحث في موضوع الفحوصات ووجد أنها فعلًا تتم بانتظام منذ افتتاح القسم الاقتصادي، والأغرب حالات الوفاة المتكررة والتي عادة تنسب إلى هبوط حاد في الدورة الدموية أو سكتة دماغية، ولم يتم تشريح هذه الجثث بل دفنت سريعًا وكأنهم يحاولون إخفاء شيء.

أخبرني بصوت مخنوق أنه تصادم مع الممرض «مسعود» وهدده بالطرد وأنه سيذهب لمواجهة والده، فهو يظن أن أباه لا يعلم أن مستشفاه هي واجهة لأضخم عمليه تجارة أعضاء في مصر وربما العالم العربي، طلبت منه أن يتروى ويهدأ وظلت تحايله حتى وافق على مضض أن يتقابلا في الطريق إلى قصر

أبيه.

أخذت السيارة الأجرة تنهب الأرض نهبًا، حاولت الاتصال به مرات عديدة ولم تفلح، انقبض قلبها عندما قال السائق:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، يبدو أنه حادث، سترك يا رب!

كتلة معدنية خضراء تحت جسد سيارة نقل ضخمة بعرض الطريق، يبدو أنه حاول تفاديها فلم يستطع، ونسمة هواء تزيح ورقه الجرائد التي تغطي وجه الجسد المسجى على الطريق، إنه هو! الدماء تملأ وجهه ولكنه لا زال وسيمًا، لا زال هو أول من دق قلبها من أجله، حبيبها وتوأم روحها، صرخ قلبها في لوعة ونزلت تجري نحوه، ارتمت فوقه تنهمر دموعها بركانًا يشعل الغضب في داخلها، صرخت في رفض وهي تحاول أن تنعش قلبه الذي أحبَّها، قلبه الذي احتواها، أمسكت يده ونادت عليه بلا جدوى.

الدفن، العزاء، الانهيار، الفقد، مشاعر أحست بها مرة ثانية في وسط أفريقيا، الانتقام هي الفكرة المسيطرة عليها الآن كما كانت مسيطرة عليها عندما فقدت حبيبها.

***

من ملفات المستشفى حصلت على عنوان المريضة وصورتها، المريضة التي يدعون أنها ماتت بهبوط حاد في الدورة الدموية، واتجهت إلى هناك، العشوائيات، سرطان ينهش في جسد المجتمع، مكان يرتع فيه تجار المخدرات والبشر وكل شيء محرم، اتجهت كل العيون نحوها من لحظة أن وطئت أرض المنطقة، حاولت أن ترسم ابتسامة على وجهها لتطمئن نفسها أولًا والسكان ثانيًا، ولكن النظرة المتبادلة من السكان كانت مليئة بالعداء من النساء والوقاحة من الرجال، رأت سيدة تجلس تبيع الخضروات وتنظر لها نظرة محايدة فاتجهت إليها وسألتها وعرضت عليها الصورة، فقالت:

- نعم أعرفها، المسكينة ماتت وتركت ثلاثة أيتام، أتعملين في الشؤون الاجتماعية؟

- لا، أنا طبيبة في المستشفى وأردت أن أقابل أحدًا من أهلها، هل زوجها موجود؟

- زوجها الأول في السجن، والثاني لا ندري أين هو، فهو يأتي ويذهب وليس له أوقات محددة، والثالث باع كليته وذهب إلى إيطاليا.

- باع كليته؟ لمن؟ لا توجد قوانين من الدولة لتنظيم تجارة الأعضاء؟!

ضحكت السيدة وقالت:

- الدولة ليس لها علاقة بالموضوع، فهو يتم بشكل دوري، حتى هذا المكان ليس له اسم حكومي ولكننا نطلق عليه «مدينة الكلى» حيث يمكن شراء أي عضو في مقابل مادي طبعًا، وتوجد على أطراف هذا المكان مساكن السود الذين يبيعون أكثر بسعر أقل.

- مساكن السود؟ ماذا تقصدين؟

- القادمون من إفريقيا، من بلاد «الواق الواق»، لا أعرف أسامي بلادهم ولكنهم يقيمون هنا منذ زمن طويل، كانوا يعتصمون في ميدان مصطفى محمود وبعد أن ألقت الحكومة القبض على بعضهم بعد فض الاعتصام هرب الباقون واستقروا هنا.

- هل يمكن أن تأخذيني إلى هناك؟ سوف أجزل لكِ العطاء طبعًا مقابل وقتكِ.

- طالما الموضوع فيه نقود سأذهب معكِ وأيضًا لحمايتكِ، فالمكان شديد الخطورة على أمثالكِ.

قامت السيدة وأمسكت يدها وجرتها خلفها كما يجر الأطفال في الأماكن المزدحمة، وسلكوا طرقًا ملتوية كالثعابين والأماكن تزداد قذارة وفقرًا حتى

وصلوا إلى منطقة منعزلة نوعًا ما، يقطنها أناس سود البشرة، المكان رغم أنه أفقر إلا أنه أكثر نظافة نسبيًا. هبّ ثلاثة عمالقة يسدون الطريق ويتكلمون بلغة غير مفهومة، والسيدة ترد عليهم، وتصاعدت حدة النقاش، والعجيب أن الطرفين لا يفقهوا شيئًا مما يقولونه، وكان لا بد أن تتدخل «بشرى»، فقالت بلغة إنجليزية سليمة:

- هل يتحدث أحد الإنجليزية هنا؟

ظهرت الدهشة على وجوههم والتفتوا نحوها في شك، من أحد الأكواخ خرج رجلٌ يبدو عليه الذكاء والزعامة، وبإنجليزية سليمة رد عليها:

- أنا يا سيدتي أتكلم الإنجليزية، كيف أستطيع مساعدتكِ؟

قدمت «بشرى» نفسها وشرحت الموقف وبحثها عن إجابات لحوادث الاختفاء أو الوفاة العشوائية، وكيف قادتها قدماها لهذا المكان. قال الرجل:

- يمكنكِ البقاء، ولكن هذه المرأة يجب أن ترحل، غير مسموح لها بالدخول، إنها تتاجر في المخدرات ونحن نحاول إبقاء مجتمعنا آمنًا، ولا تقلقي فسوف أصحبكِ إلى الخارج بنفسي عندما ننتهي من اللقاء.

ترددت قليلًا ثم حسمت أمرها ونقدت السيدة بعض النقود فانصرفت سريعًا لا تلوي على شيء. سارت «بشرى» مع الرجل في الطريق، أعين الرجال والأطفال والنساء ترمقهم في فضول، أخبرها الرجل عن حوادث الاختفاء الغامض والخطف وعثورهم على الجثث خالية من الأعضاء بعد أيام من اختفائهم، جثث ملقاة بإهمال في أماكن متفرقة وعجزهم عن إخبار الشرطة لأن معظمهم بدون أوراق وهاربين من الحروب الأهلية في بلادهم، سألته عن المستشفى القريب فأخبرها في سخرية أنهم كانوا يذهبون للعلاج بالمجان، ولكن مع كثرة حالات الموت غير المبررة، طلب من رعيته عدم الذهاب إلى هناك والاكتفاء بالأطباء من الجمعيات غير الحكومية الذين يأتون بانتظام لرعاية الأطفال وإعطائهم

التطعيمات اللازمة، أخبرها أن الوضع صعب ويكاد يكون مستحيل، بالإضافة إلى الهجمات من جيرانهم التي يعقبها حالات الاختفاء.

انتهت زيارتها ووضحت لها كثير من الأمور، ولكنها تحتاج إلى إثبات، دليل قاطع بتورط المستشفى في هذه التجارة المشبوهة، قررت الذهاب إلى مشرحة المستشفى ومن مدخل جانبي تسللت، المكان مظلم والجو بارد ورائحة «الفورمالدهايد» الذي يستخدم في حفظ الجثث تفوح في المكان وتجعل التنفس مهمة شاقة، المشرحة واسعة وبها عدد كبير من الأسرة المعدنية الفارغة وتلك التي تحمل أجسادًا لأُناس كانوا بالأمس يأكلون ويشربون ويلعبون واليوم ينامون عراة على سطح معدني بارد وروحهم سبقتهم إلى البرزخ، على الحائط عدة أبواب مربعة لثلاجات تحمل في طياتها جثثًا أخرى، بدأت في الكشف عن الجثث الواحدة تلو الأخرى فلم تجد على الجثث أي آثار لجروح تدل على سرقة أعضاء، بدأت في فتح أبواب الثلاجات والكشف عن باقي الجثث، وفجأة سمعت صوتًا قادمًا.. ماذا تفعل! لا يوجد مكان للاختباء، تسلقت سريعًا منضدة من مناضد التشريح وغطت نفسها وهي تحاول السيطرة على دقات قلبها، من الركن القصي للغرفة انفتح باب أرضي وخرج منه رجلان يحملان ما يبدو أنه جسد لم تستطع تمييزه في الظلام، قاموا بوضع الجسد على منضدة فارغة وهما يتحدثان ويتمازحان، أغلق أحدهما الباب الأرضي وخرجا من المشرحة. ظلت «بشرى» كامنة لدقائق ثم قامت وفتحت الباب الأرضي، وجدت درجًا من الحجر يتجه إلى أسفل، نزلت إلى الدرج وهي تضيء مصباح هاتفها المحمول، فوجدت ممرًا طويلًا ينتهي بباب أحمر اللون، فتحت الباب في بطء فوجدت غرفة كبيرة مجهزة بأحدث الأجهزة، و«مسعود» منكفئ على الفراش في المنتصف يسجل شيئًا في مفكرته السوداء، كان الضوء خافتًا إلا من المصباح الموجه لمنتصف الفراش، فكرت في التراجع ولكن الباب أصدر صوتًا جعله يلتفت إليها في دهشة، وما أن رآها ابتسم في شراسة وقال:

- لم تستطيعي أن تتركي الموضوع، كان يجب أن تدسي أنفكِ الكبير فيما لا يخصكِ، والآن سوف تدفعين ثمن هذا الفضول غاليًا مثل هذا الأرعن «أحمد».

انقض عليها بسرعة، فتفادته ووضعت قدمها أمامه، فتعثر ووقع على الأرض، قام فنفض غبارًا وهميًا عن ملابسه وأمسك بمشرط جراحي من منضدة الأدوات واندفع نحوها مرة ثانية، فدفعت ذراع جهاز أشعة معلق في منتصف الغرفة فاصطدم بوجهه بقوة وسمعت صوت تكسر أنفه، تأوه في ألم والدماء تسيل من أنفه المكسور وقال:

- أيتها اللعينة! لقد كسرتِ أنفي! ستدفعين الثمن غاليًا..

- بل أنت من ستدفع الثمن غاليًا أيها القاتل..

لمعت عيناه ببريق أحمر وبدأ في التمتمة بكلمات غير مفهومة، وبدأت سحب من الدخان الأسود في التكون داخل الغرفة وأحست «بشرى» ببداية تخدير في جسدها، فقال:

- سوف أسيطر على جسدكِ تمامًا، بعد قليل ستسقطين ولكنكِ لن تفقدي الوعي تمامًا، ستشعرين بما أفعله بكِ قبل أن أحصد أعضائكِ.

قالت في ألم:

- ألن تخبرني كيف قتلت «أحمد»؟ من حقي قبل أن أموت أن أعرف كيف استطعتَ أن تتسبب في حادث رغم أنه سائق ماهر!

قال في زهو:

- بالطبع سوف أخبركِ، حتى تكون دموعكِ على حبيبكِ هي آخر شيء أراه، وأيضًا لتعرفي قدرتنا وخفة حركتنا واستعدادنا لإزاحة من تسول له نفسه الوقوف في طريقنا، سائق النقل هو أحد أعواني وقام بغلق الطريق أمامه وقام آخر بسكب زيت على الطريق حتى لا يستطيع السيطرة على السيارة وعندما

يكبس المكابح يفقد السيطرة أكثر، وأفضل شيء أني كنت هناك وشاهدت كل ذلك بنفسي، سيارته وهي تصطدم بسيارة النقل وروحه وهي تفارق جسده، المتعجرف يهددني أنا بالطرد، أنا الآمر الناهي، حتى أباه يأتمر بأمري ويسكت على تجاوزاتي في مقابل ملايين الجنيهات التي تدخل حسابه البنكي، وخوفه من سيدي «مولوخ» الذي يحميني ويدعمني، وحتى إن حاول التملص ففي مفكرتي السوداء تلك كل أسراره وأسرار غيره وكل شخص خطفناه وحصدنا أعضاءه وشحناها حول العالم لمن يدفع أكثر، وستكونين أنتِ أيضًا سطرًا فيها مثل من سبقوكِ.

كانت «بشرى» تستمع له في صبر وهي جالسة على الأرض في ألم، فلما انتهى أمسكت بقلادتها بقوة فأضاءت بضوء أخضر ساطع، قامت ونظرت له في شماتة وقالت:

- وأنا المحاربة الأخيرة من محاربي المعبد أيها الوغد، وسأنتقم منك وسيجري سيدك أمامي وذيله بين قدميه.

زاد الضوء الأخضر سطوعًا وهي تتمتم بآيات من القرآن وتعاويذ حفظتها من كتاب جدتها الصغير، أخذ «مسعود» يتلوى من الألم وعلى وجهه ملامح ذهول واندفع الدخان الأسود هاربًا من فتحات التهوية في سقف الغرفة وبدأ وجه «مسعود» في الاحمرار وبدأ يصرخ من الألم ويقول «مستحيل»، ومع آخر حرفٍ من حروف الكلمة اشتعلت النيران في جسده وسقط على الأرض يتلوى من الألم حتى همدت حركته تمامًا.

التقطت المفكرة السوداء من على الفراش وقلبت فيها وعلى شفتيها ابتسامة انتصار. كان خبر القبض على أكبر شبكة لتجارة الأعضاء برئاسة طبيب شهير وصاحب مستشفى كبير يتصدر صفحات الجرائد ومنصات التواصل الاجتماعي، كانت «بشرى» جالسة في غرفتها تقرأ الأخبار بلا مبالاة حتى رأت إعلانًا عن فتح باب التطوع في جمعية أطباء بلا حدود للسفر إلى أفريقيا لعلاج الأهالي

والسيطرة على الأمراض المتفشية، أحسست أن هذا الإعلان إنما هو نداء لها لتواصل معركتها مع الشر، كل الشر.

***

أشار «فوستين» إلى خط سكة حديد قديم مغطى تقريبًا كليًا بالتراب والحصى والنباتات وقال:

- هذا الخط بناه الفرنسيون لنقل الذهب من الجنوب إلى الشمال ومنها لفرنسا عن طريق الجزائر، يمكن أن نتبعه.

قالت «بشرى»:

- يجب أن نجد ملجأ، فقد أوشكت الشمس على المغيب ولا ندري نوع المخاطر التي سنواجهها.

أشار إلى سحابة من الغبار ظهرت فجأة عن بعد وقال:

- يبدو أن المخاطر قد وجدت طريقها إلينا، هناك، لا أظن أن هذه الأتربة تبشر بالخير، لا أدري لماذا يجدونا بهذه السرعة، شيء عجيب!

- ليس عجيبًا، إنها تعويذة المنارة.

- عفوًا، تعويذة ماذا؟

- لنجري الآن وسأشرح لك.

انطلقوا يجرون بلا هدف، فقط بعيدًا عن اتجاه الخطر. وقالت «بشرى» بين أنفاسها اللاهثة:

- كل شيء في الدنيا يهتز باستمرار بما فيه ذرات الإنسان، ونتيجة هذا يكون له تردد مغناطيسي معين يمكن تضخيمه بتعويذة المنارة، فتسهل على أي شخص العثور على الشخص الآخر في أي مكان في الأرض، لقد قمت بعمل هذه

التعويذة قبل مغادرتنا للكنيسة وعلمتها «لمارجريت» حتى تستطيع العثور علينا إذا افترقنا، يبدو أن الساحر أو أحد أعوانه قد توصل إلى هذا التردد ويستخدمه للوصول إلينا.

- يا إلهي! يمكن إذن أن تكون «ترينو» على قيد الحياة!

- دعنا نأمل أن تكون ونكون نحن أيضًا على قيد الحياة، فقد أرهقنا الجري ولا أرى أي ملجأ في الأفق، وقد غربت الشمس تقريبًا، وبعد دقائق سيعم الظلام.

انقضَّ الليل يلتهم ما تبقى من نور الصباح وأرغم الظلام الثلاثة على التوقف، أخذوا يلتفتون حولهم و«فوستين» يحاول أن يشعل ناره، سمعوا صوت زمجرة شرسة تأتي من حولهم، وكما تضيء المصابيح أضاءت حولهم في دائرة كاملة عشرات العيون الحمراء، قال «فوستين»:

- كلاب برية، إنها أكثر الحيوانات شراسة، هل ممكن أن تكون وهمًا؟

ابتسمت «بشرى» في توتر وقالت:

- ليست وهمًا، فتعويذه الحماية من الوهم لا زالت مستمرة وستمنعه من السيطرة على عقولنا، يبدو أن الوغد قد أعد لهم وليمة حافلة من لحومنا وعظامنا، يا الله يا مغيث أغثنا!

أمسكت قلادتها التي أضاءت بضوء فيروزي ضعيف فقالت:

- لا توجد قوة في القلادة للتغلب على كل هؤلاء، يجب أن نلجأ للحيلة.

قال «فوستين»:

- ماذا تقترحين؟ لقد أشعلت النار ولكنها لن تكفي لإبعادهم فترة طويلة.

- ليس من المهم فترة طويلة، ولكن على الأقل لكي أستطيع تجربة تعويذة الحماية هذه، هي معقدة وتتطلب جهدًا كبيرًا وتركيزًا.

- سوف أحاول إبقاء النار مشتعلة لأطول فترة ممكنة، ولكني قلق على «مالك» لم ينطق بكلمة منذ خرجنا من البلدة!

نظرت «بشرى» نحو الولد في ألم وقالت:

- لقد فقد أباه، ويبدو أنه في صدمة، لا أعرف ماذا نستطيع أن نفعل له الآن، ولكن كل ما نستطيعه هو البقاء على قيد الحياة.

جلست على الأرض وأخرجت كتيبًا صغيرًا، ظلت تقلب فيه، وأخرجت من علبة صغيرة بعض الأحجار، فرصتها في شكل نجمة خماسية وكتبت على الرمال حرف الحاء في المنتصف وحول النجمة، وفي شكل دائري كتبت الرقم ستة وكررته وهو الرقم المقابل لحرف الحاء في ترتيبه الأبجدي، وبدأت في ترديد كلمات بلغة قديمة، ومع ترديدها أخذت الأحجار تبرق وتلمع في ألوان مختلفة زاهية، ومع ارتفاع صوتها بالقراءة انتقلت الأضواء من حجر إلى حجر في سرعة والضوء يشتد حتى توقف فجأة وساد الظلام مع انطفاء النار.

اقتربت العيون الحمراء منهم وشعروا بأنفاس الكلاب الكريهة على بعد سنتيمترات من وجوههم، وارتجفت قلوبهم في خوف. وفجأة، ارتفع صوت زئير قوي والتمعت في الظلام عيون خضراء اللون لخمسة أسود ضخمة ترتفع عن الأرض مترين تقريبًا، هجمت الأسود على الكلاب تمزقهم بأسنانها الحادة وتلطمهم بمخالبها القوية فانطلقت الكلاب تجري على غير هدى والأسود تلاحقهم، وعم الصمت إلا من أنفاس «فوستين» اللاهثة وهو يقول:

- من أنتِ؟ هل أنتِ قديسة أو ملاك؟ ماذا يحدث؟ كيف؟!

- بل أنا إنسان عادي، اصطفاني الله ببعض العلم لكي أحارب بعض الشر وأكمل ما بدأه أجدادي بفضل الله، وكل تعويذة أقوم بها تكون آخر مرة أستطيع القيام بها، فلندعو الله ألا نحتاج لهذه التعويذة مرة ثانية، وصدقني أنا مذهولة مثلك تمامًا وكنت أتصور أن هذا الكلام هذي ولا أساس له من الصحة، ولكن ماذا

نستطيع أن نقول سوى «الحمد لله»!

قال «مالك» في صوت مرتجف:

- الأسود، لقد عادت!

وصلت الأسود، وجاء أكبرها فهز رأسه أمام «بشرى» وبطريقة دائرية اصطفت الأسود حول المجموعة وجلست، قالت «بشرى»:

- نحن في أمان حتى الصباح، عندما ينتهي أثر التعويذة سوف تغادر الأسود ونكمل مسيرتنا. والآن لنأخذ قسطًا من الراحة..

احتضنت «بشرى» الولد الذي استكان بين ذراعيها وأغلقت عينيها وحاولت أن تنام، ولكن عقلها ظل يتذكر رحلتها إلى هذا المكان، وصولها وإصرارها على البقاء رغم انتهاء المهمة التي جاءت من أجلها مع منظمة أطباء بلا حدود، صدامها مع الساحر وأعوانه وتطور الأمر حتى أصبحت مطارَدة، خائفة، تحتاج إلى حِضن أبيها. تنهدت ونزلت دمعة من عينها مسحتها وغرقت في نوم عميق.

***

مع نسمات فجرٍ جديد، أفاقت «بشرى» فرأت «فوستين» جالسًا على ركبتيه باتجاه الشروق يصلي، فابتسمت وتذكرت صلاة الفجر، قامت فتوضأت وصلت ركعتي الفجر وشكرت الله على نعمه وعلى رحمته، أيقظت «مالك» من النوم وحملت حقيبتها الصفراء وبدأت المجموعة في السير مرة ثانية، كانت الشمس قد وصلت إلى منتصف النهار عندما ظهر في وسط الطريق.

طويل ورفيع ويرتدي عباءة سوداء طويلة، تتحرك الرمال حوله في حركة دائرية وينظر إليهم نظرات متحفزه تفوح بالكراهية والحقد، ظهر فجأة من العدم وكأنه ولد في الظلام، كان الطريق قد ضاق من حولهم وارتفعت الأرض يمينًا ويسارًا تشكل ممرًا من التلال، حاولوا التراجع ولكن تساقطت خلفهم بعض

الأحجار التي سدت طريق العودة، أشارت «بشرى» «لفوستين» بالاحتماء في جوانب الممر ولكنه اختفى كما ظهر، تاركًا علامات تعجب كثيرة، أشارت لهم ليكملوا السير، قادتهم أقدامهم خارج الممر ليتسع المكان بفجوة في الأرض تحيط بها سلسلة تلال على شكل دائري، وما إن دخلوا حتى حدث انهيار صخري جديد أغلق طريق العودة.

من أعلى التلال سمعوا صوت سيارات دفع رباعي وظهر جيش من المرتزقة بقيادة «ماركوس» من كل الجهات، فأحاطوا بهم إحاطة السوار بالمعصم، ترجل «ماركوس» من السيارة وابتسم من بين أسنانه الصفراء وارتجف قلب «بشرى» وأخذ يخفق في قوة، فقد وقعوا في الفخ ولن تستطيع طلاسمها ولا تعاويذها أن تنجدهم، وبالتأكيد لا يملكون القوة الجسدية والسلاح للتصدي لهؤلاء المرتزقة. تقدم «ماركوس» يختال كالطاووس منها، وصل إليها وقال:

- إذن، أنتِ المصرية التي سببت كل هذا القلق!

ورفع يده فلطمها على وجهها، فسقطت على الأرض وخيط من الدماء يسيل من جانب فمها. صرخ «فوستين» وهو يهم بالاندفاع لمهاجمة «ماركوس»:

- أيها الوغد!

ولكن عاجله أحد رجال ماركوس بضربة قوية في مؤخرة رأسه سقط بعدها على الأرض والدماء تنزف من جرح في رأسه. أشار «ماركوس» إليه وقال لرجاله:

- احملوه مع الولد بعيدًا..

مد يده وأمسك بذراع «بشرى» وحملها على الوقوف في قسوة وقال:

- لقد أمرني سيدي أن أحملكِ له على قيد الحياة، ولكنه لم يطلب مني ألا ألهو معكِ قليلًا..

بصقت في وجهه وقالت:

- الموت أهون عليّ أيها الدميم، ماذا أرضعتك أمك؟ روث بهائم؟

دفعها بقسوة فسقطت على الأرض وأخرج مسدسه من جرابه وقال:

- أيضًا لم يأمرني ألا أطلق النار عليكِ، ربما قدمكِ أو يدكِ أو أشوه وجهكِ بالسكين، لا أظن أنه سيمانع!

أطلق الرصاص فأصاب «بشرى» في كتفها، فصرخت في ألم، ضحك في لذة وقال:

- سأتسلى معكِ طوال الطريق أيتها العاهرة، وسأسمح لرجالي بالاستمتاع بكِ أيضًا ليعدوكِ لحفلة زفافكِ مع سيدي.

رفع سلاحه مرة ثانية ليطلق النار، ولكن ظهر فجأة الرجل المتشح بالسواد وبجواره رجل آخر دميم يرتدي أثمال، أشار له أن يتوقف وقال:

- أي جزء من إحضارها سليمة وعدم أذيتها لم تفهمه أيها الغبي؟!

- لم أكن أنوي أذيتها، فقط ألهو معها يا سيدي!

لطمه على وجهه لطمة قاسية وقال:

- غبي، لن تفهم أبدًا أهمية هذه المرأة لإلهنا العظيم، لقد جاء الكاهن الأعظم بنفسه ليحملني إلى هنا لأرى هذه المهزلة وأوقفها فورًا، ثم لماذا هذا الشاب والطفل على قيد الحياة؟ ألم آمرك أن تقتلهما؟!

قال في لهجة اعتذار:

- أمرك يا سيدي..

اتجه إلى «فوستين» الغائب عن الوعي و«مالك» الذي يبكي بجواره في خوف ورفع مسدسه وصرخة «بشرى» تأتيه من الخلف وانطلقت الرصاصة وسالت

الدماء.

الخاتمة

صرخت «بشرى» في ألم وهي تغمض عينيها وانتفض جسدها مع صرخة الألم ولكن الصرخة لم تأتِ من «فوستين».. فتحت عينها فرأت «ماركوس » يسقط أرضًا مضرجًا في دمائه وعلت أصوات الرصاص تأتي من كل مكان وساد الهرج والمرج، وهبط من التلال المحيطة رجال ملثمون بلثام أزرق على ظهور جمال بيضاء، بعضهم يحمل سيوفًا يحركها يمينًا وشمالًا فيسقط رجال «ماركوس» ليلحقوا بقائدهم في الجحيم، وبعضهم يحمل بنادق ويطلقون الرصاص يمينًا ويسارًا، و»ترينو» ترفع البندقية التي اقتنصت بها «ماركوس» وأنقذت حبيبها من موت محقق وتكمل إطلاق النار على المرتزقة.

«مارجريت» على ظهر فرس أسود تندفع نحوها وتطلق رصاصة تستقر في قدم الساحر فيسقط في ذهول وهو يصرخ في ألم، ثم تتكسر عظامه تحت أقدام الخيول والجمال ويموت. تصرخ «مارجريت» قائلة:

- أيها الملكة المصرية، هذا خنجركِ، فلتكملي معركتكِ..

ألقت الخنجر نحو «بشرى» فالتقطته في مهارة وغرسته في صدر الكاهن الأعظم، صرخ الكاهن في ألم وحاول الاختفاء فلم يقدر، قالت «بشرى»:

- لن تستطيع التخفي أيها الوغد، لقد سلبتك الضربة الأولى بخنجر جدتي قدرتك على الانتقال.. والآن استقبل الطعنة الثانية..

تفادى الكاهن الضربة ووجه لبشرى ضربة قوية في بطنها دفعتها أمتارًا إلى الوراء، فسقطت تتأوه في ألم. مشى ببطء نحوها وهو يقول:

- لا زلتِ امرأة ضعيفة، سوف يسحقكِ سيدي كحشرة صغيرة وستكون نهايتكِ على يدي..

قبضت على بعض التراب وألقته في وجهه وهي تتقلب مسرعة لتمسك

بخنجرها الذي سقط، ولكنه كان أسرع، قفز في الهواء ودفع الخنجر بقدمه بعيدًا وأمسكها من شعرها وحملها إلى أعلى مرغمًا إياها على النهوض، ثم وجه إليها ضربة قوية في ظهرها ألقتها على الأرض فتأوهت وأحست بالوعي يتسرب منها في بطء.

قفزت «مارجريت» من على صهوة الفرس واصطدمت بالكاهن فطرحته أرضًا، وأمسكت رقبته تحاول أن تخنقه، فدفع الكاهن رأسه إلى الأمام في قوة ليصيبها في أنفها بجبهته فتتألم، حملها من فوقه كما يحمل الطفل وألقاها بعيدًا تحاول التقاط أنفاسها من بين الدماء التي تسيل غزيرة من أنفها.

اتجه في بطء نحو الخنجر ومد يده ليلتقطه، فأطلق صرخة وسقط الخنجر من يده تاركًا آثار احتراق فقالت «بشرى»:

- نعم أيها الوغد، لن تستطيع حمله، فهو للأطهار فقط ولا يسمح لأمثالك لمسه.

أزاحه بقدمه واتجه إليها ومن عباءته أخرج سيفًا كبيرًا وارتسمت على وجهه ابتسامة وحشية ورفع السيف وقال:

- من أجل «مولوخ»..

اخترق صدره في نفس اللحظة سيفٌ آخر يحمله رجل ملثم صرخ قائلًا:

- خذها من سيف «يوسف بن يحيى الكوالي» أيها اللعين..

انتفض الكاهن في ألم وسقط على الأرض وهو يبصق الدم من فمه، ثم انتفض واقفًا ولمعت عيناه بضوء أحمر وظهرت حوله سحابة من الدخان وأدار السيف في قوة وضرب به سيف الرجل، وظلا يتصارعان بالسيوف وبدأت الكفة تميل نحو الكاهن.

في نفس الوقت، زحفت «بشرى» بهدوء نحو الخنجر فأمسكت به في قوة وهي تتمتم بكلمات جعلت نصل الخنجر يتوهج بضوء أبيض والقلادة تتوهج

بضوء أخضر زاهٍ، وقامت من رقدتها وذرات من النور الأبيض المتداخل مع الأخضر تلتف حولها فيما يبدو تعطيها القوة، وطعنت الساحر طعنة نجلاء اخترقت ضلوعه واستقرت في قلبه، فأصدر صوتًا مثل خوار الثور وسقط جثة هامدة.

تعالت صيحات الانتصار من كل مكان وتقدم منها الرجل الملثم وقال:

- أنا حفيد «يوسف بن يحيى الكوالي» وقد عاهدت أبي الذي عاهد أباه من قبل على نصرة محاربي المعبد، وأن نلبي النداء عندما تحين المعركة، والعربي المسلم لا ينقض عهوده حتى لو مر عليها مئات السنين.

- تشرفنا يا أخي الكريم..

- الشرف لي، ولتعرفي دائمًا أنني وعائلتي سنكون في خدمتكم وخدمة حراس المعبد في أي وقت وأي زمان حتى تقوم الساعة.

هزت رأسها في امتنان ونظرت حولها فرأت فوستين يساعد مارجريت على القيام وبجواره ترينو ومالك ينظران إليها في سعادة، وانتهت معركة من حرب طويلة بين الشر وحراس الخير، حراس المعبد.

***

في مكان ما في الولايات المتحدة، خرج السيناتور الأمريكي عن ولاية ألاسكا من مكتبه بعد يوم طويل ومقابلات مع شخصيات ومناقشات حول موضوعات عدة هامة لعامة الناس ولكنها مملة جدًا له، لم تكن قضايا المناخ والغذاء ومنع السلاح عن الدول غير الديمقراطية تهمه كثيرًا، ولكن مواضيعه المفضلة هي حقوق الأطفال في اختيار جنسهم وحقوق المتحولين جنسيًا في ممارسة حياتهم بغض النظر عن كيفية خلق الله لهم وغيرها من القضايا التي تفسد المجتمع.

أنهى كل هذه المهام وناقش مع مساعديه خطته للترشح للانتخابات الرئاسية بعد انتهاء مدة الرئيس الحالي وكيف سيقوم بجمع أموال الحملة من تجار السلاح بالدفاع عن حقوق الأمريكيين في حمل السلاح، غاضًا البصر عن حوادث إطلاق النار العشوائية في المدارس وشركات الدواء التي تتخذ دول العالم الثالث حقلًا خصبًا لتجربة سمومهم وتشكل ستارًا للإتجار بالأعضاء وقد تصل للإتجار بالبشر، بعض هذه الشركات مملوكة لأسرته وتدر أرباحًا خيالية في بنوك سويسرا وبنوك جزر الكاريبي بعيدًا عن أعين المراقبين.

ركب سيارته وأشار للسائق، فقام بغلق النافذة التي تفصل السائق عنه وحل رباط عنقه وصب لنفسه كأسًا من الخمر وارتشفه في بطء.

وصل إلى قصره على مشارف العاصمة الأمريكية وترجل ودخل من الباب متجهًا إلى غرفة مكتبه، وقبل أن يضيء الغرفة تراجع في خوف عندما رأى شخصًا جالسًا على الكرسي بجوار النافذة متشح بالسواد وتضيء عيناه باللون الأحمر. اقترب منه وجثا على ركبتيه وأخذ يده السوداء ذات الأظافر الطويلة وقبّلها في خضوع وظل راكعًا مدة طويلة، وتركه المتشح بالسواد مدة طويلة ليضمن سيطرته عليه، ثم قام وسار نحو النافذة وقال بصوت عميق:

- قامت معارك محدودة في أفريقيا انتهت بالقضاء على أحد رجالنا المهمين هناك، وأيضًا فقدنا أعضاء مهمين في شبكة الاتجار بالأعضاء.

برقت عين السيناتور الأمريكي في غضب وقال:

- من يجرؤ على هذه الفعلة الشنعاء؟ يجب مطاردته والقضاء عليه والانتقام منه لنجعله عبرة لمن لا يعتبَر!

تجاهله المتشح بالسواد وقال:

- لقد ظهر الخنجر الفضي وباستخدامه نجحوا في القضاء على الكاهن الأكبر المسؤول عن القارة، والذي كان يقوم بمهام الرب «مولوخ» في إفريقيا، ولا أعني

أن من مات هو الكيان الإنساني الذي يحتله، بل أيضًا الكيان الشيطاني الذي تم نفيه وتكبيله في الجحيم، ولن نستطيع تحريره حتى نهاية الزمان، ولذلك فيجب أن نستدعي أعضاء المجمع الكهنوتي ومساعديهم للاجتماع للاتفاق على الخطوات القادمة في حربنا، وخاصةً مع ظهور حراس المعبد وقيادتهم معركة أفريقيا ضد حلفائنا هناك ونحتاج أيضًا اختيار مندوب جديد لأفريقيا.

- حراس المعبد والخنجر الفضي! هذا تطور شديد الخطورة، يجب مهاجمتهم والحصول على الخنجر بأي ثمن، هل هو الخنجر الخامس الذي احتفظ به سليمان لنفسه؟

تجاهله للمرة الثانية وقال:

- أسلوب رعاة البقر هذا لا ينفع، ولا يمكن الاستهانة بحراس المعبد فوجودهم شديد الخطورة على مولانا وإلهنا نفسه، أرسل الدعوة لانعقاد مجلس الكهنة فورًا وليكن الأسبوع المقبل في المكان المعتاد. ولا، ليس الخنجر الخامس، لا زال مفقودًا.

- أمرك يا سيدي.

انحنى فقبّل يد سيده، وظل راكعًا مع انتشار الدخان في الغرفة. وبعد اختفاء الدخان قام السيناتور إلى حاسوبه الإلكتروني وفتح أمامه صفحة تحتوي على رأس ثور تشتعل النار من عينيه، ضغط الرجل على كلمة الدخول فخرج شعاع من الضوء من كاميرا مثبتة على سطح الكمبيوتر أخذ الشعاع يجوب في وجهه لدقيقة ثم طلب منه إدخال كلمة سر شديدة التعقيد، ثم قرأ كلمة مسموح بالدخول.

كتب رساله مشفرة بالدعوة إلى الاجتماع انتقلت بين أكثر من خادم مركزي في عدة أماكن في العالم عبر شبكة شديدة التعقيد إلى حاسوب أحد عشر شخصًا. أطفأ الرجل الجهاز وأعاد ظهره إلى الخلف وهو يشعل سيجارًا كوبيًا،

فبضغطة زرٍ أشعل الحرب التي ستكون هذه المرة شديده الخطورة وعلى نطاق عالمي.

تمت بحمد الله

دبي 2023

مراجع

أولاد إبليس من كتاب «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم»، المؤلف عبد الرحمن بن علي الجوزي.

«البداية والنهاية الجزء الأول» ابن كثير.

تاريخ ابن خلدون.

المعجم العربي الأمازيغي - د. محمد شفيق

In search of Historical Moloch - by Robert Martin Kerr

Uncovering the truth about Moloch - By Baal Kadmon

Decipher Moloch - By Ricardo Max